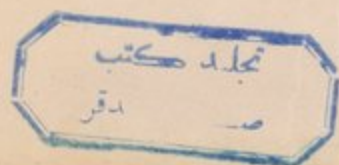


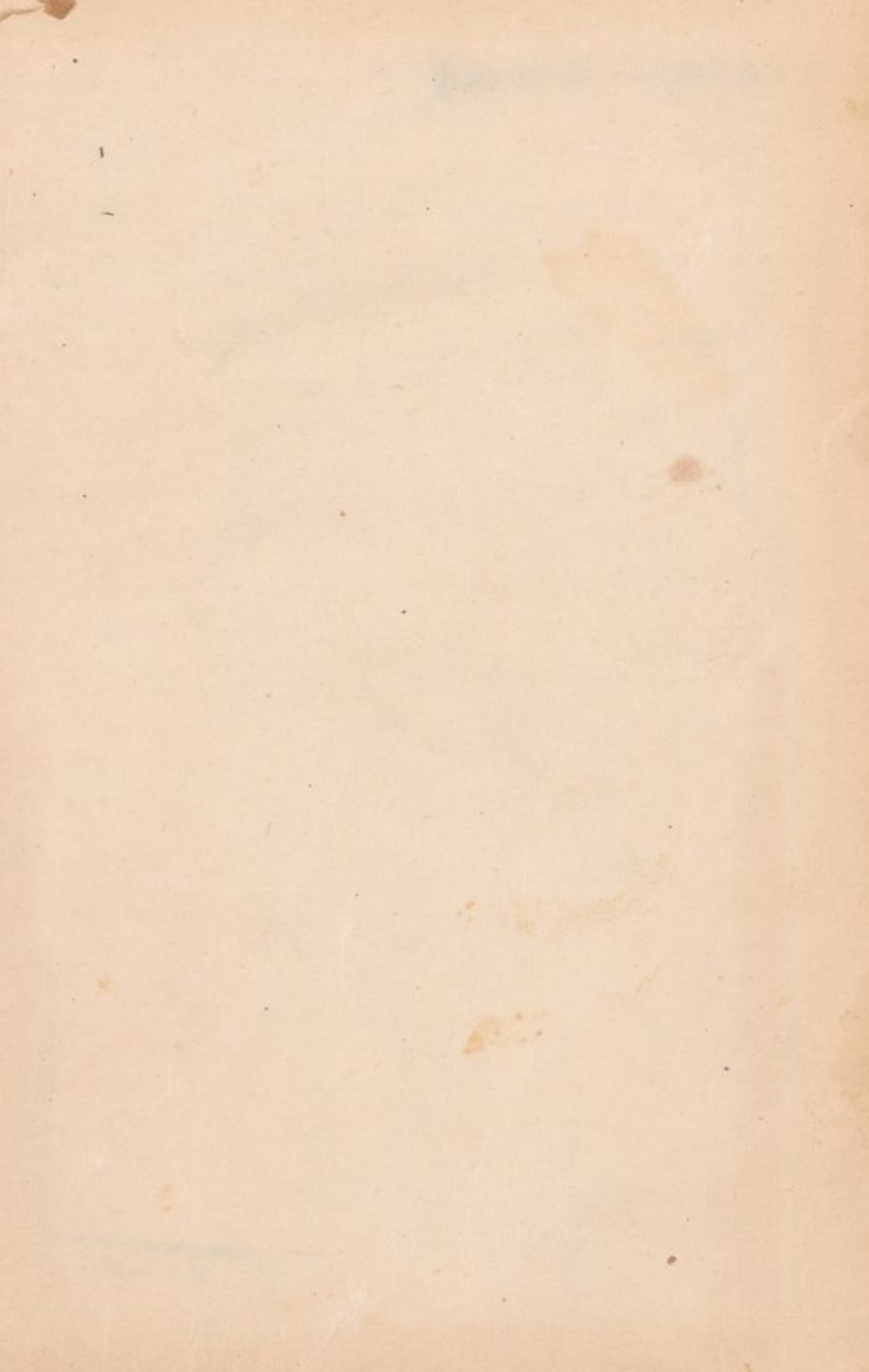
818
W553eA

A.U.B. LIBRARY

1



11



813

W553eA

فتریبہ الطیب
و
عزلہ وادی
سری

تالیف

ادیث ہوارتون

Edith Wharton

اخبار الیوم

۱۹۰۷

نشر بالاشتراك مع مؤسسة
فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك

هذه الترجمة مرخص بها
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء
حقوق الترجمة من صاحب هذا الحق وتنازلت عنها لدار
« أخبار اليوم »

This is a translation of Ethan From by Edith
Wharton, copyright 1911 by Charles Scribner's
Sons, and of "Old Maid" by the same author.

ضريبة الحب

عرفت القصة ، قطعة قطعة ، من أناس مختلفين ، وكانت القصة فى كل مرة مختلفة ، كما يحدث عادة فى مثل هذه الاحوال اذا كنت تعرف قرية ستاركفيلد بولاية ماساتشوستس فانك تعرف مكتب البريد . واذا عرفت مكتب البريد ، فلا بد انك شهدت ايتام فروم يسوق مركبته صاعدا اليه ، ويلقى العنان الى ظهر جواده الاسمر البادى العظام ، ثم يمشى ويبدأ فى الطريق المرصوف بالطوب الى المدخل ذى الاعمدة البيضاء ، وحينئذ تراك تتساءل من هذا الرجل ؟

هنالك رأيته لأول مرة منذ عدة سنوات ، واسترعت رؤيته نظرى . فقد كان حتى فى تلك الايام أكثر رجال ستاركفيلد استرعاء للانظار ، ولو انه كان عندئذ حطام رجل من الرجال ولم يكن ذلك بسبب طول قامته التى تلفت النظر ، اذ ان أهل البلاد الاصليين يتميزون بقامتهم الطويلة النحيلة عن المتوطنين من الاجانب القصار القامة الاشداء . وانما كانت تميزه نظرتة القوية فى غير اكتراث بالرغم من عرج يعوق كل خطوة من خطواته كالغل ، وكان فى وجهه شىء من الجفوة لا يشجع على الاقتراب منه ، وقد جف عوده وخطه الشيب ، حتى خلته كهلا ، ودهشت حين علمت انه لم يجاوز الاثنتين والخمسين من عمره علمت ذلك من هارمون جوالدى كان يقود عربة النقل من بتسبريدج الى ستاركفيلد قبل ايام عربة الترام . وانه ليعلم تاريخ جميع الاسر التى كان يمر ببيوتها فى طريقه

قال هارمون فى ثنايا فترات يجمع فيها ذكرياته : « ان هذا منظره منذ حادث الاصطدام الذى وقع له . ويمر على هذا الحادث أربع وعشرون سنة فى فبراير القادم »

وانبأنى هذا المنبىء نفسه - ان حادث الاصطدام هو الذى أصابه بذلك الشج الاحمر الذى يمر فوق جبهته ، وهو الذى

عطل فضلا عن ذلك جانبه الايمن وقصره ، حتى صار لا يخطو الخطوات القليلة من مركبته الى نافذة البريد الا بجهد ظاهر . ومن عادته ان يقصد دار البريد في المركبة من مزرعته حوالى الظهر . وكان هو الوقت المختار لى لا تسلم ماياتينى من رسائل . فكنت كثيرا ما اراه فى مدخل البريد او أف الى جانبه ، وهو ينتظر حركة اليد الموزعه من خلف حديد النافذة . ولاحظت أنه على انتظامه فى الحضور فى موعد معين ، قد يصل اليه شئ غير نسخة من جريدة «نسر بتسبريدج» ، فيضع النسخة فى جيب سترته الواسع دون ان يلقي عليها نظرة . وبين فترة وأخرى يقدم اليه صاحب البريد مطروفا بعنوان السيدة زينوبيا او السيدة زينة فروم ، وعلى هذا المظروف من الجهة اليسرى نرى فى مكان بارز عنوان احد صناعات الادوية الجاهزة واسم الدواء . ويضع جارى ايضا هذه الاوراق فى جيب سترته دون ان يلقي عليها نظرة . كأنه قد اعتاد هذه الادوية حتى لم تعد تدهشه كثرتها وتنوعها ثم بعد ذلك يقفل عائدا بعد ان يحيى صاحب البريد برأسه تحية صامته

كان كل انسان فى قرية ستاركفيل يعرفه ويحييه تحية هادئة ، تناسب نظرة الجد البادية عليه ، ويحترم الجميع صمته . وقلما يستوقفه احد كهول القرية ليتبادل معه كلمة ، فاذا ما حدث ذلك كان يصغى فى هدوء وقد ثبت عينيه الزرقاوين على وجه المتكلم . ويجيب فى صوت خفيض حتى انى لم اسمع قط كلماته . ثم يركب فى صعوبه مركبته ويمسك اللجام فى يده اليسرى ويسير ببطء فى اتجاه مزرعته

سألت هارمون «أكان حادث الاصطدام خطيرا الى هذا الحد؟» سألته هذا السؤال وأنا أنظر الى شخص فروم وهو يبتعد . وأفكر أى منظر فخم كان لرأسه النحيل الكستنى بشعره الرقيق فوق هاتين الكتفين قبل ان ينحنيا فلم يعد لهما شكل

قال منبئى : « من أسوأ الحوادث وكان اصطداما كافيا لقتل أى انسان . ولكن أفراد اسرة فروم فيهم صلابة ومن المحتمل أن يعيش فروم حتى يبلغ المائة »

فصحت « رباة ! » وكان ايتان فروم فى تلك اللحظة قد تسلق المركبة الى مقعده ، ثم انحنى ليتأكد من سلامة صندوق خشبى كتب عليه عنوان صيدية - وكان قد وضعه فى الجزء

الخلفى من المركبة ورايت وجهه حين يبدو على الغالب عندما لا يراه احد فقلت لنفسي : « هذا الرجل يبلغ المائة ! انه يبدو كالاموات بل كأنه انتقل الى الجحيم من الآن ! »

وأخرج هارمون قطعة الطباقي من جيبه ، واقتطع منها قطعة ، وحشرها في شدقه الشبيهة بمحفظة الجلد ، وقال ا « تصور انه يمضى كل شتاء في ستار كفيلد ، مع أن أكثر الصفوة من أهل القرية يغادرونها ! »

فسألت : « ولماذا لا يغادرها ؟ »

قال « لابد عندئذ من شخص يعنى بأهله . ولا يوجد غيره احد . فقد عنى بأبيه ثم بأمه ثم بزوجه . »

فسألت : « ثم حدث الاصطدام ؟ »

فضحك هارمون في أسى وقال : « تماما ! واضطر اذن للبقاء » فقلت : « فهمت ! ومنذ ذلك الحادث هل يعنى به أهله الآن ؟ »

ونقل هارمون الطباقي الى الشدق الآخر وهو في تفكير وقال « فيما يتعلق بهذا أظن أن ايتان هو الذى يقوم بالعناية بذويه دائما »

لقد فصل هارمون جو القصة بقدر ما يستطيع عقله ونزعته الخلقية . ولكن تبين لى فى الحال ان هنالك ثغرات فى حديثه ، وأن المعنى العميق للقصة فى هذه الثغرات . بيد أن عبارة واحدة علققت فى ذاكرتى . وصارت المحور الذى تدور حوله تقديرأتى « وهى قوله : « تصور أنه يمضى كل شتاء فى ستار كفيلد . »

قبل ان تنتهى مدة اقامتى فى تلك القرية كنت قد فهمت معنى هذا القول . ومع ذلك فقد جئت اليها فى آخر الزمان بعد أن انتشر فيها استعمال الترام والدراجة والتوزيع الريفى ، وصار الاتصال بين اقرى المتناثرة فى الجبال ميسورا ، وبعد أن أنشئت فى البلدان التى هى أكبر منها الواقعة فى الوديان ، مثل بتسبريدج وشلالات شادومكتبات ، مسارح وقاعات لجمعية الشبان المسيحيين يستطيع ان ينزل اليها شبان فى الجبال للترويج عن نفوسهم . ولكن حين أطبق الشتاء على ستار كفيلد . وأصبحت القرية تحت طبقة من الجليد تتجدد دائما من السماء

الباهتة ، بدأت أعرف معنى الحياة فى تلك القرية فى عهد شباب
ايتان فروم ، أو معنى الموت الذى كان يحيط عندئذ بها

لقد أرسلنى أصحاب العمل فى مهمة متعلقة بإنشاء دار للقوة
الكهربائية كبيرة فى وصلة كوربرى ، ولكن اضرا باطويلا بين النجارين
آخر عملى وألقى رحالى مدة طويلة فى قرية ستار كفيلد ،
وهى أقرب قرية بها سكان الى مكان العمل فبقيت بها الجزء
الاكبر من الشتاء . وكنت كثير الامتعاض لذلك فى مبدأ الامر ثم
اعتدت نظام الحياة بها ، فصرت رويدا رويدا أرضى رضاء
عابسا عن تلك الحياة . وكنت فى مبدأ اقامتى بتلك القرية ،
قد لاحظت التباين بين ما فى جوتلك الجهة من حياة ، وما فى
معيشة أهلها من موت . وفى يوم آخر يوم ، بعد أن انتهى
تساقط ثلوج ديسمبر ، كانت سماء زرقاء زاهية تغمر هذا
المنظر الابيض بسيول من النور والهواء ، فتزيد من بريقه .
وكان أغلب الظن ان مثل هذا الجو من شأنه أن يسبب سرعة
انفعال أهل القرية وسرعة حركة دمائهم . ولكنه لم يزد هم الا
خمولا وبطئا . ولما اقامت مدة أطول ، ورأيت هذا الطور من
النقاء البلورى ، تتبعه فترات طويلة من برد لا شمس فيه ،
ثم تأتى عواصف فبراير فتضرب خيامها بتلك القرية المحبوبة ، ثم
تمر بها كتيبة تلك الفرسان الخاطفة من زوابع مارس ،
تشد أزر العواصف ، بدأت افهم لماذا يخرج أهل ستار كفيلد من
ذلك الحصار المستمر ستة أشهر كأنهم حامية جائعة استسلمت
للعُدو بلا شرط . على أن وسائل المقاومة كانت أقل كثيرا قبل
ذلك بعشرين سنة . وكان العدو حينئذ يتسلط على جميع
خطوط الاتصال بالقرى المنكوبة . وأمام التفكير فى هذه الاحوال
فهمت ما تنطوى عليه عبارة هارمون « ان الصفوة من
أهل القرية يغادرونها » من قوة . فاذا كانت هذه هى الحال ،
فكيف كانت ؟ وأى عقبات تجمعت ، فحالت دون فرار
رجل مثل ايتان فروم ؟!

كنت اقيم اثناء اقامتى بـستار كفيلد لدى أرملة فى متوسط
العمر يعرفها الجميع باسم مسز ندهايل . وكان والد مسز هايل
محامى الجيل السابق بالقرية . وكانت دار المحامى فارنوم ،
حيث لا تزال تقيم صاحبة مسكنى مع والدتها ، اكبر دار
فى القرية . وهى واقعة عندنهاية أهم طريق فيها . مدخلها

على الطراز القديم ، ونوافذها ذات ألواح ذجاجية صغيرة ،
تطل على طريق مبلط تحفه أشجار نرويجية طويلة تمتد
الى البرج الابيض الطويل للكنيسة سة الجماعية . وكان من البين
ان حال آل فارنوم قد تدهورت . ولكن المراتين بذلتا كل ما في
وسعهما للاحتفاظ بشيء من المكانة . . وكانت مسز هایل
بنوع خاص على قسط من التهذيب يلائم بيتها الباهت ذا الطراز
القديم

كنت أستمع كل مساء في غرفة الجلوس ، ذات الارائك من
الحشب الثمين والمساند المحشوة بشعر الخيل ، يضيئها مصباح
قوى من طراز كارسيل ذو طنين، الى قصة أخرى أكثر تهديبا من
قصص ستار كفيد . وليس ذلك لان مسز ندهايل كانت تشعر
بشيء من التعالي الاجتماعي على الناس من حولها . ولا تزعم ذلك
لنفسها . بل ان المصادفة أتاحت لها احساسا أرق وتربية أعلى ،
مما ميزها تميزا كافيا على جاراتها بحيث تستطيع أن تحكم
عليهن بغير تحيز . ولم تكن تكره أن تستعمل هذه الموهبة . لذلك
كان لدى أمل كبير في أن أعرف منها الوقائع الخفية في قصة
ايتان فروم ، أو مفتاح خلقه الذي يتلاءم مع مآعرفته من وقائع ،
وكان عقلها يخترن طائفة من القصص البريئة ، وأي سؤال
عن الناس الذين تعرفهم ينتج مجلدا من التفصيلات . ولكني
وجدتها فيما يتعلق بايتان فروم متحفظة على غير انتظار . لا أقول
ان في كلامها ذرة من الاستياء في التحفظ . بل كل ما هنالك أني
أحسست ان لديها ترددا لا يقهر في الكلام عنه وعن شئونه . وكل
ما سمحت به لاشباع فضولى قولها في صوت خفيض « نعم
. . عرفت كليهما . . وكان أمرا فظيحا . . »

لقد تغير مسلكها تغيرا ظاهرا وانطوت عبارتها على أسى عميق
حتى انى عدت فأثرت الموضوع لدى هارمون جو ، وحي القرية ،
وأنا أشعر بما في هذا العمل من تنكب للذوق . فلم أكافأ على تعبى
الا بهممة تدل على أنه لا يفهم . وقال لى : « ان روث فارنوم
خائرة الاعصاب دائما كالجرذ ، ولكن عندما افكر في الامر ، أجد
أنها أول من رأيها بعد أن عشر عليهما . وكان الحادث في المنطقة
التي تقع في أسفل دار المحامى فارنوم ، عند منحنى الطريق الى
كوربرى . وكان ذلك حوالى الوقت الذى خطبت فيه روث الى

نדהايل . وكانوا جميعا في شبابهم أصدقاء . وأعتقد أنها لا تحتمل الحديث عن هذا الامر . ولها من متاعبها مافيه الكفاية .
ولسكان ستاركفيلد جميعا ، سكان الاماكن الأكثر اشتها رامنهم من متاعبهم مافيه الكفاية ، حتى انهم يصبحون أقل اهتماما منسبيا بمتاعب جيرانهم . وهم يستلمون بأن قسط ايتان فروم من هذه المتاعب أكبر من المعتاد . ولكن لم يفسر لي أحد منهم ، سبب النظرة الجائمة على وجهه ، وهي التي مازلت أصر على أنه لا الفقر ولا الآلام الجسدية يمكن أن تضعها على الوجه .

ولقد كنت أستطيع الاكتفاء بالقصة التي استخرجتها من شتات هذه الاشارات ، لولا أن أثارتنى مسزهايل بصمتها ، ولولا المصادفة التي حدثت بعد قليل من الزمن حين اتصلت اتصالا شخصيا بالرجل !!
كنت قد اتفقت حين وصولي الى قرية ستاركفيلد مع دنيس ايدى البقال الارلندي الثري ، الذي يمتلك في ستاركفيلد مايمكن أن يسمى حظيرة خيل للنقل ، على أن يتولى نقل يومية الى منبسطات كوربري حيث أستطيع ركوب القطار من هنالك الى الوصلة ، ولكن في منتصف الشتاء مرضت خيول ايدى اذ أصيبت بوباء محلي وامتدت الاصابات الى غيرها من حظائر الحيل في ستاركفيلد وظللت يوما أو يومين لا أجد وسيلة للانتقال الا في صعوبة . وحينئذ قال لي هارمون جو ان جواد ايتان فروم الاسمر لا يزال يدب على رجله وقال ان صاحبه قد يسر اذا أتيج له نقل

فبهت لهذا الاقتراح وسألته : « ايتان فروم ؟ ولكنني لم أتحدث اليه مطلقا ! وما الذي يدعو لان يتعب نفسه من أجلي ؟ »
وأدهشتنى اجابة هارمون أكثر من اقتراحه حين قال : « لست أعلم أنه يفعل هذا من أجليك ، ولكنني أعلم أنه لا يأسف اذا كسب دولارا »

لقد قيل لي أن فروم فقير ، وان طاحونة قطع الاخشاب وأراضي مزرعته الجذباء ، لا تكاد تمده بما يقوم بأوده أثناء الشتاء ، ولكنني لم أتصور أنه في مثل هذه الشدة التي تفهم من كلمات هارمون ، وأعربت عن هذه الدهشة

قال هارمون : « ان الامور لم تسر على ما يشتهي ، فعندما يركد الرجل عشرين سنة أو أكثر ، كالسفينة القديمة ، وهو يرى أشياء يحب عملها ، فان ذلك يؤثر فيه ، فتضعف عزيمته ، ولقد كانت مزرعة فروم دائما غارية جذباء كإناء اللبن بعد أن تلعقه

الهرة • وانك لتعلم ماقيمة تلك الطواحين القديمة التى تدار بالماء
فى هذه الايام • ومهما تصبب العرق من جبين ايتان فى سبيل
الطاحونة والمزرعة ، منذ شروق الشمس الى انتشار الظلام ، فانه
لا يكاد يخرج منها مايكفل له العيش على أن أهله يستهلكون
اكثر مما ينتجه ولا أعرف كيف يستطيع تدبير أموره الآن •
ولقد حدث أولا أن أصيب أبوه بضربة شمس وهو يجمع التبن
فخف عقله • وصار قبل وفاته يوزع النقود كما يوزع الاتقياء
نصوص الكتاب المقدس ، ثم خرفت أمه • وامتدت بها السنون
وهى ضعيفة كالطفل ، وتعتبر زوجته زينة أكبر عملاء الاطباء
فى هذه المقاطعة ، فالمرض والمتاعب هى مامتلات به صحاف
طعام ايتان فروم منذ أن عرف الاكل لأول مرة !!

وفى صباح اليوم التالى عندما خرجت لعملى رأيت الحصان
الاعجف بين أشجار فارنوم وقد أزاح ايتان فروم جلد المركبة
القديم ليفسح لى مكانا فى الزاحفة الى جانبه • وظل بعد
ذلك اسبوعا ينقلنى فى زاحفته الى منبسطات كوربرى فى كل
صباح • وفى عودتى بعد الظهر ، يقابلنى ويعود بى فى برودة
الليل الى قرية ستاركفيلد • وكانت المسافة ذهابا وايابا تزيد
على ثلاثة أميال • ولكن خطوة الحصان الهرم بطيئة • وكنا
نقطع الطريق فى نحو الساعة لو كان الجليد ثابتا تحت مزالق
الزاحفة • وكان ايتان فروم يسوق المركبة فى صمت وهو
ممسك باللجام فى رفق بيده اليسرى ، ويبدو جانب وجهه
الاسمر ذى الندوب تحت طاقيته الشبيهة بالحوذة ، وترى ظله
ينعكس على الجليد كأنه تمثال من البرونز لبطل من الابطال
وكان لا يدير وجهه الى قط • ولا يجيب عن الاسئلة التى أوجهها ،
أو النكات الصغيرة التى أجرؤ عليها ، الا بكلمات قصيرة •
وكانه جزء من المنظر الطبيعى الحزين الصامت ، أو كأنه قد
تقمصه ذلك الأسى المتجمد فى منظر الطبيعة ، وانطبع فى نفسه
قساوة الجو الجليدى فحبست فى أطوائه كل دفء وحرارة • بيد
أن هذا الصمت لم يكن فيه مايشير الى الرغبة عن الصداقة
وكل ما شعرت به فى بساطة أنه يعيش فى أعماق وحدة خلقية ،
حتى ليصعب الوصول الى نفسه عادة • وشعرت كذلك أن هذه
الوحدة ليست نتيجة متاعبه الشخصية بالرغم من انها أليمة
فيما لاحظته • ولكنها نتيجة أيضا ، كما أشار هارمون جو
للتأثير المتجمع من برد الشتاء ومروره على قرية ستاركفيلد سنة
بعد سنة

وقد تمكنت مرة أو مرتين من اجتياز ذلك الجسر القائم بيننا
وكانت النظرات الخاطفة التي حصلت عليها عندئذ مما زادني
رغبة في أن أقوى معرفتي به . فقد تكلمت ذات مرة عن عمل
هندسى قمت به فى السنة السابقة بفلوريدا ، وعن التباين بين منظر
الشتاء الذى يحيط بنا والمنظر الذى كنت أراه فى السنة السابقة ،
ودهشت حين أجبني فروم فجأة: « نعم لقد كنت هنالك ذات مرة ،
وظللت مدة طويلة يتراءى لى منظر تلك الجهة فى الشتاء ، ولكن هذا
المنظر اختفى تحت الثلوج »

لم يقل أكثر من ذلك الا اننى تخيلت البقية من نبرات صوته ،
وعودته الى الصمت فى حدة

فى يوم آخر افنقدت مجلدا فى العلوم العامة وأنا أركب القطار من
المنبسطات فلم أجده وكان المجلد فيما اظن يبحث فى شأن
مكتشفات جديدة فى الكيمياء الحيوية . وكنت أحمله معى
لاقرأه فى الطريق . ولم أفكر فيه حتى عدت مرة ثانية الى
الزاحفة فى ذلك المساء . فرأيت الكتاب فى يد فروم .

قال لى : « لقد وجدته بعد ذهابك » . .

فوضعت المجلد فى جيبى ، وسرنا فى صمتنا المعتاد . وبينما
كنا نصعد فى بطة الى ذلك الطريق الطويل من منبسطات كوربرى الى
هضبة ستاركفيلد ، شعرت فى الظلام انه أدار وجهه نحوى
وقال : « قرأت فى هذا الكتاب اشياء لم أكن أعرف عنها كلمة
واحدة »

كانت دهشتى من كلماته أقل من دهشتى لنبرة الاستياء
الغريبة فى صوته . وكان من الواضح انه دهش وأسف قليلا
لجهله

فسألته : « هل تهتم لمثل هذه الاشياء »

فأجاب : « كنت أهتم بها » !

فقلت : « ان فى هذا الكتاب مسألة أو مسألتين جديدتين ولكن
هذه الابحاث خطت أخيرا خطوات واسعة » . وانتظرت قليلا كي
يرد الجواب ولكنه لم يفعل ، فقلت « اذا أردت أن تقرأ الكتاب
بأكمله فانى أكون سعيدا بأن أتركه معك »

فتردد قليلا وبدأ لى انه على وشك أن يخضع لموجة من الحمول .
ثم أجاب فى عبارة قصيرة « أشكرك سأخذ الكتاب ! »

ولقد أملت في أن هذا الحادث سيجعل نوعا من الاتصال المباشر بيننا • وكان فروم بسيطاً وصريحاً • فكنت واثقا من أن فضوله قائم على اهتمام حقيقى بالموضوع • ومثل هذه الميول في رجل هذه حالته مما يجعل التباين ألما بين مركزه المادى، وحاجاته النفسية • وكنت أومل أن فرصة التعبير عن هذه الحاجة قد تفتح على الأقل شفتيه، ولكن يظهر أن شيئا في تاريخه الماضى أو طريقة معيشته في الحاضر قد جعله ينطوى على نفسه، بحيث لا يمكن لدافع عارض أن يجذبه ثانية الى الناس ففي مقابلتنا التالية لم يشر الى الكتاب • وبدأ لى أن القدر قضى بأن يظل اتصالنا سلبيا ومن جانب واحد • وكأن لم ينفرج ستار تحفظه

ظل فروم يسوق المركبة بى الى المنبسطات نحو اسبوع وفي ذات صباح نظرت من نافذتى فوجدت الجليد ينزل ثقيلًا • وكان ارتفاع امواجه البيضاء الى جانب سور الحديقة، وعلى حائط الكنيسة، يدل على أن العاصفة استمرت طول الليل • وان هطول الثلج سيكون شديدا في العراء، وبد لى من الراجح أن يتأخر قطارى • ولكن كان لابد من وجودى في محطة القوة الكهربائية مدة ساعة أو ساعتين بعد الظهر • وقررت انه اذا جاءنى فروم، فسأذهب الى المنبسطات وأبقى هنالك الى أن يأتى القطار • ولا أعلم لماذا كانت صيغة تفكيرى شرطية مع أنى كنت واثقا بمجيئه • فهو من الرجال الذين لا يمكن ان يحول دون عملهم أية ثورة في العناصر الطبيعية • ولقد رأيت مركبته تنزل على الثلج في الساعة المقررة، كأنها شبح مسرحى يبدو من وراء ستار شفاف •

لقد صرت أعرفه معرفة حالت بينى وبين الاعراب عن الدهشة أو الشكر لاحتفاظه بموعده • ولكنى أعربت عن دهشتى حين رأيته يدير حصانه في الاتجاه المخالف لطريق كوربرى قال لى ونحن نسير بين الثلوج : « لقد تعطل طريق السكة الحديدية بقطار بضائع سدت سبيله عاصفة من الثلج فى أسفل المنبسطات »

فسألت : « اذن الى أين تسير بى ؟ »

اجاب وهو يشير بسوطه الى التل المقامة عليه المدرسة :
« انى أسير بك رأسا الى الوصلة بأقصر طريق »

فصحت : « الى الوصلة في مثل هذه العاصفة ! انها لتبعد
مالا يقل عن عشرة أميال »!

فقال : « سيقطعها الحصان اذا أتحت له الوقت ! لقد قلت
ان لديك عملا تؤديه بعد ظهر اليوم وسأعمل على وصولك ! »
قال ذلك في هدوء حتى انى لم أستطع الا أن أقول : « انك
تسبغ على أكبر الفضل »

فقال : « لا شيء من ذلك »

كان الطريق يتفرع امام بناء المدرسة فنزلنا في طريق ضيق
الى اليسار يسير بين اشجار الهملوك التى انحنى رهوسها الى
جذورها ، بثقل ما عليها من ثلج ، وكنت كثيرا ما أسير فى ذاك
الطريق فى أيام الاحد وأعلم أن السقف المنفرد الذى أراه من
خلال فروع الاشجار العارية فى أسفل التل انما هو طاحونة
قطع الاخشاب التى يمتلكها فروم وكان منظرها يدل على قلة العمل
فيها ، بعجلتها المتبطللة الجائمة فوق النهر الاسود ، تغطيه قطع
من الثلج المصغر ومجموعتها من المخازن المنحنية الظهر تحت حملها
الابيض .

ولم يثن فروم حتى رأسه ناحيتها ونحن نمر . وبدأنا
نصعد المنحدر الآخر ونحن فى صمت ايضا . وبعد أن قطعنا
نحو ميل ، من طريق لم أمر به من قبل ، وصلنا الى حديقة
صغيرة من اشجار التفاح الضعيفة النامية ، بين مرتفع من
الارض تخرج من ثناياه احجار الازدواز ، تطل من بين الثلوج
التي تغطي الارض ، كأنها حيوانات أخرجت أنوفها للتنفس .
وفيما وراء الحديقة نرى حقلا أو حقلي ، وقد غابت حدودهما
تحت أكوام الثلوج ، وفيما فوق هذين الحقليين يطل على
الفضاء الواسع الابيض ، المؤلف من الارض والسماء ، احدى تلك
الدور الزراعية المتناثرة ، التى تشاهدها فى اقليم نيوانجلند ، وهى
تزيد فى كآبة المنظر ووحشته

قال فروم وهو يلوح بكوعه العاجز الى جانب الطريق : « هذا
مسكنى ! » ولم أجد ما أرد به حين رأيت المنظر وما فيه من بؤس وكآبة ، وكان
هطول الثلج قد وقف وسقطت أشعة الشمس مبلة على المنحدر
فكشفت عن الدار بكل ما فيها من قبح أليم . وكان فوق مدخلها

أكليل اسود معقود من غصون بعض النباتات الزاحفة • وكانت الحوائط الخشبية الرقيقة خلف طلائها القديم الباهت ، ترتعش تحت وطأة الرياح التي هبت على أثر انتهاء سقوط الثلج •

جذب فروم اللجام من الناحية اليسرى ، ليحول دون الرغبة التي بدت من الحصان في الاتجاه نحو المدخل الخارجي المكسور ، واستمر يقول : « كانت هذه الدار في أيام والدي أكبر مما تراها ، وقد اضطررت أخيرا الى هدم الجناح المقابل لها • »

فرايت عندئذ ان منظر الدار وما يبدو عليها من اهمال قد نشأ بعضه عن حرمانها من ذلك البناء المألوف في نيوانجلند ، وهو الذى يصل بين الدار والحظائر ، بحيث يؤلف زاوية قائمة مع بناء الدار الاساسى • فهذا البناء الموصل يؤلف معنى رمزيا للحياة المتصلة بالارض ، حيث تضم بين جوانبها اكبر مصادر الدفء والتغذية ، وهو يمكن السكان في ذلك الجو العاتى من أن يذهبوا الى عملهم في الصباح دون مواجهة البرودة القاسية ، فان هذه الوصلة أكثر من الدار نفسها ، تبدو مركز المزرعة في نيوانجلند وحجرها الاساسى • ولعل هذه الفكرة ، التي كثيرا ما خاطرت لى في رحلاتى حول ستاركفيلد ، هي التي جعلتني اشعر بنغمة كئيبة في كلمات فروم ، وأرى في الدار المتداعية مثلا لجسمه المتقلص

وعاد فقال : « اننى الآن أكثر استخفاء ولكن المرور كان كثيرا قبل أن تصل السكك الحديدية الى المنبسطات » وايقظ الحصان الذى شرع يتوانى بهزة أخرى • وكان مجرد رؤيتى للدار قد أقام الثقة بينى وبينه حتى لم تعد هنالك حاجة للتحفظ • فاستمر يقول في هوادة « لقد كنت دائما أرى أن أسوأ المتاعب التي حلت بأمى هي نتيجة لذلك ، فحين اشتدت عليها علة النقرس حتى لم تعد تستطيع الحراك كانت تجلس هنالك وتظل ساعات ترقب الطريق • وفي احدى السنوات ظل العمال ستة أشهر يصلحون الطريق الى بتسبريدج بعد الفيضانات • واضطر هارمون جو الى أن يحول مركبته الى هذا الطريق ، فكانت تذهب في أكثر الايام الى مدخل البيت • ولكن بعد ان أخذت السكك الحديدية

تسير لم يعد أحد يمر بهذه الجهة . ولم تفهم أُمى ماحدث وظلت متأثرة بهذا الحادث الى مماتها ،

وحين انتقلنا الى طريق كوربري عاد الثلج الى السقوط فحجب آخر نظرة الى الدار . وعاد فروم الى الصمت ، وانسدل بيننا ستر التحفظ القديم . ولم تسكن الريح بعودة الثلج فى هذه المرة بل زادت حتى صارت عاصفة ثلجية ، تنفذ من خلال سحبها المهلهلة ، بين حين وآخر ، أشعة شمس ذابلة ، تضىء ذلك المنظر الذى تعبت به الرياح . ولكن الحصان كان عند حسن ظن فروم به ، فتقدمنا فى طريقنا الى الوصلة مخترقين المنظر الابيض الموحش

وفى المساء هدأت العاصفة وانحسرت السحب عن الجانب الغربى . فبدأ لعينى غير المجربتين ، أن هذا دليل على أن المساء سيكون صحوا . فأتممت عملى فى أسرع وقت ، وأخذنا الطريق الى ستاركفيلد ، متوقعا أن أبلغ تلك القرية فى العشاء ، وعند غروب الشمس تجمعت السحب مرة ثانية مما عجل بالليل قبل أوانه . وأخذ الثلج يتساقط مستقيما ومستمر من سماء لا رياح فيها ، وفى اصرار هادى عام ، فجعلنا ذلك أكثر ارتياكا منا حين كنا نواجه رياح الصباح وأمطاره . فكان هذا الثلج قطعة من الظلام الدامس ، وكأنه ليل الشتاء نفسه نزل علينا طبقة فطبقة

واختفى ضوء المصباح الصغير الذى يحمله فروم فى هذا الجو الطاغى الذى قضى على حاسة فروم فى تمييز الاتجاهات ، وأضل الحصان عن غريزته فى تعرف طريق البيت . . وقد حدث مرتين أو ثلاثا أن بدت علامة كالحيال ، دلتنا على اننا أخطأنا الاتجاه ، ثم عاد الضباب فابتلعنا . ولم نتمكن أخيرا من الاهتداء الى طريقنا حتى كانت قد بدت على الحصان علامات الاعياء . وشعرت انى أستحق اللوم لقبولى ما عرضه فروم . وبعد مناقشة قصيرة أقنعت به أن أنزل عن الزاحفة وأمشى على الثلج الى جانب الحصان . وهكذا قطعنا فى جهد ميلا أو ميلين ووصلنا أخيرا الى مكان بدا لى انه ظلام لا يخترق ، فأشار اليه وقال : « هذا هو مدخل دارى فى هذه الناحية »

كانت المرحلة الاخيرة أصعب مراحل الطريق فان السير فى

بطء مع البرد القارص لم يترك لى أية قوة • وكنت أشعر
بضلوع الحصان تنبض تحت يدي كالساعة •

وابتدأت أقول : « استمع الى يافروم ! لا أجد معنى لمسيرك
أكثر من ذلك » فقطع قولي قائلا : « ولا أنت ! لقد أخذنا كفايتنا
نحن الاثنين

وفهمت من هذا القول انه يدعوني لقضاء الليل فى مزرعته •
ولم أجبه • واجتزت المداخل الى جانبه ، وتبعته الى الحظيرة حيث
ساعدته فى خلع لجام الحصان المتعب واراحته ، ولما تم لنا ذلك
حمل المصباح الذى كان معلقا بالزاحفة ، وخطا وسط الظلام
ونادانى أن أتبعه

وكنا نرى فوقنا من بعيد ، نورا مربعا يرتعش من خلال
الثلج ، وسرت فى أثر فروم وأنا أتعثر فى اتجاه هذا الضوء ،
وكدت أسقط فوق أحد أكوام الثلج المتجمع أمام الدار • وأخذ
فروم يزيح الثلج عن درج الباب وهو يفتح طريقا وسط الثلج
بحذائه السميكة ثم رفع مصباحه واهتدى الى المزلج وسار امامى
داخل الدار وسرت خلفه فى مرضيق مظلم رأيت فى آخره درجا
كالسلم الخشبي المتحرك يبدو من خلال الظلام والى يميننا رأيت
خطا من النور يبدو منه مكان باب الغرفة التى كانت ترسل
ضوءها فى الليل البهيم ووراء الباب سمعت صوت امرأة تغمغم
مسح فروم قدميه على قطعة القماش الزيتية القديمة ووضع
مصباحه على كرسى مطبخ وهو قطعة الاثاث الوحيدة فى البهو
ثم فتح الباب وقال : « فلتدخل » ومانطق بهذه الكلمة حتى سكنت
الصوت المغمغم ••

فى تلك الليلة وجدت مفتاح لغز ايتان فروم وبدأت أجمع
شتات قصته ••



كانت القرية ترقد تحت قدمين من الثلج وكانت هناك اكوام متراكمة منه فى الاركان المعرضة الى الرياح . وفى سماء معتمة ، كنت ترى اطراف نجم « ديبير » كاقماع من الجليد . وكان النجم «أوريون» يخرج السنة نارية باردة . وبالرغم من غياب القمر كان الجو شفافا ، فبدت واجهات الدور البيضاء رمادية اللون من خلال اشجار البلوط فى بياض الثلوج ، وبدت اكوام الاعشاب فيها بقعا سوداء ، وكانت نوافذ الدور الارضى فى الكنيسة ترسل سهامها من الضوء الاصفر تذهب بعيدا عبر التموجات التى لانهاية لها .

اخذ اشباب ايتان فروم يمشى فى خطى سريعة يقطع شارع المهجور مارا بالمصرف ، ثم بحانوت ميكل ايدى الذى بنى حديثا بالطوب الاحمر ، ثم بمنزل المحامى فارنوم وقد اطلت امام مدخله شجرتان سوداوان من الاشجار النرويجية الباسقة ، وامام دار فارنوم حيث ينحنى الطريق الى وادى كوربرى كانت كنيسة تشمخ ببرجها النحيل الابيض وعمدها الضيقة ، وعندما قارب منها الشاب رآى النوافذ العليا ترسم اقواسا من الظل عند الحائط الجانبى للبناء ولكن من الفتحات الصفرى فى الجانب الذى ينزلق فيه الطريق عميقا الى طريق كوربرى كان النور ينبعث فى خيوط طويلة فتظهر حفر عميقة فى الطريق المؤدى الى باب الدور تحت الارض وهناك تحت حظيرة ملاصقة عدد كبير من الزاحفات شدت اليها خيول مكسوة بأغطية سميقة .

كان الليل هادئا كل الهدوء والهواء نقيا لا رطوبة فيه حتى لا يكاد يشعر المرء بالبرد فلم تبد من فروم أية مبالاة بالجو . وكان لا يفصل بين الارض البيضاء تحت اقدامه وتلك القبة المعدنية فوق راسه الا الاثير وقال لنفسه « لكأنى داخل أنبوبة كهربائية سالبة أفرغ منها الهواء » وكان قبل اربع أو خمس سنوات قد قضى سنة فى كلية الفنون العملية بمدينة ووتر وخبر المعامل مع أستاذ للطبيعة كان يميل اليه وكانت الصور التى توحىها تلك التجربة تثب الى ذهنه فى لحظات غير منتظرة فى ظروف حياته التى يعيش فيها منذ ذلك العهد والمختلفة كل الاختلاف عن تلك الدراسة وكانت وفاة ابيه

والظروف السيئة التي حلت به بعدها قد وضعت نهاية سابقة لاوانها لدراسات ايتان. وبالرغم من أنه لم يقطع في هذه الدراسة شوطا كبيرا تكون له نتيجة عملية فقد أشبعت الدراسة خياله وجعلته يشعر بوجود معان سامية مبهمة خلف الوجه العادي للأشياء .

وكان وهو يسير بين اثولوج تلمع في ذهنه معان لهذه الأشياء تمتزج مع النشاط الجسدي الناشئ عن سيره المجد ، وفي نهاية القرية وقف امام المدخل المظلم للكنيسة وهو يتنفس في سرعة ويتلفت الى الشارع في ارتفاعه وانحداره وهو خال من الناس وكان المنحنى الى طريق كوربرى تحت اشجار المحامى فارنوم هو المكان المفضل لى هواة الانزلاق في ستر كفيلد وفي الامسيات الرائعة كان الجانب الذى تقوم فيه الكنيسة يعج الى ساعة متأخرة بصيحات هؤلاء الهواة. ولكن لم تكن هناك زلافة واحدة في هذه الليلة تغطى بياض الثلج في ذلك الممر الطويل وكان سكون منتصف الليل ليخيم على القرية وكل حياتها اليقظة تتجمع وراء نوافذ الكنيسة التي تسمع منها انغام الموسيقى الراقصة مع خطوط النور الاصفر الذى يشع منها .

ودار الشاب حول جانب البناء وقطع المنحدر الى باب الدور الارضى ومشى في دائرة على الثلج الذى لم تطأه قدم كى يبتعد عن أشعة النور المنبعثة من الداخل ، والتي تنم عليه ، واقترب تدريجيا من الزاوية البعيدة لحائط الدور الارضى ثم تقدم في حذر ملتحفا بالظلام الى اقرب نافذة ورفع قامته المستقيمة انحيلة ومد عنقه واستطاع ان يلقي نظرة داخل الغرفة

وكان الغرفة وهى تبدو من الظلام البارد الخالص انذى يقف فيه قد غشيها ضباب من الحرارة وكانت الصفائح المعدنية التي تحيط بمصابيح الغاز تعكس ضوءا مبعثا على الحوائط البيضاء . وكانت الحواجز الحديدية للمدفأة الواقعة في نهاية الغرفة تبدو وكأنها ينبعث منها لهب بركان وكانت الغرفة غاصة بفتيات وشبان وقد صف الى الحائط المواجه للنافذة صف من كراسى المطبخ اخلاها في تلك اللحظة النساء اللاتي هن اكبر سنا وقد توقفت الموسيقى عن العزف واسرع الموسيقيان وهما عازف كمنجة وفتاة تعزف على الهارمونيوم في أيام الاحاد الى

مائدة عشاء أعدت فوق منصة في نهاية الغرفة صفت فوقها صفوف
فطائر اللحم وأطباق المثلجات التي تناولتها أيدي الحاضرين
من قبل ، فيتناولوا ما طاب لهما من الطعام . وكان الضيوف على
أهبة الانصراف وابتدا سيلهم يتدفق نحو الممر الذي علقت فيه
المعاطف والملافح حين تقدم الى وسط الغرفة فتى خفيف الحركة
ذو شعر اسود غزير وصفق يديه صفقة كان لها أثرها في
الحال فاسرع الموسيقيان الى آليتهما وانتظر الراقصون وقد
التحف بعضهم بغطائه استعدادا للانصراف في صفين على جانبي
الغرفة واخذ الشاب يبحث بين الجمهور هنا وهناك الى ان
جذب فتاة وضعت منديلا جذابا أحمر اللون حول رأسها وسار
بها الى نهاية الصف ثم شرع يدور بها دورانا سريعا على
نغمات رقصة فرجينية وثابة

كان قلب فروم يدق دقا متواصلا وهو يحاول ان يلقي نظرة
على الوجه المختفي وراء المنديل الشفاف وضائقه ان
عينا أخرى كانت أسرع من عينه . وكان زعيم هذه الرقصة
الذي يبدو كان في عروقه دم أرلندا يحسن الرقص . وقد
انتقلت حماسه الى زميلته في انتقالها في سرعة بين الصفيين ،
تديرها يد بعد يد في سرعة تتزايد ، وقد انحسر المنديل عن رأسها
ونزل الى كتفها وراى فروم في كل دورة شفيتها الضاحكتين
اللاهيتين وسحابة الشعر الاسود حول جبهتها ، كما رأى عينيها
السوداوين كأنهما نقطتان ثابتتان في خطوات متحركة

واخذ الراقصان يزيدان من سرعتهما والموسيقيان يجهدان
آليتهما لكي يتمكنوا من اللحاق بهما كأنهما راكبان في حلبة
السباق يلهبان جواديهما بالسوط ليبلغا نهايته . ومع ذلك
فقد بدا للشباب المتطلع من النافذة أن الرقصة لن تنتهي .
وكان بين حين وآخر يتنقل بنظرته من وجه الفتاة الى وجه
شريكةا الذي بدت في عينيه في حماسة الرقص نظرة الامتلاك الجريء .
وكان دنيس ايدى بن مايكل ايدى البقال الايرلندي الطموح
الذي كان بمرونته وجراته أول من عرف قرية ستاركفيلد الطرق
العملية « الماهرة » في أعماله واستطاع ان يبنى مخزنه
بالحجارة فبرهن على نجاح محاولته . وبدا من الراجح أن
ابنه سيقضى أثره وانه يستعمل تلك الوسائل عينها في التغلب على
فتيات ستاركفيلد . وكان ايتسام فروم يعتبره حتى

تلك اللحظة شابا حقير الشأن ولكنه بدا له الآن أنه جدير بأن يضرب بالسياط . ومن الغريب أن الفتاة لم تكن منتبهة الى نظراته الجريئة . وكانت تستطيع أن ترفع وجهها الداهل الى وجه الراقص وتضع يديها في يده دون أن يظهر عليها أنها تشعر بالاهانة لنظراته ولمسه

كان من عادة فروم أن يذهب سيرا على الاقدام الى قرية ستار كفيلد ليعود بماتى سيلفر ابنة عمته زوجته في الامسيات النادرة التي تتاح لها فيها فرصة للهو تجذبها الى القرية . وكانت الزوجة هي التي اشارت بأن يسمح لها بهذه الفرصة عندما جاءت لتعيش معهما . وكانت ماتى سيلفر من قرية ستامفورد وحين نزلت بدار فروم لتساعد ابنة خالها زينة رؤى من الخير الا تشعر بفرق كبير بين الحياة التي تركتها والوحدة في المزرعة بـستار كفيلد ، ولا سيما أنها لا تتناول اجرا ولولا هذا كما حدث فروم نفسه في سخرية لما اهتمت زينة بالتفكير في تسليّة الفتاة

وعندما اقترحت زوجته أن يتيحا لماتى تلك انزهة المسائية شعر في نفسه بضيق اذ يضطر لان يقطع ميلين الى القرية ذاهبا ثم عائدا بعد عمله اليومي أشاق في المزرعة . ولكن لم يمض عليه وقت طويل حتى بلغ الدرجة التي صار يتمنى فيها أن تكون كل ليالى ستار كفيلد ليالى لهو ومتعة .

لقد قضت ماتى سيلفر نحو السنة تحت سقف اياه وكان يراها في الصباح وفي المساء ولكن لم يكن في هذه اللحظات ما يعادل الاوقات التي يقضيها برفقتها حين تكون ذراعها ملتفة حول ذراعه وهي تسرع في خطواتها الخفيفة لتلحق بخطوته الطويلة في طريق عودتهما ليلا الى المزرعة . ولقد مال الى الفتاة منذ اليوم الاول الذي ذهب فيه بالازاحفة الى منبسطات الوادي ليقابلها وابتسمت عند رؤيته وحركت يدها له وهي في القطار ونادت « لابد انك ايتان » وهي تقفز من القطار بحقائبها وكان هو يفكر وهو ينظر الى جسمها الضئيل « انها لا تبدو كبيرة الصلاحية لعمل اندار ولكنها على كل حال ليست من النوع المتذمر » ولم يكن مجيئها الى الدار وهي قطعة من الحياة الفتية الاملة بمثابة نار اوقدت في موقد خبت تارة واكتنفه البرد ، بل ان الفتاة كانت اكثر من مجرد صبية براقية خدومة كما ظننها في بادىء الامر ، فقد كانت لها عين ترى

واذن تسمع . فيستطيع ان يريها اشياء ويخبرها بأشياء
ويتذوق السعادة التى تنشأ عن شعوره بأن لما يقوله هزات بعيدة
وأصداء يوقظها حين يريد

وكان يشعر بحلاوة هذا الاتصال على وجه خاص فى أثناء
سيرهما الطويل ليلا عائدين الى المزرعة ، وكان دائما أكثر تأثرا
من الذين حوله واستجابة للجمال الطبيعى . وقد تولد هذا الشعور
من دراساته التى لم يتمها ، وحتى فى أسوأ حالات تعاسته كانت
تحدثه الحقول والسماء فى اقناع عميق قوى . ويظل هذا الحديث
مكبوتا يثير فى نفسه لما خفيف يسدل على هذا الجمال ستارا
من الحزن . وكان لا يعرف هل فى العالم من يشعر مثل شعوره
أم انه الفريسة الوحيدة لهذه الميزة الحزينة . ثم علم ان نفسا
أخرى تهتز بمس من هذا الشعور العجيب نفسه تعيش
تحت سقف داره ، وتاكل من خبزه ، هى انسانية يستطيع ان
يقول لها: هذا هو الكوكب اوريون الظاهر الى اليمين من النجم
الدبران وهذه المجموعة من النجوم الصغيرة كجماعة من
النحل - هى « البلياد » . . . او يستطيع ان يقف بهامس حورة
أمام قطعة من صخر الجرانيت تطل من خلال الاعشاب بينما
يقص عليها قصة عصر الجليد وما يليه من عصور مترامية فى
أقدم . ولم يكن الاعجاب بمعلوماته ممزوجة بدهشة ماتى لما يقول
أقل دواعى سعادته ، فهناك مشاعر أخرى أقل وضوحا ولكنها
أكبر لذة تربطهم ما برباط من المتعة الصامتة : احمرار
الشمس عند غروبها وراء التلال فى الشتاء وجرى السحب على
سفوح التلال وهى مغطاة ببقايا أعواد الذرة الذهبية . او الزرقة
العميقة لظلال أشجار الهملوك على انثوج التى اضاءتها الشمس
وحين قالت له مرة « ان هذا المنظر يبدو كأنه من صنع مصور »
خيل الى ايتان أن فن التعريف بالمنظر لن يبلغ أكثر من هذا
وانه عثر أخيرا على الكلمات التى تعبر عما يجيش فى أعماق
نفسه

عادت الى مخيلته هذه الذكريات وهو واقف فى الظلام خارج
الكنيسة فوجد فيها لنفسه الماكانها أمور قد انتهت . وساءل
نفسه وهو يشاهد ماتى تندفع فى رقصها من يد الى يد كيف
تصور انها اهتمت لحديثه التافه فقد بدا له وهو الذى لا يشعر

بأنشراح الا فى حضورها ، ان هذا المرح ان هو الا دليل صريح على عدم اهتمامها به ، فان الوجه الذى رفعته للراقصين معها هو الوجه نفسه الذى تطالع به كأنه نافذة يدخل منها شعاع شمس الغروب بل لاحظ ايضا ايماءتين أو ثلاثا ظن فى غمرة زهوه أنها تختص بهما : من ذلك طريقة نفخ رأسها الى الخلف حين تعبر عن انشراحها كأنما تتذوق ضحكتها قبل ان ترسلها ، وعادتها فى اسدال اهدابها فى بطن حين تسحر بمنظر او تتأثر بأمر .

شعر بالتعاسة لما رآه وأيقظت التعاسة فى نفسه مخاوف نائمة . فان زوجته لم تظهر أية غيرة من ماتى ولكنها فى الايام الاخيرة أخذت تبدى تدمرا متزايدا من خدمتها للدار . واتخذت سبيلا معوجا لتوجيه نظره الى عدم كفايتها وكانت زينة دائما على ما يصفها أهل ستار كفيلد «متمرصة» واضطر فروم الى الاعتراف بأنها اذا كانت فى صحة سيئة الى الحد الذى تعتقده فى نفسها ، فلا بد ان تكون فى حاجة الى ساعد اقوى من ذلك الساعد الذى يستند اليه ليلا فى خفة ، وهما يسيران الى المزرعة . ولم تكن فى ماتى نزعة طبيعية الى تدبير شئون المنزل ، ولم يعالج هو هذا العيب فيها . فهى لا تأخذ هذا العمل مأخذ الجد . وكان من رأى ايتان أنها لو تزوجت من رجل تحبه فلا بد ان تستيقظ هذه الغريزة النائمة فيها ، فتصير فطائرهما وحلواهما موضوع فخر فى تلك الجهة ، ولكن الخدمة المنزلية ليست محببة الى نفسها . وكانت فى مبدأ الامر غير موفقة فى الاعمال المنزلية حتى انه لا يستطيع الا الضحك منها ، ولكنها كانت تشاركه فى الضحك وذلك مما زاد فى توثق صداقتهما فبذل ما يستطيع من مجهود لمساعدتها فى مجهوداتها الفاشلة .

كان يستيقظ فى الصباح مشلا ليوقد النار فى المطبخ ، ويحمل الخشب اليه منذ الليل . ويهمل الطاحونة فى سبيل العمل فى مزرعة الدار ليتمكن من مساعدتها فى البيت اثناء النهار بل كان يدلف فى ليالى السبت الى المطبخ ليغسل أرضه وينظفه بعد أن تاوى المراتان الى غرفتهما وقد فاجأته زينة ذات مرة وهو يخض اللبن ، وابتعدت عنه فى صمت عد أن اقتت عليه نظرة من نظراتها العجيبة

وفي الايام الاخيرة بدت عليها امارة اخرى من امارات الاستياء غير ملموسة ، ولكنها تبعث على القلق . . ففي صباح يوم بارد من ايام الشتاء كان يرتدى ملابسه في الظلام بينما كان ضوء الشمعة يتراقص في الهواء الداخل من خلال نافذة غير محكمة فسمعها تتكلم خلفه وهي في السرير وتردد شكواها الدائمة -

« ان الطبيب لا يرغب في ان ابقى من غير احد يقوم بخدمتي »
كان يظنها نائمة ففوجيء بصوتها ولو ان من عادتها ان تنطلق في الكلام بعد فترات طويلة من الصمت العميق فاستدار والتفت نحوها وهي لا تكاد تظهر تحت غطاءها وقد اتخذ وجهها لونا رماديا فوق غطاء المخدة الناصع البياض وكرر سائلا « لا احد يقوم بخدمتك ! »
قالت « اذا كنت تقول انك لا تستطيع ان تؤجر فتاة بعد ذهاب ماتي »

واستدار عنها فروم مرة ثانية وتناول الموسيقى وانحنى ليري صورة خده في المرأة المعتمدة امام حوض الغسيل وسمع صوت زوجته يقول في نعمة طويلة « اقصد عندما تزوج » فأجابها وهو يحلق ذقنه بالموسى « انها لن تتركنا مادمت في حاجة اليها »

فاجابت زينة في نعمة تدل على التواضع الاليم « لن اسمح بأن يقال انى وقفت في طريق فتاة مثل ماتي ، وحلت بينها وبين الزواج من فتى جميل مثل دنيس ايدى »

وحقق ايتان فروم في وجهه بالمرأة ورمى برأسه الى الخلف ليمر بالموسى من الاذن الى الرقبة . وكانت يده ثابتة ولكنه وجد في ذلك الاتجاه عذرا يخلصه من الاجابة في الحال

واستمرت زينة تقول « ولا يريد الطبيب ان ابقى وحيدة بغير احد وطلب منى ان اكلمك في شأن فتاة سمع بها ويمكن ان تأتى . . . »

ووضع ايتان الموسى ووقف معتدلا وقال في ضحك « دنيس ايدى ؟ اذا كان هذا كل ما يردنى خاطر فالامر لا يحتاج الى الاسراع في اختيار فتاة »

قالت زينة في عناد « ولكنى احب ان ابحاثك في هذا الامر » وكان يرتدى ثيابه في سرعة . فرد عليها قائلا وقد أمسك

بساعته القديمة مقتربا من الشمعة » حسنا ولكن ليس لدى
الآن فسحة من الوقت فقد تأخرت »

ويظهر ان زينة قبلت هذا القول على انه خاتمة الحديث
وظلت تراقبه في سكون وهو يضع حمالة السروال على كتفيه
ويدخل ذراعيه في السترة ولكنها حين راته يخطو نحو الباب قالت
فجأة في لهجة المتألمة » اظن انك تتأخر دائما لانك تحلق
ذقك الآن كل صباح ! »

واخافته تلك الغمزة اكثر من اية اشارات غامضة اشارت
فيها الى دنيس ايدي فالواقع انه مذ جاءت ماتي سيلفر صار
يحلق ذقنه كل يوم ولكنه كان يظن امرأته نائمة حين يترك
جانبا في ظلام ليل الشتاء ويظن في غباء انها لا تلاحظ في مظهره
تغيرا . وحدث مرة او مرتين ان اقلقتنه طريقته
زينوبيا في ترك الامور دون ان يبدو عليها انها تلاحظها . ثم
يتبين بعد اسابيع من جملة عابرة انها كانت تراقبه ، وانها
استنتجت ما تريد ، على انه في الايام الاخيرة لم يكن في ذهنه
مجال لهذه المخاوف الغامضة . وبعد ان كانت زينة لديه حقيقة
مائلة اصبحت مجرد خيال فهو يعيش كل حياته في مسمع ماتي
سيلفر وبصرها . ولم يكن يتصور ان الامر يكون على غير
ذلك ، ولكنه الآن وهو واقف خارج الكنيسة ينظر الى ماتي تراقص
دنيس ايدي ، هبت في ذهنه عاصفة من الاشارات والتهديدات
لم يحفل بها من قبل .



اختبأ فروم خلف الباب الخارجى الكبير حين رأى جموع الراقصين تتدفق من الغرفة الواسعة، وظل يراقب ماتى فى دئاراتها المتباينة بينما يلقي فانوس متحرك بين فترة وأخرى ضوءاً على وجوه احتقنت من تأثير الأكل والرقص . وكان أهل القرية الذين يسرون على الأقدام الأوائل فى تسلق المنحدر ليلبغوا الشارع الأكبر فيها . أما جيرانهم الذين تقع بيوتهم فى المزارع فكانوا أكثر تودة فى الجلوس داخل الزاحفات التى صفت فى الحظيرة

وسمع صوت امرأة من بين الجماعة الملتفين حول الحظيرة تقول « ألا تركبين يا ماتى ؟ » وخفق قلب أبتان خفقاناً قوياً وكان فى موقف لا يرى منه الخارجين من غرفة الرقص إلا بعد أن يتقدموا بضع خطوات من الجانب الخشبى للباب الخارجى ولكنه سمع من خلاله صوتاً صافياً يجيب « رياه ! هل أركب فى مثل هذا الليل ؟ »

أذن هى قريبة جداً منه لا يفصلهما إلا قطعة سميكة من الخشب وماهى إلا لحظة حتى تخرج إلى الليل . وتراها عيناه اللتان اعتادتتا الظلام كما لو كانت فى وضوح النهار . وطفعت عليه موجة من الخجل فارتد إلى زاوية الحائط المظلمة ، ووقف صامتاً بدلاً من أن يعلنها بوجوده وكان من عجيب علاقاتهما منذ مبدأ الأمر أنها وهى الأخف حركة والأرق والأقدر تعبيراً قد أمدته بشيء من سماحتها وبسماطتها بدلاً من أن تحطمه بالتباين بينهما . ولكنه الآن شعر بتهيب وحياء أشبه بما كان يشعر به أيام تلمذته حينما أراد مغازلة الفتيات فى وسستر فى إحدى الرحلات المدرسية

ظل مختفياً فخرجت وحدها وتوقفت على بعد ياردات قليلة منه . وكانت آخر من غادر البهو تقريباً . ووقفت تنظر حولها فى قلق كأنها تتعجب لأنه لم يظهر لها . ثم اقترب منها شبح رجل وكانا فى دئارهما يبدوان كأنهما فى إطار واحد

وقال الشبح فى نغمة مزاح أثارت كراهية فروم : « هل نسيت السيد صديقك هذه الليلة يا مات ! ما أشد هذا ! لن أخبر الفتيات الأخريات بذلك فلست وضيعاً إلى هذا الحد .

ولكن تأملى اليس من حسن الحظ انى اتيت بزاحفة الاب
معى ! »

وسمع فروم صوت الفتاة العذب وهى تقول : « ماذا تفعل
زاحفة أبيك هنالك ! »

قال ايدى وقد اراد أن يضع نغمة عاطفية فى صوته الجرى
« انها تنتظرنى لاركبها وقد جئت بمهره الصغير الارقش ،
اذ شعرت بانى سأرغب فى نزهة ليلية راكبة »

وكان الفتاة ترددت وراها فروم تشد طرف غطاء راسها
بين اصابعها فى حيرة . ولواعطى ملك الانديا لما ابدى لها
اشارة فى هذه اللحظة . وقد بدا له ان حياته كلها رهينة بما
يصدر عنها بعد ذلك

وصاح دنيس بها وهو يسرع نحو الحظيرة « انتظرى دقيقة
حتى اطلق المهر من قيده ! »

ووقفت جامدة تراقب الفتى فى انتظار هادىء كان عذابا
للمراقب المخفى . ولاحظ فروم انها لم تعد تدير راسها من
جانب الى جانب كأنها ترتقب شخصا آخر فى الميل بل سمحت
لدنيس ايدى بأن يقود المهر ثم يركب الزاحفة ويرفع جلد الدب
كى يخلى لها مكانا الى جانبه . ثم حدث ان استدارت منفلة
الى المنحدر الصاعد من امام باب الكنيسة

ثم التفتت وصاحت قائلة « سعدت مساء أرجو ان تكون
نزهتك جميلة »

وضحك دنيس واستحث المهر بسوطه حتى أصبح امام
شبحها المتحرك

وصاح وقد انحنى خارج الزاحفة ماذا يده اليها « هيا !
ادخلى سريعا ! ان هذا المنحدر صعب والانزلاق فيه خطير ! »

فاجابته ضاحكة « سعدت مساء ! سوف لا اركب ! »
وكانا فى تلك الاثناء قد ابتعدا عن مجال سمع فروم فهو لا يستطيع
الا ان يتبع شبحهما وهما يتحركان الى أعلى المنحدر وقد رأى
دنيس يقفز من الزاحفة بعد لحظة ويذهب نحو الفتاة ، وقد
لف اللجام حول ذراع وحاول أن يمسك ذراعها بذراعه الاخرى .
لكنها تخلصت منه فى خفة ، وعاد قلب فروم الى مكانه من
الاطمئنان بعد ان كان قد اشرف على حافة سوداء . وبعد لحظة

سمع فروم رنين اجراس الزاحفات السائرة . ورأى شبعا
يتقدم وحده سائرا في المتسع الملىء بالثلج امام الكنيسة .
وفي ظلال اشجار فارنوم تمكن من اللحاق بها فاستدارت اليه
ونظت بكلمة استغراب

فسألها في سرور على استحياء قائلا: « هل ظننت انى نسيتهك
يا مات ؟ »

فقالت في جد : « ظننت من الممكن انك لا تستطيع العودة
ن اجلى ! »

فقال : « لا أستطيع! اتظنين من الممكن أن يحول بينى وبين
ذلك حائل ؟ »

قالت « انى أعلم أن زينة كانت تشعر باشتداد المرض عليها! »
قال : « انها الآن فى فراشها لا اخاف »

وكان هنالك سؤال يدور فى من وقت طويل ! « ثم توقف فترة
على المشى وحدك حتى المنزل ؟ » خلده ولكنه قال: « هل كنت عازمة
فضحكك وأجابت قائلة : « انى لا اخاف »

وكانا واقفين معا فى ظلال الاشجار وامامهما فضاء واسع
الارضاء رمادى فى ضوء النجوم فسألها :

« اذا كنت ظننت انى لم احضر فلماذا لم تركبى فى العودة مع
دنيس ايدى ؟ »

فسألته هى : « اين كنت انت وكيف عرفت؟ انى لم ارك مطلقا ؟ »
وانطلقت دهشتها وضحكته معا كانطلاق نهير الماء من الثلج
تحت وطأة شمس الربيع ، وشعر ايتان بأنه اتى أمرا يدل على
حذق ومهارة ولكى يطيل من هذا التأثير ، ظل يبحث فى
ذهنه عن عبارة براقة مناسبة فلم يسعفه غير قوله « هيا بنا! »

وشبك ذراعها فى ذراعه كما فعل ايدى وخيل اليه انها ضمت
الذراع الى جانبها فى رفق ولكن لم يتحرك احدهما . وكان
الظلام مخيما بين الاشجار بحيث لا يكاد يتبين شكل رأسها الى
جانب كتفه فود لو أنه مس غطاء رأسها بخده ، وود لو أنه وقف
طول الليل معها فى هذا الظلام . . وتحركت خطوة او
خطوتين ثم وقفت قبل أن تخطر الى طريق كوربرى المنحدر
الذى غطته الثلوج وترك فيه عدد لا يحصى من الزاحفات آثاره
فصار كالمرأة التى شوها النازلون فى خان قديم

قالت : « لابد أن عددا كبيرا من الناس كان ينزلق قبل أن يغيب القمر »

فسألها : « هل تحبين أن تأتي للانزلاق معهم فى إحدى الليالى ؟ »

فصاحت : « هل نأتى معا ! اذن يكون ليلا ساحرا .. ! »
فقال : « سنأتى غدا اذا ظهر القمر .. »

وتلكأت وزادت التصاقا به . « لقد كاد ند هائل وروث فارنوم يصطدمان بشجرة البلوط الكبيرة فى أسفل المنحدر حتى ظننا جميعا انهما لا محالة مقتولان .. ! »
وارتعشت فسرت رعشتها الى ذراعه وتساءلت : « ألا يكون هذا الامر فظيلا اذا وقع وهما فى مثل هذه السعادة .. ؟ »
فقال بلهجة الازدراء : « ان ند ليس ماهرا فى توجيه الانزلاق .. ! فلتشقى بانى انزلوك فى امان .. ! »

وشعر بأنه يتباهى كما فعل دنيس ايدى غير أن شعوره بالسعادة اطاح برزائنه كما ان النغمة التى تكلمت بها عن الخطيبين حين قالت : « وهما فى مثل هذه السعادة » بدت له كأنها تفكر فى نفسها وفيه ..

وعادت الى الجهر بانقول : « ان هذه الشجرة خطيرة مع ذلك ويجب قطعها » .

فسألها : « هل تخشينها حين تكونين معى .. ؟ »
فردت عليه بما يكاد يكون نوعا من عدم الاهتمام : « لقد اخبرتك انى لست من النوع الذى يخاف من شيء » . واخذت تسير فجأة فى خطى سريعة ..

كانت هذه التغيرات فى احوالها موضع لذة عند ايان فروم وموضع يأس فليس من السهل التنبؤ بتنقلات عقلها ، فهى شبيهة بتنقل العصفور على الاغصان ولم يكن من حقها ان يظهر عواطفه سافرة نحوها مما يحملها على الاعراب عن عراطفها فكان ذلك داعيا لان يعلق هممة خيالية على كل تغيير فى نظرتها او فى نبرة صوتها . ففي لحظة يظن انها فهمته فيخشى ، وفى لحظة اخرى يعتقد انها لم تفهمه فييأس . وفى تلك الليلة تجمعت لديه الشكوك فكان الميزان يميل تحت ضغطها الى اليأس . وكان عدم اهتمامها اشد وقعا بعد موجة الفرح التى غمرته حين رفضت

اصطحاب دنيس ايدى . لذلك صعد تلك المرة الى جانبها فى صمت حتى وصلا الى الطريق المؤدى للطاحونة . وحينئذ ألحت عليه الرغبة فى أن يجد ما يطمئنه فلم يستطع مقاومة تلك الرغبة فتكلم فى تلثم قائلا : « لقد كنت تجدينى فى الوقت الملائم لو انك لم تعودى فترقصى رقصتك الاخيرة مع دنيس » . ولم يكن لينطق بهذا الاسم دون أن يشعر بانقباض فى أعصابه حلقه .

فتساءلت : « كيف تنتظر يا ايتان أن اعلم بوجودك . . ؟ » وبدلا من أن يجيبها على سؤالها قال فى صوت مرتعش : « اظن ما يقوله الناس حقا »

فوقفت فجأة وشعر فى الظلام ان وجهها ارتفع للنظر فى وجهه ، وسألت « وماذا يقول الناس » . .

فقال فى تردد وهو يتابع افكاره : « انه لمن الطبيعى ان تفكرى فى تركنا »

فردت عليه فى سخرية : « اهذا ما يقوله الناس . . ؟ » ثم انخفض صوتها العذب المرتفع وقالت فى تمتمة : « انك تقصد أن زينه لم تعد ترانى صالحة ! »

وكانت ذراعاها قد افترقتا ، فوقفا بلا حراك يحاول كل منهما أن يتبين وجه الآخر وتابعت حديثها بينما كان هو يحاو عبثا أن يجد ما يقوله : « انى اعلم انى لست على مهارة كافية وهناك اشياء كثيرة تقوم بها الخادمة ولا احسنها وذراعاى ضعيفتان . ولو انها اخبرتنى بما يجب أن افعل لحارلت . . ولكنك تعلم انها قلما تتكلم ، ويبدو لى احيانا انها غير راضية دون أن اتبين السبب » . . واستدارت نحوه وصاحت به فى لحظة فجائية من الغضب : « كان عليك أن تخبرنى الا اذا كنت أنت ايضا راغبا فى رحيلى ! »

راغب فى رحيلها . . ! كانت هذه الصراحة بلسما لجرحه الدامى فكان أبواب السماء فتحت وامطرته بالغبطة وحاول مرة اخرى ان يجد كلمة تعبر عن شعوره . . ولم يجد مرة اخرى الا أن يشبك ذراعاها فى ذراعه ويقول : « هيا بنا ! »

وسار فى صمت يقطع الطريق المظلل بأشجار الهملوك حيث كانت طاحونة قطع الأخشاب التى يملكها تبرز فى ظلمة الليل

ثم خرجا مرة أخرى الى ضوء نسبي بين المزارع وظهرت امامهما على الجانب الآخر مجموعة الاشجار التي تحف بالمزارع المنبسطة رمادية اللون في وحدتها وامتدادها تحت النجوم ، كان طريقهما يؤدي بهما احبانا الى ظل اشجار متكاثفة ، وحيانا تحت الظلال الخفيفة لمجموعة من الاشجار التي عريت عن اوراقها . ويبدو هنا وهناك بين الحقول منزل ريفي موحش وصامت كأنه مقبرة من المقابر . وكان سكون الليل شاملا حتى ليسمعان تكسر الثلوج تحت اقدامهما ، وكان لسقوط غصن ناء بحمولته من الثلج في الغاب صدى يشبه طلقات الغدازة . وذات مرة نبج ثعلب فذعرت ماتي واقتربت من ايتان وزادت سرعة خطواتها ..

وأخيرا شاهدا مجموعة الاشجار الباسقة النحيلة القريبه من مدخل دار ايتان فكان شعوره بقرب انتهاء السير مما أعاد اليه الالفاظ ..

فسألها : اذن لا تريدين فراقنا يا ماتي .. ؟ !
واضطر الى احناء رأسه ليستمع تمتتها الخافتة وهي تقول « وأين اذهب لو أردت ذلك ؟ »

وكان لهذا الجواب وخز في نفسه . ولكن النغمة التي قيل بها ملأت نفسه سرورا . فأنسى ما كان يريد ان يقول وضغط عليها ضغطا شديدا حتى احس بحرارة جسمها تسري الى عروقه وسألها : « هل تبكين يا ماتي .. ؟ »
فقلات في صوت مرتعش : « لا .. ! أوكد اني لا ابكي .. ! »

ولجا باب المزرعة ومرا بالسور القصير الذي كان يحيط بمقابر اسرة فروم وبدأ أحجارها معوجة ذات زوايا عجيبة بين الثلوج ، ونظر ايتان الى تلك القبور في تطلع اذ ظلت تلك الصخرة الهائلة منذ سنوات تسخر من اضطرابه وزغنه في التغير والحرية . وكأنه كتب على كل حجر من هذه الاحجار : « اننا لم نتمكن من الرحيل ، فكيف تريد أنت ذلك ؟ » وكان كلما دخل ار خرج من الباب الخارجى للدار يمر في ذهنه خاطر يرتعش له ، وهو « سأظل مقيما هنا الى ان اضم اليهم » . اما الآن فقد تلاشت كل رغبة لديه في التغير . وامده منظر هذه الارض المسورة باحساس عميق هو الرغبة في الاستمرار والثبات .

وهمس قائلاً لها : « اظن اننا لن ندعك تذهبين يا مات ! »
وكان الموتى الذين كان من بينهم عشاق سيّامرون معه
على بقائها ، وفكر وهو يمر الى جانب هذه القبور : « سنظل
في هذه الحياة هنا معا وسترقد يوما ما الى جانبي هناك »
وتملكته تلك الفكرة وهو يصعد التل المؤدى الى الدار . ولم
يشعر من قبل بمثل ما شعر به الآن من سعادة اذ اطلق لنفسه
العنان لكي تجرى في مثل هذه الاحلام . وفي منتصف الطريق
الصاعد الى البيت تعثرت ماتى في شيء لم تنتبه اليه فجذب
كمه كي تثبت من قدميها . وكانت موجة الحرارة التي سرت
منها اليه كأنها امتداد الاحلام ، ولاول مرة احاطها بذراعه فلم
تمانع وسارا وكأنهما يسيران على ضفة نهر في الصيف .

كان من عادة زينه ان تاوى الى فراشها بمجرد تناولها
طعام العشاء ، فتظلم نوافذ المنزل التي لا تغطيها الاخشاب
وكانت اغصان جافة من نبات الخيار تتدلى على باب الدار .
وكانها القماش الشفاف الاسود الذي يعلق على باب الدور حين
تحدث فيها وفاة . . ومر بذهن ايتان خاطر سريع . . ان هذه
كانتشارة الحداد على زينة ، وارتسمت امام عينيه صورة
زوجته مستغرقة في النوم بفراشها وقد فغرت فاعا قليلا ،
ووضعت اسنانها الصناعية في قدح الى جانب الفراش . .

ودارا حول الدار الى خلفها مخترقين أحراش الثوت المستقيمة
وكان من عادة زينه حين يعودان من القرية في وقت متأخر ان
تضع مفتاح المطبخ تحت المسحاة امام بابه . ووقف ايتان
امام الباب ورأسه لا يزال مليئاً بالاحلام وذراعه ملتفة حول
ماتى وابتدا يقول : « ماتى ! » وكان لا يعلم ماذا يريد ان يقول
وتخلصت ماتى من ذراعه في صمت فانحنى يبحث عن المفتاح
ولكنه عاد فانتصب قائما ، وقال في دهشة : « انه ليس في
مكانه » . .

واخذ كل منهما يحدق في صاحبه بقدر ما يسمح الظلام
الجاثم فان هذا الامر لم يحدث قط من قبل .

وقالت ماتى في همسة مرتعشة : « من المحتمل ان تكون
قد نسيت » . . ولكن كلا منهما كان يعلم ان ليس من شأن زينه
ان تنسى . . !

وعادت ماتى تقول بعد صمت اطلاق فيه السمع : « لربما انزلق الى الثلج » ..

فقال فى النعمة ذاتها : « اذن يكون احد الناس قد دفع به بعيدا » ، وخطر له خاطر عجيب آخر : « ماذا يكون لو ان جماعة من الاشرار انسلوا الى الدار ؟ وماذا يكون لو انهم .. »

وعاد يتصنت وقد خيل اليه انه يسمع صوتا بعيدا فى الدار ثم بحث عن عود من الثقاب فى جيبه واشعله .. ثم ركع وهو يبحث على ضئله يير الثلج المتجمع عند الباب ..

وكان لا يزال راكعا حين رأت عيناه وهو فى مستوى الحافة السفلى للباب بصيص نور خاف من اسفله ، فمندا الذى يحرك فى هذه الدار الساكنة .. ؟ لقد سمع خطوة على السلم وعادت اليه فكرة الاشرار .. ثم فتح الباب ورأى زوجته ..

ظهر شبحتها طويلا عريضا فى ظلام المطبخ وهى تمسك بمخدة من الريش تضعها على صدرها بيد ، وباليده الاخرى تمسك مصباحا ، وكان الضوء فى مستوى ذقنها فظهر نحرها المجمد وبرزت عظام اليد التى تقبض على المخدة وزاد ضوء المصباح فى بروز عظام وجهها تحس مشابك الشعر . وكان ايتان لا يزال تحت تأثير حلمه الجميز فى تلك الساعة التى أمضاها مع ماتى فكان لهذا المنظر امامه وقع ثابت كأنه نهاية الحلم قبل اليقظة ، وشعر كأنه لم يعرف من قبل منظر زوجته ابدا .. وتنحت لهما عن الطريق دون ان تتكلم فنفذت ماتى ونفذ ايتان الى المطبخ ، وكان فى برودة القبو الرطب بعد البرد الجاف فى الليل .

وقال ايتان محاولا المزاح وهو يزيل الثلج عن حدائه : « لقد نسيتنا يا زينه »

قالت : « لا .. ! لقد حرك على المرض ، فلم أستطع النوم » وتقدمت ماتى ورفعت عن نفسها دثارها وكانت شعثا وخداها بلون دثار الرأس القابى وقالت : « انى لأسفة على ذلك فهل أستطيع يا زينه أن أفعل شيئا يخفف آلامك .. ؟ »

وأشاحت زينة بوجهها عنها وهى تقول : « لا .. ! لا شيء » ثم قالت لزوجها : « كان يجب ان تنفض هذا الثلج فى الخارج »

وسارت أمامهما خارجة من المطبخ وتمهلت في البهو رافعة
المصباح بطول ذراعها كأنها تريد إضاءة السلم لهما ..

وتمهل ايتان فترة وقد زعم أنه يبحث عن المسمار الذي
يعلق عليه معطفه وقبعته . . وكان بابا غرفتى النوم متقابلين
في أعلى السلم ، وقد كره في هذه الليلة بنوع خاص ان تراه
ماتى وهو يتبع زينه الى غرفتهما ..

قال وهو يستدير ليعود الى المطبخ : « أظن انى لن اجد
الا بعد لحظة .. ! »

وتوقفت زينه فجأة ، ونظرت اليه قائلة : « لا ادرى ماذا
تريد أن تفعل في المطبخ .. ؟ »

وظلت تحقق فيه ركان ضوء المصباح السافر يظهر بوضوح
قاس تجاعيد وجهها في نهجته

وقالت : « في هذا الوقت من الليل ستموت بردا فقد انطفأت
النار من زمن بعيد » .

فلم يجبها وتحرك عائدا الى المطبخ . ووقع نظره على ماتى
فخيل اليه أنه يرى بين هداها نظرة تحذير عابرة ثم خفضت
نظرتها وبلغت الاهداب خديها المتوردين ، وأخذت تصعد السلم
قبل زينه .

وحينئذ ابدى ايتان رضوخه قائلا : « حقا ان الجو شديد
الرطوبة هنا » وعاد يصعد السلم خافض الرأس وراء زوجته
وتبعها الى غرفة النوم .



كان على ايتان أن يحتطب في الجهة السفلى لغابة الاخشاب،
فخرج مبكرا في الصباح .

وكان الصباح في ذلك الشتاء صاحبا كالبلور . وقد بدا وهج
الشمس في السماء الصافية بينما كانت الظلال في حدود الغابة
زرقاء مظلمة ، وترى فيما وراء الحقول البيضاء الالامعة بقعا من
الغابات البعيدة تبدو كالدخان .

ويكون ايتان اصفى ما يكون ذهنا وتفكيريا في هدوء الصباح
اباكر حين تهتز اعصابه في حركة عمله المألوف . . وتمتلئ رؤياه
بجرعات كبيرة من هواء الجبل وقد رأينا باب الغرفة يقفل في
الليلة السابقة عليه وزوجته . ولكنهما لم يتبادلا كلمة بعد ذلك
فقد صبت عدة نقط من زجاجة دواء كانت موضوعة فوق كرسي
الى جانب سريرها ، وابتلعت الدواء ولقت راسها قطعة من
الصوف الاصفر ، ورقدت ، وأشاحت بوجهها الى الجهة
الاخري ، وخلع ايتان ملابسه في سرعة واطفا النور كي
لا يراها حين يأخذ مكانه الى جانبها . وكان في مرقده يسمع
ماتى تتحرك في غرفتها وترسل شمعتها ضوءا خافتا يصل الى
السلم ويرسم خطا من النور لا يكاد يستبين تحت باب غرفه
وظل مثبتا عينيه في هذا النور الى ان اختفى وساد الظلام ،
ولم يعد يسمع صوتا غير تنفس زينه الثقيل بتأثير الربو . وشعر
ايتان في اضطراب أن هنالك أشياء كثيرة يجب أن يفكر فيها
ولكن عروقه النافرة لم تنبض بغير شعور واحد هو حرارة
كتف ماتى وهى ملتصقة بكتفه فلماذا لم يقبلها وهو ممسك بها
عندئذ . . ؟ لم يكن ليسأل هذا السؤال قبل ساعات قلائل ، بل
لم يكن يجرؤ على التفكير في تقبيلها قبل دقائق قليلة ، وهما راققان
في وحدتهما خارج الباب ، ولكنه منذ رأى شفيتها في ضوء صباح
زوجته شعر بأن هاتين الشفتين خلقتا له . .

والآن في جو الصباح الالامع لا يزال وجهها يلزمه . . وهو
جزء من حمرة الشمس وبريق الثلج الساطع . وما اكبر تغير
الفتاة منذ مجيئها الى ستار كفيلد : لقد تذكر كيف كانت

انسانا لا لون له حين رآها في اول يوم عندما قابلها في المحطة
وكيف ظلت ترتعش بردا في الشتاء الاول حين كانت عواصف
الشمال نهز ألواح السقف الخشبي .. وتدفق الثلوج دقا .. في
انصبابها على النوافذ غير المحكمة

كان يخشى ان تكبر هذه الحياة الصعبة بين الرد والوحدة
ولكن لم تصدر عنها علامة واحدة على عدم الرضا . وكان
من رأى زينه ان ماتى لابد ان تقبل قرية ستار كفيلد على
علاتها فليس لها مأوى آخر . ولكن ايتان لم يقر هذا اراى
على أنه حقيقة نهائية فان زينة لمى الاقل لم تطبق هذا المدافىما
يتعلق بنفسها ..

ولقد شعر بالشفقة على الفتاة لان المصائب ربطتها اليهما
نوعاما . فان ماتى سيلفر كانت ابنة لاحد ابناء عمه زنوبيا فروم
وكان قد اثار في اهله مزيجا من الحسد والاعجاب ، لانه نزل من
تلال كولكتيكوت وتزوج بفتاة من اهل بلدة ستامفورد ثم ورث
عمل ابيها ، وهو صاحب - انوت بقالة وادوية ملء ، على ان يسبق
أباها ، وقد كان رجلا بعيد المطامع ، توفي لسوء الحظ قبل
ان تتاح له الفرصة ليثبت عميدته في ان الغاية تبرر الوسيلة ،
وتبين من سجلات حسابه ما هي هذه الوسيلة . وكان من
حسن حظ امراته وابنته ان هذه السجلات لم تفحص الا بعد
جنازته الحافلة ، وماتت امراته وتركت ماتى وحيدة ، وهي في
العشرين من عمرها ، لتسوق طريقها في الحياة بخمسين دولارا
هي ثمن بيع آلة البيانو . وكانت تجاربها في الحياة متنوعة الا انها
كانت كافية ، فهي تستطيع تزيين قبة وعمل نوع من الحلوى
العسلية . وتستطيع ان تنشيد الانشودة القائلة « لن تفرح
أجراس الموتى في هذا الليل » كما تستطيع ان تغنى انشودة
« الوتر المفقود » وانشيد من « كارمن » ، ولكنها حين أرادت أن
تنتقل بميدان نشاطها الى سجان الكتابة على الآلة الكاتبة وامساك
الدفاتر لم تحتمل صحتها هذا العناء . ولم يكن عملها وهي
على قدميها مدة ستة أشهر مما يساعدها على استرداد صحتها
ركان اقرب اقربائها قد اقنعوا بان يضعوا ما جمعوه من مال
بين يدي أبيها .. واذا كانوا بعد موته قد قاموا بالتردد واجبههم
المسيحي ، وقابلوا الشر بالخير فقدموا للفتاة كل ما قدروا عليه

من نصائح ، الا انه لم يكن ينتظر منهم ، والحالة هذه ان
يقرنوا هذا النصح بالمساعدة المادية . فلما اشار الطبيب على
زنوبيا بأن تبحث عن مساعده في الاعمال المنزلية رأى القوم ان
الفرصة سانحة كي يحصلوا على شيء من التعويض من ماتى .
وكانت زينوبيا تشك في مقدرة الفتاة على العمل . ولكن غريها
الفكرة بأنها ستستطيع ان تكون حرة في تانيب الفتاة على أخطائها،
دون ان تكون معرضة لفقدانها وهكذا جاءت ماتى الى سنار
كفيلد .

وكان التانيب عند زينوبيا من النوع الصامت ولكنه يسر
لهذا السبب أقل ايلاما ، وكان ايتان في الاشهر الاولى مورما
بين الرغبة في ان يرى ماتى تتحدى زوجته وبين الخوف
النتيجة . ثم صار الموقف أقل توترا فان الهواء الطلق وساعات
الصيف الطويلة في الفضاء اعادت الى ماتى الحياة والمرونة وصارت
زينه أقل مراقبة لتقصير الفتاة اذ زادت امامها فسحة الوقت
الذى تقضيه في معالجة امراضها المعقدة ، فخيل الى ايتان ، وهو
يعمل جاهدا ، ويكاد ينوء بعبء مزرعته المجدية ، وطاحوة نشر
الاخشاب التى لا تريح ، ان السلام مخيم في الدار .

ولم يظهر في الواقع الى ذلك الوقت أى دليل ملموس يخلف
ظنه ، ولكن منذ الليلة السابقة خيم على الافق جو غامض من
الخوف نشأ عن اصرار زينه على الصمت . ونظرة التحذير
الفجائية من ماتى ، وعن ذكريات عابرة لا يكاد المرء يشعر بها ،
وكانها تلك النذر التى تنبئه في صباح بعض الايام الصافية ان
الليل لا يأتى حتى ينهمر المطر .

كان خوفه شديدا ، وأراد ان يرجى الوصول الى الحقيقة -
كشأن بنى الانسان - فظل منهمكا في قطع الاخشاب الى
الظهيرة . ولما كانت هذه الاخشاب قد أعدت للمقاول اندرو
هايل فقد كان من ابسط الامور أن يرسل يوتام باول الرجل
الاجير الى مزرعته ماشيا وينزل هو نفسه بالمركبة الى القرية
حاملًا الاخشاب معه ، وكان قد تسلق فوق كتل الاخشاب
واتخذ له مقعدا بالقرب من جواذيه الرماديين حين ارتسمت
امامه بين عنقيهما نظرة التحذير التى رمقته بها ماتى في الليلة
السابقة .

وجاءه خاطر غامض بأنه يفضل أن يكون بالدار لو حدثت
متاعب فأمر يوتام أمرا غير منتظر بأن يحل الجوادين من المركبة
ويسير بهما الى حظيرتهما ..

وعادا في بطن يسيران بالجوادين بين الحقول وحبس رحل
الرجلان الى المطهى كانت ماتى تحمل القهوة من الموقد وكانت
زينه جالسة الى المائدة ، وبوغت زوجها برؤيتها فقد كانت
مرتدية خير ثيابها ، وهو ثوب من صوف المارتىو الاسمر بدلا
من ثوب البيت المصنوع من الشيت ، وبدلا من الشال الذى
تضعه فوق كتفها . ووضعت فوق شعرها المتموج بفقر
الدبابيس الخاصة ، قبعة عالية جامدة يذكر ايتان انه انفق في
شراؤها من محل الازياء ببتسبريدج خمسة دولارات . وكان الى
جانبها على الارض حقيبته القديمة وصندوق يدوى صغير لف
في جرائد .

فصاح : « الى أين يازينه ؟ »

اجابت في نغمة واقعية وكأنها تعلن انها ذاهبة الى غرفة
خزن المأكولات ، او صاعدة الى سطح الدار للاشراف على
الاغذية المنشورة : « لقد اشتدت بى الآلام ، وسأذهب الى
بتسبريدج لامضى الليلة عند خالتي مارتا بيرز واستشير الطبيب
الجديد .. ! »

لم تكن تلك القرارات الفجائية بجديدة عليه في حياته مع
زينه بالرغم من طول ملازمتها للدار .. فقد حدث قبل ذلك
مرتين او ثلاثا ان حملت حبيبته فجأة وسافرت الى بتسبريدج
او سبرنجفيلد لاستشارة طبيب جديد ، وكان زوجها يخشى
مثل هذه الرحلات لما يتحمله في سبيلها من نفقات ، وكانت زينه
تعود منها وفي جعبتها دوية غالية الثمن ، وقد رسخت يارنها
الاخيرة لسبرنجفيلد في ذاكرته اذ انها عادت بعد ان دفعت عشرين
دولارا ثمنا لبطارية كهربائية لم تعرف مطلقا كيف تستعملها .
على ان شعور الارتياح في المرة الحاضرة كان طاغيا على المشاعر
الاخرى ولم تنتبه الشكوك في صدق قول زينه وانها في الليلة
السابقة لم تغض جفניה بسبب آلامها . وان قرارها
الفجائى بزيارة الطبيب امر طبعى لانها كعادتها لانهتم لغير صحتها .

وكانها كانت تنتظر مراجعتها في السفن فعادت الى القول
« اذا كنت لاتجد فراغا من قطيع الاخشاب ، فاظنك تستطيع ان
تسمح لبوتام بأن يسير في الزاحفة والجواد الاسمر كي
اركب القطار من المنبسطات » .

ولم يكن زوجها يستمع لم تقول وكانت المركبات السيارة
بين ستاركفيلد وبتسبريدج تنقطع عن السير في الشتاء ، وتقف
القطارات عند منبسطات كهربرى ، وهى قطارات بطيئة وقليلة .
وتبين لآيتان بتقدير سريع ارضينه لن تعود الى المزرعة ، قبل
مساء اليوم التالى ...

وعادت زينه تقول ، وكان صمته ينطوى على الرفض .
وكانت الكلمات تتدفق منها دائما عندما تكون على أهبة الرحيل :
« لم اكن اظن انك تعترض على أن يذهب بوتام بول في المركبة
ان كل ما اعرفه هو انى لا أستطيع الصبر على ما انا فيه
اكثر من ذلك فان الآلام قد وصلت الآن الى ركبتي ، ولولا
هذا لمشييت حتى ستاركفيلد على الاقدام بدلا من ارهاقك .
ثم اطلب من ميكائيل ابدى ارا ان ينقلنى في مركبته الى
المنبسطات حين يرسلها لتأتى له ببضاعته وحينئذ انتظر لقطار
ساعتين في المحطة . ولكنى افضل ذلك على ان تقول .. »

فتنبه آيتان لنفسه بحيث استطاع ان يجيب « ان وهام
سيذهب بك بلا ريب » وقد شعر فجأة انه ينعم النظر في مآتى
بينما زينه تحدّثه ، وبذل جهدا كي يوجه نظرتة الى زوجته ،
وقد جلست امام النافذة وراد النور الباهت المنبعث من جموع
الثلج ، في تقلص وجهها واصفراره ، واطهر بوضوح تلك التحايد
الثلاثة المتوازية بين الاذن والخذور رسم خطوطا أخرى من الانف
النحيل الى جوانب الفم . ولم تكن زينه تكبر زوجها باكثر من
سبع سنوات ، وكان آيتان في الثامنة والعشرين من عمره ومع
ذلك بدت عليها علائم الكهولة .

وحاول آيتان جاهدا ان يقو شينا مناسباً ، ولكن عقله أبى
ان يفكر الا في شيء واحد : هيا ان زينه ستغيب ليلة لاول مرة
مذ جاءت مآتى لتعيش بينهما . وقد ساءل نفسه هل يفكر الفناء
في هذا الامر ايضا ؟ ..

وكان يعلم أن زينه تسائل نفسها : لم لم يعرض اخذها
بالمركبة الى المنبسطات ، ويركـ يوهام باول ليقوم بنقل الاخشاب
الى ستاركفيلد ؟ ولم يهتد في بادىء الامر الى حجة يتعلل بها
للتخلص من هذا الواجب ثم قال : « كنت أود أن أذهب بك
بنفسى لو لم أكن مضطرا لجمع ثمن الاخشاب »

وما نطق بهذه الكلمات حتى ندم عليها - لا لمجرد أنه غير
صادق فيها إذ لم يكن من المنتظر أن يدفع هائل الثمن في الحال
- بل لأنه عرف بالتجربة أنه ليس من الحكمة أن تظن زينه
أن سيكون لديه أموال قبل سفرها في إحدى هذه الرحلات
العلاجية . على أنه في تلك اللحظة لم يك يرغب في شيء مثل
رغبته في تجنب الركوب معها مدة طويلة خلف الجواد الهرم
الذى لا يقوى على غير المشى

ولم تجب زنيه وكأنهـ لم تسمع ما قاله ، وكانت قد نحت
صفحة طعامها جانباً واخذت تقيس جرعة دواء من زجاجة
كبيرة على مقربة منها

ثم قالت : « انى لم استفد من هذا الدواء اية فائدة ومع
ذلك يجب أن اشرب بقية الزجاجة » ثم أزاحت الزجاجة الفارغة
ناحية ما تى وقالت « أن هذه الزجاجة تصلح للمخللات لذا
امكنك إزالة طعم الدواء منها »



ماسارت الزوجة في طريق رحلتها حتى تناول ايتان سترته وقبعته من الشماعة وكانت مائت تغسل الاطباق وهي تنرم بأحدى الالحن الراقصة التي سمعتها في الليلة السابقة . فقال لها : « هاتحن بعد وقت طويل ياماتى ! » فأجابت في سرور : « بعد وقت طويل يا ايتان ! » وكان هذا كل ما قاله

كان الجو دافئا براقا في المظهى . . وخيوط الشمس تخسرق النافذة الجنوبية الى الفتاة ، والى الهرة النائمة على الكرسي . . والى ازهار الجيرانبوم التي نقلت من مدخل الباب حيث زرعها ايتان في الصيف لينشئ حديقة لماتى . ولكنه كان اشد رغبة في تقطيع الاشجار والعودة الى المزرعة قبل الليل

وكان على طول الطريق في ذهابه يفكر في ماتى . وكان المظهى مكانا حقيرا غير منظم ولا لامع . لا كما عرفه في طفولته حين كانت ترعاه امه ، ولكن من المدعس انه صار مكانا ترتاح اليه النفس لمجرد غياب زينه عنه . ولاول مرة ينفرد الاثنان في داخل الدار ويجلس كل منهما على جانب من جانبي الموقد كأنهما زوجان . هو لا يغطي قدميه الا بالجوارب ويدخن غليونه ، وهي تضحك وتحدث في فكايتها المعهودة التي كانت لها عنده طلاوة وكأنه لم يسمعها من قبل

لقد طابت نفسه بحلاوة تلك الصورة واطمان اذ تبين ان مخاوفه مما قد تحدثه زينه من « متاعب » ليس لها اساس فأخذ ، وهو الذي يلزم الصمت عادة يصفر ويفنى بصوت عال وهو يسوق زاحفته قاطع الحقول المجللة بالثلج . ولقد بقيت فيه شرارة نائمة من الميل الى معايشرة الناس لم تقلها فصول الشتاء الطويلة في ستار كفيلد . وكان بطبيعته بميل الى الجد ولا يتكلم كثيرا لذلك مجب اعجابا كبيرا بالجرأة والمرح في الآخرين ويؤثر فيه الاتصال الودى تأثيرا شديدا . وقد اشتهر في وستر بأنه منطو على نفسه وانه لا يشارك كثيرا في اللهو ولكنه كان في الحقيقة فخورا اذ كان رفقاؤه يقرعون ظهره وينادونه قائلين « يا ابني الكهل » او « ايها الكهل الجامد ! » وكان وقف هذه العلامات الدالة على الزمالة في ستار كفيلد مما زاد شعوره بالوحدة

وزاد صمته سنة بعد سنة فقد ترك وحيدا يحمل عبء
 المزرعة وطاحونة الاخشاب بعد حادث والده فلم يعد لديه الوقت
 لاجتماعات اللهو في القرية . ثم مرضت والدته فصارت الرحلة
 في الدار اشد وحشة منها في الحقول . وكانت أمه تحب
 الحديث في أيامها ولكنها بعد « متاعبها » صار صوتها لا يسمع
 الا نادرا ، وأن لم تفقد القدرة على الكلام . وكانت أحيانا في
 ليالى الشتاء الطويلة حين سألها عنها في رأسه : لماذا لا تقول شيئا ؟
 ترفع أصبعها وتجيب : « لأنى أنصت ! » . وفي الليالى
 العاصفة حين يخترق جوانب الدار صفير الريح تشكو 'ليهذا
 تحدث قائلة : « انهم يجارون بالحديث هنالك فلا اسمعك ! »
 ولم يعد يسمع حديث انسان في تلك الدار الا في اواخر ايام
 مرض أمه : حين جاءت ابنة خالته زنوبيا سبيرز من الوادى
 الآخر لتساعده في تمريضها . . وكان حديث زينه ولغوها بعد
 السكوت المميت الذى أحاط به طويلا في سجنه ، كأنه الموسيقى
 في أذنيه . وقد شعر انه كان على وشك ان يصاب مثل أمه
 لو لم يأت صوت جديد ليعيد اليه عقله . ويظهر ان زينه فهمت
 حالته لأول وهلة ، فكانت تضحك منه لانه لا يعرف أبسط واجبات
 التمريض وتطلب منه ان يبارح الدار في الحال ، ويتركها لتنظيم
 الامور . وكان مجرد اطاعته لاوامرها وشعوره بالحيرة في
 العودة الى عمله ثانية والتحدث الى امثاله من الرجال مما أعاد
 اليه توازنه ، فبالغ في شعوره بفضلها عليه . وقد أخجلته
 مهارتها وأدهشته ، وبدا له كأنها حائزة بالفريزة لكل الفضائل
 المنزلية التى لم يستطع اكتسابها مع طول مرانه . وحين جاءت
 النهاية كانت هى التى طلبت منه ان يتشجع ويذهب لاحتضار
 اللحد . وأعربت عن دهشتها اذ لم يقرر من قبل لمن يعطى
 ثياب أمه وآلة الحياكة التى تمتلكها . ولما رآها بعد الجنازة
 تستعد للرحيل تملكه جزع لا يقاوم من أن يظل وحيدا في
 المزرعة ، فطلب منها أن تبقى الى جانبه دون أن يدرى ساهو
 فاعل . وكان كثيرا ما يفكر ان هذا لم يكن ليحدث لو ان والدته
 توفيت في الربيع بدلا من الشتاء

وقد اتفقا بعد زواجهما على انهما بمجرد ازالة الصعوبات التى

نشأت من طول مرض السيدة فروم ، يبيعان المزرعة وطاحونة
 الاخشاب ويذهبان ليجربا حظهما في مدينة كبيرة . وام
 يكن حب ايتان للطبيعة تتخذ شكل الميل للزراعة . فقد كان
 يرغب دائما في ان يكون مهندسا ويسكن المدن ، حيث المحاضرات
 والمكتبات الكبيرة ، وحيث يوجد اناس يغامرون ويعملون . وكان
 قد مارس عملا هندسيا صغيرا في فلوريدا وكل اليه اثناء دراسته
 في بوستر . فزاده العمل ايمانا في مقدرته واذكى عنده الرغبة في
 ان يرى بلاد العالم . وكان على ثقة من انه مع زوجة «نشيطة»
 تعاونه مثل زينه لا يمضي وقت طويل حتى يخلق لنفسه مركزا
 وكانت القرية التي نشأت فيها زينه اكبر قليلا من ستار
 كفيلد واقرب الى السكك الحديدية . وقد افهمت زوجها
 من البداية ان الحياة في مزرعة مفردة ليس ما تنتظره بعد
 زواجها . ولكن الشاردين لم يسرعوا للشراء ، وبينما ايتان
 ينتظرهم تبين له انه من المستحيل الانتقال بها الى جهة اخرى .
 فلقد اختارت ان تنظر بعين الاحتقار الى ستار كفيلد ولكنها
 لا تستطيع السكنى في مكان لا يحفل بها ، ولو انتقلت الى بلاد صغيرة
 كبسبريدج او منحدرات شار لما شعرت بها تلك البلاد . ولو انها
 ذهبت الى مدن اكبر من ذلك وهي انتي تجذب ايتان لفقدت
 شخصيتها تماما . ولم تضر سنة على زواجهما حتى بدت
 عليها اعراض هذا « المرض المستمر » الذي جعلها معرونة
 حتى بين جماعة القرية الفنية بالحالات المرضية . وكانت
 تمثل الصحة التامة لدى ايتان حين جاءت لتعنى بأمه ولكنه
 مالبث ان رأى ان مهارتها كممرضة اكتسبت من ملاحظة احوال
 مرضها نفسه

ثم اصببت هي ايضا بالصمت ولعله النتيجة المحتومة لتأثير
 الحياة في المزرعة ، او ربما كما تقول احيانا : لان ايتان لا يحسن
 الاستماع . ولم تكن هذه التهمة بغير اساس فهي لا تتكلم الا
 بالشكوى ، وتشكو من اشياء ليس في مقدوره علاجها . ولكي
 يوقف لديه الميل الى الاجابة التي تدل على الامتنعاض ، تكونف
 لديه عادة عدم الرد ، ثم عادة التفكير في غير ما تتكلم فيه ، وهي
 تتحدث اليه . ولكنه في الايام الاخيرة قامت لديه الاسباب

لمراقبتها عن كثب ، فقد اخذ صمتها يثير هواجسه . رتذئ ما اعترى أمه من صمت ، تزايد فسأل نفسه : هل اصببت زينه ايضا « بالخبل » . وهى حال تصيب النساء كثيرا . وقد ذكرت زينه التى تعرف المرضى فى تلك المنطقة حق المعرفة حالات كثيرة من هذا النوع وهى مرضى أمه . وهو نفسه يعرف بعض المزارع المنفردة فى الاراضى المحاور حيث يذوى مصابون بهذا المرض ، وحيث وقعت مأسى فجائية فى مزارع أخرى من اثر وجودهم . وفى بعض الاحيان كان يبدو له ان صمتها يخفى أغراضا بعيدة وله نتائج خفية . . وقد قام فى نفسها شك واستياء من أمور من المستحيل معرفتها . وقد قلق لهذا الفرض أكثر من قلقه للمرض . فكان هذا الاحتمال هو الذى تسلف عليه حين رآها واقفة عند باب المظهى

والآن وقد رحلت الى تبسبريدج هذا باله وتحولت افكاره الى فرصة المساء مع ماتى . ولم يعد يشغل فكره الا قوله لزينه انه سيتسلم ثمن الاخشاب . . ولقد وضحت نتائج هذا لتهور جليلة أمامه حتى انه قرر بعد تردد كثير ان يسأل اندرو هایل ان يقدم له جزءا من الثمن

دخل ايتان بزاحفته الى ساحة منزل هایل ، ركان هذا المقاول ينزل من زاحفته

فقال : « مرحى يا ايتى ! انك اتيت بالاخشاب فى وقتها » وكان اندرو هایل رجلا ممثلى ، الوجه أحمره ، له شاربان كبيران ، وخطهما الشيب ورقة قصيرة مترهلة لاتضايقها ياقة . وكن قميصه التنظيف نظافة تامة دائما يضم بمشبك ماسى صغير . على ان هذا المظهر من مظاهر الثراء لم يكن حقيقيا . فهو يقوم بأعمال كثيرة ولكنه مع ذلك سهل فى الانفاق ، ومطالب أسرته الكبيرة جعلته فى رأى اهل ستاركفيلد « متأخرا » . وكان صديقا قديما لأسرة ايتان وداره هى إحدى الدور التى تزورها زينه أحيانا ، لعلمها ان السيدة هایل كانت فى شبابه تعلم من امر الامراض أكثر من أية امرأة أخرى فى ستاركفيلد . ولا تزال مشهورة بمعرفة وصف الامراض ووسائل علاجها

وذهب هایل الى الجوادين انرماديين وربت على مؤخرتهما وقال انك ناسيدى تعنى بهم اعنيتك بحيوان اليف

واخذ ايتان ينزل الاخشاب فاذا اتم عمله فتح الباب الزحاجي
للحظيرة التى يستعملها المقاول مكتباً وكان هابل قد جلس ومده
قدميه نحو الموقد واسند ظهره الى منضدة قديمة ناثرت عليها
الاوراق وكان المكان كصاحبه دافئاً سمحاً وغير منتظم

ورحب بايتان قائلاً « اجلس ومده قامتك ! »

ولم يعرف الآخر كيف يمدى الحديث . ولكنه اخيراً اعرب عن
رغبته فى الحصول على خمسين دولاراً ورأى دهشة هابل لذلك
الطلب . فصعد الدم لجلده الرقيق تحت لدغة هذه الدهشة
وكان من عادة المقاول أن يدفع بعد ثلاثة أشهر ولم يحدث بينهما
من قبل أن دفع الرجل الثمن بمجرد تسلمه الاخشاب .

وشعر ايتان انه لو انح لحاجته العاجلة ، فان هابل قد
يضغط نفسه ليدفع له ماطلبه . ولكن كبريائه وغريزة
الحذر فيه حالاً دون استئمانه هذه الحجة . فلقد مضت فترة
من الوقت بعد وفاة ابيه قبل أن يستطيع رفع رأسه فوق الماء
ولم يكن يريد أن يظن اندرو هابل أو غيره من أهل سـ ستار
كفيلد ، انه ينحدر نحو الفرق مرة ثانية . ثم انه يكره الكذب
فاذا كانت به حاجة للمال فذلك لانه فى حاجة اليه وليس من شأن
أى انسان أن يسأله . لذلك نراه قد طلب هذا الطلب فى شىء من
عدم التوفيق للملازم للرجل المتكبر الذى لا يريد أن يعترف لنفسه
انه ينحنى أمام غيره . فلم يدهشه إذن ان قابل هابل طلبه
بالرفض

ورفض المقاول طلبه فى راحة صدر شأنه فى كل شىء . واعتبر
الطلب نوعاً من الفكاهة العممية فتساءل عما اذا كان يريد شراء
بيانو كبير أو يضيف قبة لداره وعرض عليه فى الحالة الأخيرة ان
يتبرع بخدماته

وكان ايتان قليل الحيلة . وبعد فترة خجل حيا هابل ،
وفتح باب المكتب ، وعند خروجه ناداه المقاول صائحاً : « قل لى
الست فى شدة الحاجة الى المال ؟ »

ونظمت كبرياؤه قبل أن يتدخل عقله « لاحاجة لى مطلقاً »

فقال : « هذا حسن لانى فى شىء من الازمة المالية والواقع انى
كدت أسألك ان تمهلنى على هذه الصفقة أكثر من الوقت العادى .
فالعمل غير ناشط . ثم انى ابنى منزلاً صغيراً لند وروث

عندما يتزوجان وانى لسعيد بهذا العمل ولكنه يكلف بعض المال » وكانت نظرته تنظر العطف من ايتان ثم اتم حديثه قائلا « ان الشباب يحب ان تكون الاشياء جميلة . وانك اتعلم ذلك اذ لم يمض وقت طويل مذاخذت تهىء دارك لزينه »

ترك ايتان جواده في سربط الخيل لدى هایل ، وذهب ليعمل آخر في القرية . وكانت العبارة الاخيرة التى قالها المقابل برن في اذنيه وهو يسير . وكان يفكر في ان السنوات السبع التى امضاها مع زينه لا تظهر للأسف عند الغير بأنها وقت طويل .

وكان الغروب يقترب . ونرى هنا وهناك النور من وراء الألواح الزجاجية يخترق النسيم الرمادى مما يزيد منظر الثلوج بياضا . وكان البرد القارس قد طرد الناس الى دورهم ، فساد الطريق الزراعى الطويل غالبا . على انه سمع فجأة رنين اجراس زاحفة واجتازته مركبة زاحفة يجرها جواد مرح عرف فيه ايتان مهر ميكائيل ايدى واصل عليه الشاب دنيس ايدى محميا من زاحفته وقد وضع على راسه طاقية جميلة من الفرو وصاح « مرحى يا ايتى » . ثم مرت الزاحفة .

وكانت الزاحفة فاصدة وجهة مزرعة فروم وانقبض قلب ايتان وهو يسمع رنين الاجراس المتباعد : اليس من الراجح ان ايدى سمع بسفر زينه الى بتسبريدج ، وانتهاز الفرصة لبمضى ساعة مع مائى ؟ لقد خجل ايتان من عاصفة الفسيرة التى هبت في صدره ، وبدا لديه انه لا يليق به ان تكون افكاره غنيمة الى هذا الحد

وسار الى ركن الكنيسة ودخل تحت ظلال اشجار فارنوم التى وقف عندها في اللسالة السابقة وراى امامه شبحا غير واضح فما اقترب منه حتى رآه يتحول الى شبحين يجتمعان لحظة ، وسمع قبلة وضحا مكتوما وصيحة اثارها اكتشافه ، اقتربا به . وانفصل الشبحان على عجل ، وسمع باب دار فارنوم يغلَق واسرع احد الشبحين في الطريق امامه . وابتسم ايتان لما سببه من ارتباك . فماذا يهم كلا من ند هایل وروث فارنوم اذا بوغتا في قبلة ؟ ان اهل ستاركفيلد جميعا يعلمون انهما خطيبان . ولقد سر ايتان اذ فاجأ عشيقين في البقعة التى وقف فيها هو ومائى ، وفي قلب كل منهما ظمأ نحو الآخر . واستشعر

وخز الالم حين فكر ان لاجابة بهذين الاثنين الى اخفاء سعادتتهما
وعاد ايتان فاخذ جواده من مربوط خيل هائل ، وابتدا
طريقه الصاعد قافلا نحو المزرعة وكان البرد اقل شدة منه في اثناء
النهار . وكانت السماء الملبدة بالسحب المتراكمة تنذر بسقوط
الثلج في الغد ، وهنا وهناك ، يطل نجم من بين السحب ويظهر
خلفه بئر عميق ازرق . ولا تمضي ساعة او ساعتان حتى
يبرز القمر من وراء التلال خلف المزرعة فيصبغ اطراف السحب
الممزقة بحلة ذهبية ، ثم لا يلبث ان تبتلع هذه السحب . وكان
سود الحقول هدوء حزين كأنها شعرت بان البرد خفف قبضته
فتمطت في نومها الشستوى الطويل

وكانت اذنا ايتان متقيظتين لسماع اجراس الزاحفات ، ولكن
مقطع سكون الطريق المنزلى صوت . ولما صار على مقربة
من المزرعة رأى من خضلة الاشجار القليلة نورا يضيء من
الدار فوقه ، فقال لنفسه : انها في غرفتها تعد نفسها للعشاء .
وتذكر نظرة السخرية التي بدت في عيني زينه حين جاءت ماتي في
ليلة وصولها الى العشاء بعد ان رتبت شعرها ووضعت شريطا
في رقبتها

ومر على القبور في فناء الاضحة وادار رأسه ناظرا الى
أحد الاضحة ، وكان يهتم له بصفة خاصة وهو صبي ، لانه
يحمل اسمه وقرا :

« انه مكان مقدس لذكرى ايتان فروم وزوجته انديورانس
.. اللذين عاشا معا في سلام مدة خمسين عاما .. »

كان يظن من قبل ان خمسين عاما زمن طويل للمعيشة معا
ولكن هذه الفترة تبدو له الآن وكأنها تمر مرور البرق . ثم
اصابه سهم من السخرية فاذا به يسائل نفسه هل تكتب هذه
الكتابة نفسها حين يسجى هو وزينه في قبرهما عند ما يحين
الاجل ؟ .

وفتح باب مخزن الفلال واطل في الظلام وهو يخشى ان مهر
دنيس ايدى في مربوط خيله الى جانب جواده الهرم . ولكنه
وجد الجواد يمضغ طعامه بفكين فقدا الاسنان فاخذ ايتان يصفر
في ارتياح وهو يزيل اربطة السرج من الجوادين الرماديين ويضع
كمية من القرطم حيث يأكلان ونم تكن حنجرته جميلة ، ولكنه مع

ذلك اخذ في الغناء بصوت قبيح، وهو يقفل الجرن ويصعد النزل الى الدار . ووصل الى باب المطهى وادار اكرة الباب ، ولكن الباب لم يفتح امامه

واخذته الدهشة حين رجا ايباب مغلقا وعالج اكرة الباب في عنف ولكنه تذكر ان ماتى وحدها ومن الطبيعى ان تقيم الحراجر دونها في المساء . ورقف في الظلام ينتظر ان يسمع خطوبها، ولكنه لم يسمع وعبثا انصبت بأذنيه . فنادى في صوت يرتعش سرورا « أين أنت يامات ؟ »

لم يجبه الا الصمت وتكسبه بعد دقيقة او دقيقتين سسمع صوتا على السلم ورأى نورا من تحت الباب ، كما رآه في الليلة السابقة . وكانت حوادث الليلة السابقة تتكرر في دقة غريبة ، حتى كاد يعتقد وهو يسمع صوت المفاح يدور في القفل ، انه سيشاهد امراته امامه . ولكن الباب فتح وواجهته ماتى بدلا منها .

وكانت واقفة كما وقفت زينه وفي يدها مصباح ، ومن رانها المطهى المظلم . وكان الضوء في مستوى الامس وقد رسم في وضوح الامس رقبتها الجسيمة الدقيقة ، وساعدها الاسمر الذى لا يزيد على ساعة الطفل . ثم ارتفع الضوء فرمى بريقه على شفتيها وغطى عينيها بظلم من القطيفة وظهر البياض الناصع فوق سواد قوس الحاجب

وكانت ترتدى ثوبها العادى القاتم ولم تغط رقبتها شئ ، ولكنها ربطت شعرها بشريط قرمزى اللون اسبغ عليها بهاء، وبدأت لانتان اطول قامة واملأ جسمها ، وعليها مظهر اكثر انوثة في شكلها وحركتها ووقفت الى جانب من الباب وهى تبتسم في سكون . ثم تحركت في كثير من الخفة والرشاقة ووضعت المصباح على المائدة . ورأى انها أعدت مائدة العشاء في عناية ، فعليها فطائر بالمربى صنعت منذ قريب، وفاكهة ناضجة ، والمخللات التى يحبها في طبق من الزجاج الجميل ، وكان الموقد يضيء بناره بينما تمددت هرة المنزل تراقب اللادة بعين ناعسة

وامتلأت نفس ايتان شعور بالخاء . فخرج الى الممر وعلق سترته على الشماعة وخلع نعليه المبللين فما عاد حتى كانت ماتى

قد وضعت أثناء الشاي على المائدة وأخذت الهرة تتمسح بقدميهاتى
أغراء .

وصاحت ماتى وعيناها تضحكان خلف أهدابهما : « ماذا
تربدين أيتها الهرة : لقد كدت أطاك بقدمى ! »

وشعر ايتان بوخزة فجائية من الغيرة . هل هو السبب في
اضاءة هذا الوجه ؟

فألقي سؤالاً وهو ينحنى في غير عناية ليفحص الموقد : « حسنا
يامات هل جاءك زائرون ؟ »

فهزت رأسها بعلامة الإيجاب وقالت : « نعم جاء واحد » وشعر
بظلمة يريد لها جبينه

وسأل وهو ينظر اليها نظرة جانبية في تقطبية : « من هو ؟ »
وكانت عيناها ترقصان حباً وهي تقول : « ومن يكون غير
يوتام باول الذى عاد وطلب جرعة من القهوة قبل أن يفصد
منزله ؟ »

وارتفعت الظلمة وعاد اليه الضوء وقال « هذا كل شيء ؟
أرجو أن تكونى قد أحببته الى رغبته » . ثم بعد فترة سكون رأى
من اللائق أن يسأل : « أظنه قد سار بزينة الى المنبسطات دون
حادث » ؟

قالت : « اى نعم لقد رجذفسحة من الوقت لذلك »

وانشأ هذا الاسم نوعاً من الحاجز بينهما . ووقف الاثنان
ينظر كل منهما نظرة جانبية الى الآخر قبل أن تقول ماتى في
وضحك وخجل « أظن الوقت حان للعشاء ! »

وجذبا مقعديهما الى المائدة . وقفزت الهرة دون أن تدعى الى
مقعد زينه الخالى بينهما . . فصاحت ماتى « أيتها الهرة ! »
وضحك الاثنان

كان ايتان قبل لحظة يشعر بأنه يريد أن يفيض بالحديث
ولكن ذكر زينه عقد لسانه . . ويظهر أن عدوى ارتباك سرت
الى ماتى فجلست وقد خفصت أهدابها تتجرع الشاي . بينما
أظهر هو شهية لا تشبع للفطائر والمخللات . وأخيراً بعد أن بحث
عن بداية مؤثرة للحديث تجرع جرعة طويلة من الشاي وجرع .

صوته وقال « يظهر ان الثلج سيتساقط »

فزعمت انها تهتم لذلك اهتماما كبيرا . وقالت : « هل هذا حق ؟ وهل تظن ذلك ؟ وهل يؤثر في موعد عودة زينه ؟ »
واحمر وجهه كثيرا بعد هذا السؤال ووضعت فنيخان الشاي بعد ان همت بأخذ جرعة منه

ومد ايتان يده ليتناول بعض المخللات مرة اخرى وقال « ليس من السهل معرفة ذلك في هذا الوقت من السنة فان الثلج يتراكم في المنبسطات » وقد شله الاسم مرة اخرى وشعر كأن زينه في الغرفة بينهما

وصاحت ماتى في مداعبة : « انك نهمة ايتها الهرة ! »

وكانت الهرة قد شبت بقدميها الاماميتين في غير ضجة من مقعد زينه الى المائدة ، دون ان يلاحظ ذلك أحد . ومدت حسدتها في اتجاه ابرق اللبن وهو بين ايتان وماتى وقد انحني الاثنان في الوقت ذاته واجتمعت يداهما على قاعدة الابريق وكانت يد ماتى هي الاسرع ونرثك يد تطبق عليها لحظة اكثر مما يجب وانتهزت الهرة هذه الظاهرة غير العادية فحاولت ان تعود الى وضعها السابق ، وفي عودتها جرت طبق المخللات فسطط الى الارض وتحطم في ضجة

وفي لحظة كانت ماتى قد قفزت من مقعدها وركعت الى جانب الشظايا .

وصاحت : « آواه يا ايتان انها شظايا كثيرة ماذا تقول زينه ؟ »

وفي هذه الفرصة وجد شجاعة فقال وهو يضحك : « لا بد ان تعرف بان الهرة هي السبب في كل حال » وركع الى جانب ماتى ليجمع بقايا المخللات العائمة

ورفعت اليه عينين متألتيين وهي تقول : « ولكنك ترى انها لم تكن تريد استعماله حتى ولو جاء ضيوف . ولقد ارتقيت سلما لاصل اليه في اعلى دولا ب الادوات الخزفية حيث يحتفظ بخير اشياءها ، ولا ريب في انها تريد ان تعرف لماذا فعلت »

وكان الامر جديا حتى ان ايتان جمع اطراف عزيمة وقال .
لا حاجة لان تعرف بالامر اذا كنت تسكتين وسأتى بأخر مثله تماما

في الغد من المكان الذي أتت به منه ! سأذهب الى شلالات شاو
لن لزم الامر »

قالت : « لن تجد آخر هناك ، فقد كان هدية عرس
الا تذكر ؟ لقد جاءها من فيلادلفيا حيث تقيم خالة زينة التي تزوجت
من قس ، وهذا هو السبب في أنها لا تستعمله ابدا . . ماذا فعل
الأتان ؟ ماذا ترى ؟ »

وبدأت تبكى وشعر بكل دمة من دموعها تتساقط عليه
كانها الرصاص المصهور وتوسل اليها قائلا : « لا تفعلنى يا مات !
لا تفعلنى ! »

وهبت على قدميها وتبعها وهو لا يعرف ماذا يفعل ثم اخذت
تضع الشظايا على المائدة كأنها بقايا ليلهما الذي تحطم
وقال لها فجأة في صوت الامر « اعطينى هذه الشظايا ! »
فأفسحت له المكان اطاعة لامره بالغريزة ، وهى تقول :
« ماذا تريد ان تفعل يا ايتان ! »

فلم يجبها بل جمع شظايا الطبق في كفه الكبيرة وسار بها
من المطبخ الى الممر الخارجى ثم أوقد طرف شمعة وفتح
دولاب الخزف ومد ذراعه الطويلة الى اعلى قسم فيه ووضع
الشظايا الى جانب بعضها في مهارة . ودقق النظر حتى ثبت
له ان من المستحيل ان يرى الطبق مكسورا من اسفل فاذا
الصقه بالغراء فى الصباح التالى فقد تمر أشهر قبل ان تلاحظ
زوجته ما حدث . وبعدئذ قد يستطيع شراء بديل له من
شلالات شاو او من بتسبريدج . فلما تبين له ان لا خوف من
اكتشاف ما حدث عاد الى المطبخ فى خطوة خفيفة . ووجد
ماتى تزيل بقايا الطعام المتساقطة على الارض وهى فى يأس

فأمرها قائلا : « ان الامر يمكن اصلاحه يا مات فعودى بنا الى
العشاء ! »

واطمأنت الى قوله ونظرت اليه بعينين براقتين من خلال
اهدابها المبللة بالدموع . وامتلات نفسه فخرا حين رأى أن نعمته
هدات من المها فلم تسأله حتى ماذا فعل ؟ وهو لم يتذوق هذا
انوع من السيطرة الا وهو يدحرج فى مهارة قطعة كبيرة من
الاخشاب من فوق الجبل الى طاحونته .

أثما العشاء وأخذت ماتى فى إزالة بقايا الطعام من المائدة .
وذهب ايتان فى هذه الاثناء ليلقى نظرة على أبقاره ثم يدور
فاحصا أرض المنزل . وكانت الأرض مظلمة تحت سماء ملبدة
وكان الهواء ساكنا حتى ليسمع سقوط قطعة من الجليد بين
حين وآخر من الأشجار البعيدة على حافة غابة الأخشاب

ولما عاد الى المطبخ كانت ماتى قد وضعت مقعده على مقربة من
الموقد وجلست بجانب المصباح وأخذت تحيك بعض الثياب وكان
المنظر مثل ما تصوره فى مخيلته أثناء الصباح . فجلس وأخرج
غليونه من جيبه ، ومد قدميه نحو وهج الموقد . وكان العمل
الشاق الذى قام به أثناء النهار فى الجو البارد قد جعله يشعر
بالكسل وبالنشاط فى الوقت ذاته وشعر كأنه انتقل الى عالم آخر
ملؤه الدفء والانسجام والاطمئنان الى أحداث الزمان . وكان
كل ما يضايقه فى جلسته أنه لا يرى ماتى من المكان الذى
يجلس فيه . ولكنه يشعر بالكسل بحيث لا يريد التحرك . فقال
لها بعد لحظة : « تعالى هنا واجلسى الى جانب الموقد »

وكان مقعد زينة المتحرك فى مواجهته وهو خال فقامت ماتى
اطاعة له ، وجلست فيه وأسندت رأسها الصغير الى المخدة المطرزة
التي كان يبرز من أطرافها عادة ذاك الوجه الضخم . فشعر
ايتان برجة وقتية ، اذ خيل اليه أن ذاك الوجه ، وجه المرأة
الاصيلة التي نحيب قد مسح معالم وجه المرأة الدخيلة .
ويظهر أن ماتى نفسها تأثرت بشيء من هذا الحرج . فعدلت
من جلستها وانحنت الى الامام لتتكب على عملها . فلم يعد
يرى غير طرف أنفها الدقيق واللون الاحمر فى تموجات شعرها
ثم هبت على قدميها وقالت « لا أجد من الضوء ما يكفى
لحياكة ! » وعادت الى مقعدها الاول بجانب المصباح

وزعم ايتان انه يريد أن يزيد جذوة النار اشتعالا فى الموقد
فلما عاد الى مقعده نحاها جانبا ، فصار يرى صفحة وجهها
وضوء المصباح يسقط على « بها » وكانت الهرة ترقب فى حيرة
هذه التنقلات التي لم تألفها فقفزت الى مقعد زينه وجمعت
أطراف جسدها حتى صارت كالكرة ، وجلست ترقبهما وقد
حسرت نظرتهما .

وساد السكون العميق ارجاء الغرفة وكانت الساعة الكبيرة تدق فى حركتها المنتظمة فوق المنضدة ، وتتطاير بين حين وآخر قطعة من الفحم المحترق الى جوانب الموقد ، بينما تمتزج رائحة ازهار الجيراليوم برائحة الدخان المتصاعد من قم ايتان . وأخذ هذا الدخان يعقد ضباباً أزرق حول المصباح ويملا أركان الغرفة بضباب رمادى يشبهه نسيج العنكبوت .

وارتفع كل حجاب بين الاثنين وأخذا يتحدثان فى طلاقة لسان . وتكلما عن أمور اليوم وما ينتظر من تساقط الثلج وعن الاجتماع القادم لاسر القرية فى الكنيسة ، وعن حوادث الحب والخصام فى ستار كفيلد وكانت بساطة الحديث وتناول الامور العادية ، قد أثر فى ايتان ، فتوهم ان بينهما صداقة بعيدة الامد ، لا يمكن ان ينشأ مثلها من العواطف الجياشة ، واستسلم للخيال وقام فى نفسه انها كانا ينفقان مساءهما كل ليلة هكذا ، وانهما سيظلان هكذا ...

وقال أخيراً : « هذه هى الليلة التى كنا نريد الذهاب فيها لممارسة الانزلاق يا مات ! » قالها فى شعور قوى كأنهما يستطيعان ذلك فى أى مساء يختارانه وأمامهما فسحة من الوقت .

فردت اليه ابتسامته بمثلها وقالت : « أظنك نسيت ! » فقال لها « لا لم انس ! ولكن الظلام عميق خارج الدار وقد نذهب غدا اذا ظهر القمر ! » فضحكت سرورا ورمت برأسها الى الخلف وكان ضوء المصباح يلعب على شفثيها واسنانها وقالت : « أظن اننا نمضى وقتنا جميلاً يا ايتان ! »

وظل مثبتاً عينيه فيها وهو فى دهشة من طريقة تغير وجهها مع كل تغير فى حديثها ، كما يتموج ويتغير حقل القمح مع هبوب نسيم الصيف . وقد ثمل بما بدا له من ان كل كلمة عادية ينطق بها تنقلب لديها سحراً دون أن يجرب طرقاً أخرى لاستعمال هذا السحر .

فسألها : « هل تخافين اذا انزلقنا فى طريق كوربرى فى مثل هذه الليلة ؟ »

فزادت وجنتها احمراراً وقالت : « لا أخاف اكثر منك ! » فقال « انى لا أخاف فعلاً . ولن أقدم على ذلك فهناك ركن

فطيع عند شجرة البلوط الكبيرة وإذا لم ينتبه المرء كل الانتباه فلا بد من أن يصطدم بالشجرة » وتمتع بشعور الحماية والسلطة التي تنقلها كلماته ولكي يطيل هذا الشعور ويزيد منه قال « اظننا في أمان هنا »

فأسبلت أهدابها في بطن بطء بالطريقة التي يحبها وتنهدت قائلة « نعم نحن في أمان ! »

وكانت نبرة صوتها حلوة بحيث أخرج غليونته من فمه واقترب من المائدة ، وانحنى الى الامام ولمس طرف القماش الاسمر الذي تحيكه وابتدأ يقول في ابتسامة : « قولى لى يا مات ! ماذا تظنين انى رأيت تحت ظلال اشجار فارنوم وأنا عائدا الى المنزل الآن ؟ لقد رأيت احدى صديقاتك يقبلها احد الناس ! »

وكان يريد ان يطلق هذه الكلمات طول المساء ولكنه بعد أن نطق بها تبين له انها الفاظ غير لائقة مطلقا ولا مناسبة لها . أحمر وجه ماتى احمرارا شديدا واسرعت مرتين أو ثلاثا بابرتها بحيث جذبت طرف القماش منه دون أن تشعر وقالت فى صوت منخفض كأنه خاض موضوعا جديدا : « اظنك تعنى روث وند ؟ »

خيل الى ايتام ان اشارته قد تفتح الطريق امام بعض النكات المألوفة . وهذه تمهد لقبله لا ضرر منها او لمجرد ضغط بيديها ولكنه شعر الآن ان ذلك الاحمرار قد قام حراسة ملتزمة حولها ، وان ظن ان تحفظه الطبيعى هو الذى يجعله يشعر بمثل هذا الشعور . فهو يعلم ان اكثر الشبان لا يبالغون فى معنى تقبيل فتاة جميلة . وتذكر ان ماتى لم تمنع فى الليلة السابقة حين أحاطها بذراعه . ولكن هذا كان خارج الدار وتحت جناح الليل المنبسط ولكنه الآن فى الغرفة المضاء بالمصباح وما تنطوى عليه من معنى النظام والخضوع للقواعد المتعارفة ، وهى أكثر بعدا منه بما لا يقاس حتى كأن لا تقارب بينهما .

ولكى يخفف ما أصابه من تحفظ قال : « أظنهما سيحددان يوما للزواج فى وقت قريب »

فأجابت : « نعم ! لن أدهش اذا تم زواجهما فى الصيف القادم ! » ونطقت بكلمة الزواج وكان صوتها يتغنى بهذه الكلمة وكأنه ممر مجلل بالاشجار يؤدى الى وديان ساحرة . وشعر

ايتان بوخز في جسده وقال وهو يتململ في مقعده : « لن أدهش اذا كان دورك يجي بعدها مباشرة » .

فضحكت ضحكا ينم على شيء من الشك وقالت : « لماذا تظل تردد هذا المعنى ؟ »

فضحك ضحكا هو صدى لضحكها : « اظنني اردد هذه الفكرة كي ألفها ! »

وعاد فاقترب من المائدة ، وظلت في حياكتها وهي صامتة ، وقد أسبلت أهدابها على عينيها . وجلس ايتان وهو مأخوذ بمراقبة الطريقة التي بها ترتفع يداها فوق قطعة القماش وتنزلان وكأنهما عصفوران في طيران متواز بينيان عشا . وأخيرا قالت في صوت منخفض من غير أن تدير رأسها أو ترفع نظرتها : « ألا يكون سبب ذررك هذا ان زينه مستاءة مني ؟ »

وعاد اليه خوفه السابق كاملا ، وقال متلعثما : « ماذا تعنين ؟ »

فرفعت اليه عينيها مضطربتين ، وتركت القماش يسقط على المائدة بينهما ، وقالت : « لا أعلم ولكن دار في خلدي في الليلة الماضية انها غاضبة ! »

فزار قائلا : « أحب أن أعرف لماذا ؟ »

فأجابت : « لا يعرف أحد من أمر زينة شيئا » وكانت هي المرة الاولى التي تكلم فيها صراحة في موقفها نحو ماتي . وكان ذكر اسمها قد وصل الى أقصى أركان الغرفة ثم عاد اليهما ثانية وقد تردد مرارا في اصدااء كثيرة . وانتظرت ماتي كأنها تترك لهذا الصدى فرصه كي يزول واستمرت تقول : « ألم تقل لك شيئا ؟ »

فهز رأسه قائلا : « لم تفه بكلمة » .

ومالت برأسها الى الخلف كي ترد شعرها الذي تدلى فوق جبينها وضحكت قائلة : « لقد تخيلت ذلك لضعف اعصابي اذن ولن أفكر في هذا من بعد ! »

فقال لها : « لا تفكرى في هذا الامر يا مات ! »

وبعثت الحرارة الفجائية في لهجته الدم الى وجهها مرة ثانية ولكنه لم يصبغ الوجه مرة واحدة بل تدريجيا وفي رقة كأنه انعكاس فكرة تستولى في بطاء على قلبها وجلست صامتة وقد

شبكت يديها على عملها وخيل اليه ان تيارا دافئا تدفق نحوه عن طريق قطعة القماش التي لا تزال مطوية بينهما فمد يده ، فى حذر وراحة الكف الى اسفل ومست أصابعه طرف القماش واهتزت أهدابها هزة خفيفة دلت على ما يبدو ، انها شعرت بحركته وان هذه الحركة أرسلت تيارا معارضا اليها فتركت يديها بلا حراك على الجانب الآخر من القماش .

وبينما كانا جالسين سمعا حركة خلفهما فأدارا رأسيهما فكانت الهرة وقد قفزت من مقعدزينة المتحرك لتدرك فأرا فى الدائر الخشبي حول الحائط . وكان من نتيجة الحركة الفجائية ان ظل المقعد يتأرجح كأن شبحا يجلس عليه .

وفكر ايتان « فى مثل هذا الوقت من الغد سيتأرجح هذا المقعد وهى جالسة فيه ، لقد كنت فى حلم وهذا هو المساء الوحيد الذى نخلو فيه معا » وكانت عودته الى الحقيقة المؤلمة كالعودة الى اليقظة بعد تناول المخدر . فصار جسده وعقله نهبا لآلم ناشئ عن تعب لا يمكن وصفه . ولم يجد سبيلا الى ما يقوله أو يعمل له لوقف تلك الاويقات فى مرورها الجنونى السريع .

ويظهر ان التغير فى حالته اثقلت عدواه الى ماتى . فنظرت اليه فى حنان وكان عينيها مقفلتان بالنوم حتى لتجد صعوبة فى فتحهما . وانتقلت نظرتها الى يده التى كانت تغطى طرف قماشها وتقبض عليه كأنه جزء منها . فرأى رعشة لا تكاد ترى تمر على وجهها فانحنى على طرف القماش دون أن يعرف ما يفعله وقبله . وبينما كانت شفتاه فوق القماش شعربان القماش ينساب من تحتها فى بطاء . فاذا ماتى قد نهضت من مكانها وطوت قماشها فى سكون ، ثم شبكته بمشبك ، وتناولت المقص وملبس الاصابع ووضعتهما مع القماش ، فى صندوق مغطى بورق مزخرف كان قد اشتراه من بتسبريدج .

فنهض ايضا ووقف ينتقل بنظره فى الغرفة من غير غرض ودقت الساعة احدى عشرة دقة . .

فسألت فى صوت منخفض : « هل النار كافية ؟ » فانحنى وفتح باب الموقد وقلب النار ، ولما نهض رآها تجسر الى جانب الموقد ، صندوق الصابون الذى وضعت فيه قطعة من السجاد ليكون للهرة فراشا . ثم قطعت أرض

الفرفة ورفعت آيتين بهما ازهار الجرانيوم لتبعدهما عن
النافذة وبردها . فتبعها ونقل اوانى الجرانيوم الاخرى ونبات
الهاكنت الذى غرس فى اناء من الصفيح ، والنبات
الامانى المتعلق الذى امتد فعلق الى مسمار قديم .

فلما تمت تلك الواجبات الليلية ، لم يبق امامه ما يعمل
الا حمل الشمعدان من الصفيح من الممر واشعاله . . واطفا
ايتان المصباح ووضع الشمعدان فى يدها وسارت به من المطهى
امامه . وكان منظر شعرها الاسود وهى تحمل الضوء امامها
كغمامة تمر على القمر .

وقال لها حين وطأت بقدمها درجة السلم الاولى « سعدت
مساء يا مات ! »

فاستدارت ونظرت اليه لحظة واجابت « سعدت مساء يا ايتان »
وصعدت السلم .

فلما ان أقفلت باب غرفتها تذكر انه لم يمسه حتى
يدها . . .



كان يوتام باول بينهما عند الفطور في صباح اليوم التالي . وحاول ايتان أن يخفى سروره العظيم بأن بالغ في مظهر عدم المبالاة . فكان يستند بظهره على المقعد ليلقى بشيء من الطعام للهرة أو يبسدي استياء من الجو ولم يتعرض لمساعدة ماتى حين نهضت لتحمل الاطباق .

لم يعرف السبب في سعادته الى هذا الحد اذ لم يتغير شيء في حياته أو في حياتها . فانه لم يمس أطراف أصابعها ، ولم تواجه عيناه عينها ، ولكن المساء الذى قضياه معا صور له ما قد تكون عليه الحياة الى جانبها . وكان سعيدا الآن لأنه لم يأت شيئا يعكر من صفو السهرة ، وقد خيل اليه أنها عالة بما رده عن ذلك . .

كان هنالك حمل من الاحشاب ينقل الى القرية ، وكان يوتام باول الذى لا يعمل بانتظام لدى ايتان فى الشتاء قد جاء لمساعدة فى نقله . ولكن ثلجا مبلا ذاب وتحول الى مطر مثلج قد سقط فى أثناء الليل فصارت الطرق كالزجاج ، وكان الجو مشبعا بالرطوبة وقد رجع الرجلان أن تهدأ الحالة بعد الظهر فيكون الذهاب الى القرية أسلم منه فى الصباح ولذلك اقترح ايتان على مساعدته أن يضعوا الاخشاب على الزاحفة كما فعلا فى الصباح السابق ، ولا تنقل الاخشاب الى ستار كفيلد الا بعد انتصاف اليوم . وبذلك يتمكن من ارسال يوتام الى المنبسطات ليقابل زنوبيا ويذهب هو بالاخشاب الى القرية وقد طلب من يوتام أن يذهب ليعنى بالجوادين الرماديين ، وعلى ذلك ظل لحظة على انفراد مع ماتى فى المطبخ . وقد وضعت الاطباق التى استعملت فى طعام الفطور فى جردل من الصفيح وانحنت عليها بذراعين نحيلتين عريتا الى الكوع . وكان البخار المتصاعد من الماء الساخن قد تجمع قطرات على جبينها وعقد شعرها فى حلقات صغيرة .

وظل ايتان ينظر اليها وقلبه فى حلقه وكان يود لو يقول «اننا لن نكون على انفراد مرة ثانية كما نحن الآن » ولكن بدلا من ذلك امتدت يده الى حافظة الاطباق الموضوعة على رف الدولاب ووضعها فى جيبه وقال « أظن انى أستطيع العودة للغداء » . فأجابته « فليكن يا ايتان » . وسمعها فى خروجه تغنى وهى تعنى بالاطباق .

وقد عزم على أنه بمجرد وضع الأخشاب في الزاحفة يرسل يوتام الى المزرعة ويسير مسرعا على قدميه ليشتري غراء للطبق الذي كسر ، ولو سارت الامور سيرا عاديا لتمكن من تنفيذ فكرته ولكنها سارت على غير هواه من البداية . ففى طريقه الى غابة الأخشاب انزلق أحد الجوادين على الثلج البراق وأصيب بجرح في ركبتيه ، وبعد أن رفعاه عاد يوتام الى الحظيرة ليأتى بقطعة من القماش يربط بها الجرح ، ثم عندما ابتدأ أخيرا تحميل الزاحفة بالأخشاب ، نزل المطر المثلج مرة أخرى ، وصارت جذوع الاشجار لزجة ، فاستغرق من الزمن مرتين أكثر من العادة . . . وقد أحسن يوتام حين وصف اليوم بأنه صباح غاضب . ويظهر ان الجوادين كانا غير راضيين أيضا وهما يرتعدان ويضربان الارض بحوافرهما تحت أغطيتيهما المبللة ، وعلى ذلك لم ينته من العمل الا بعد ساعة الغداء بوقت طويل ، وعدل ايتان عن الذهاب لأنه كان يريد أن يسير بالجواد الى حظيرته ويغسل الجرح بنفسه . وظن أنه لو قام بالحشب بعد الغداء مباشرة فقد يعود الى المزرعة بالغراء قبل أن يعود يوتام بالجواد الاسمر الهرم من المنبسطات . ولكنه كان يعلم أن الفرصة ضئيلة جدا فهي تتوقف على حالة الطرق ، وعلى تأخر قطار بتسبريدج عن مواعده . وقد صار يفكر فيما بعد بنوع من الاحتقار لنفسه أية أهمية علقها على هذه الاحتمالات . وما انتهى من الغداء حتى قصد غابة الأخشاب ولم يجرؤ على الانتظار الى أن يرحل يوتام بأول . وكان الرجل الاجير لا يزال يجفف قدميه المبللتين على نار الموقد . ولم يستطع ايتان الا أن يلقي نظرة سريعة على ماتى وهو يهمس : « ساعدو مبكرا » . وخيل إليه أنها أحنّت رأسها دلالة على الفهم ، وبهذه الترضية البسيطة خرج الى الامطار .

ولم يبلغ منتصف الطريق حتى ادركه يوتام بأول وهو يحث الجواد الاسمر على السير الى جهة المنبسطات . وفكر ايتان في أنه يجب أن يسرع في القيام بهذا العمل . وانحدر بالزاحفة في منحدر بناء المدرسة ، وعمل في سبيل انزال الأخشاب بسرعة ما يعمله عشرة من الرجال ، ولما انتهى من عمله أسرع الى حانوت ميكائيل ايدى ليشتري الغراء ، فعلم ان ايدى ومساعدته يـمـرـان « بالسوق » وان دنيس الشاب الذى قلما يتنازل ليجل محلهما ، قد جلس امام الموقد مع عصبة من خلاصة شباب ستار كفيلد . وقابلوا ايتان بترحاب لا يخلو من السخرية ،

ودعوه الى مشاركتهم في مجلسهم ولكن احدا منهم لم يكن يعرف مكان الغراء . وكان ايتان في تلهفه على لحظة انفراد أخيرة بما تى واقفا ينتظر بفارغ صبر ، بينما دنيس يبحث بحثا لاجدوى منه في جوانب المخزن غير المعروفة لديه

وقال « يظهر ان كل الغراء قد بيع ولكنك اذا انتظرت حتى يعود الكهل فقد يجد شيئا منه . »

فاجاب ايتان وهو يتأهب للذهاب « أشكرك ولكنى سأحاول أن أجد بعض الغراء في حانوت السيدة هومان . »

فأقسم دنيس بغريزته التجارية على أن ما لا يوجد في حانوت ايدى لا يمكن أن يوجد لدى الارملة هومان ، ولكن ايتان لم يهتم بهذا القول وصعد الى الزاحفة وسار بها الى الحانوت المنافس وهناك بعد بحث طويل وأسئلة تدل على العطف ، عن سبب حاجته الى الغراء ، وهلا يصلح عجبن الدقيق العادى بدلا منه ، عثرت الارملة هومان أخيرا على زجاجة الغراء الوحيدة وسط كمية غير متجانسة من أقراص السعال وأربطة لشد خصور السيدات .

نادته صاحبة الحانوت وقدبوى عنان جواديه الى طريق منزله لعل زينه لم تكسر شيئا تعتزبه . »

تحول المطر الثلج غير المنتظم الى مطر منتظم . وكانت مهمة الجوادين شاقة بالرغم من عدم وجود الأحمال ، وسمع ايتان مرة أو مرتين رنين أجراس زاحفة فكان يتلفت الى الورا وهو يتخيل ان زينة ويوتام قد أدركاه ، ولكنه لم ير الجواد الاسمر الهرم فكان يعود بنظره مواجهها المطر ليستحث الجوادين المضخمين . وكانت الحظيرة خالية عندما وضع فيها الجوادين وبعد ان عنى بهما اقل عناية سار الى الدار وفتح باب المطهى ، وكانت ماتى منفردة كما تصورها ، منحنية على اناء المطهى فوق الموقد ، وعندما سمعت خطواته بوغئت وقفزت اليه . فصاح بها وهو يريها الزجاجة فى يده ، بينما كان ينحيها فى خفة جانبيا : « انظرى يامات . . لقد جئت بشئ يصلح الطبق : فلنهتم بهذا العمل سريعا » ولكن يظهر انها لم تسمع لهذا القول ، فقد همست وهى تمسك بكمه : « لقد عادت زينة يا ايتان »

فوقفا وكل منهما يحملق فى وجه الاخر وقد امتقع وجهاهما كشريكين فى جرم .

وغمغم ايتان قائلا « ولكن الجواد الاسمر ليس فى الحظيرة . »

فقال: له مفسرة «لقد اشترى يوتام باول أشياء لزوجته من المنبسطات» وذهب بالزاحفة الى دارها ونظر في ذهول حول المظهى الذى بدا باردا حقيرا فى غروب الشمس وفى ذاك اليوم المطير من أيام الشتاء .
وسأل ماتى وقد خفض صوته الى همس : كيف حالها :
فحولت نظرها وقالت وهى فى شك : « لا أعلم فقد قصدت غرفتها مباشرة » .

فسأل « ألم تقل شيئا ؟ »

فأجابت « لا : »

وأبدى ايتان حيرته فى صفيح منخفض وأعاد الزجاجة الى جيبه وقال : « لاتخافى ! سأنزل وأصلحه أثناء الليل » ثم ارتدى ثانية سترته المبللة وذهب الى الحظيرة لاطعام الجوادين .
وبينما كان هنالك عاد يوتام باول بالزاحفة فلما انتهى ايتان من عنايته بالحياد قال له « تعال لنأكل شيئا هنا » وكان يحب أن يتأكد من وجود محايد على مائدة العشاء لان زينة تكون دائما « عصبية » بعد عودتها من رحلاتها ولكن الرجل الاجير الذى قلما يرفض طعاما لا يحتجز ثمنه من أجره ، فتح فكيه القويين ليحبيب فى بطنه « انى شاكر لك ولكنى أفضل أن أعود لمنزلى »
ونظر اليه ايتان فى دهشة وقال « خير لك أن تأتى ليحفف ماء المطر من ثيابك ويظهر أن لدينا عشاء ساخنا » .
ولم يتأثر وجه يوتام بهذا النداء ولما كانت عباراته محدودة فقد كرر القول « انى أفضل أن أعود لمنزلى »

رأى ايتان فى هذا الاصرار على رفض الطعام والدفء دون مقابل ما ينذر بشر ، وأخذ يتساءل : ماذا حدث فى أثناء عودة زوجته مما جعل يوتام قنوعا الى هذا الحد . ربما أن زينة لم تتمكن من استشارة الطبيب الجديد أو لعلها لم ترتج الى نصائحه . فقد كان ايتان يعرف أنه فى مثل هذه الاحوال تعتبر زينة أول شخص تقابله مسئولاً عن سبب مضايقتها .

ولما عاد الى المظهى وجد أن المصباح يرسل ضوءه على نفس المنظر الذى يبعث على الارتياح كشأنه فى المساء السابق . وقد أعدت المائدة بمثل العناية السابقة وكانت نار قوية تلمع على الموقد والسهرة تنعس من الدفء وجاءت ماتى تحمل طبقا من الفطائر ونظرت الى ايتان ونظر اليها فى صمت ثم قالت كما قالت فى الليلة السابقة « أظن الوقت قد حان للعشاء »

خرج ايتان الى الممر حيث علق ثيابه المبللة وأخذ ينصت لخطوات زينة . فلما لم يسمع شيئا نادى اسمها فلم تجبه . ولقد تردد لحظة ثم صعد الى غرفتها وفتح الباب . وكانت الغرفة تكاد تكون مظلمة ولكنه رآها في الظلام جالسة الى النافذة منتصبه القامة . وعرف من جمود ظلها على زجاج النافذة أنها لم تخلع الثوب الذي كانت ترتديه في سفرها .

واجترأ على أن يقول وهو على عتبة الباب « مرحى يا زينة ! » ولم تتحرك من مكانها فاستمر يقول « لقد أعد العشاء فهلا تنزلين ؟ »

فأجابت : « لا أظن انى أستطيع أن أذوق لقمة ! » وكانت هذه العبارة مألوقة لديه . وكان ينتظر بعد ذلك أن تقوم كالعادة وتتبعه للعشاء ، ولكنها ظلت جالسة ولم يوفق لشيء أكثر من قوله « أظنك متعبة بعد ركوبك طويلا » فالتفتت اليه عندئذ وأجابه في جد « ان مرضى أشد مما تظن » فسقطت هذه العبارة على أذنيه ذات وقع عجيب ، فكثرا ما سمعها تفوه بهذه الالفاظ من قبل ، وماذا يكون لو انها كانت صادقة .

وتقدم خطوة أو خطوتين في الغرفة المظلمة وقال : « أرجو الا لا يكون الامر كذلك يا زينة ! » ظلت تطيل النظر اليه في ظلام الغرفة بسمة صاحب السلطة الذي يعلم أنه اختير لأمر خطير ثم قالت : « لقد حدثت لدى مضاعفات ! »

وعرف ايتان أن لهذه الكلمة معنى استثنائيا فكل فرد بين جريتهم كان يشعر بشيء من متاعب الامراض أما المضاعفات فانها للخاصة المختارة وهذه المضاعفات اذن ميزة ولو انها في كثير من الاحوال تكون ايضا وثيقة الموت . فالناس تمر بهم سنوات ومعهم متاعب أمراضهم ولكنهم يسقطون صرعى بسبب « المضاعفات » . وكان قلب ايتان يتأرجح ذهابا ورجوعا بين شعورين ولكن الشفقة في هذه اللحظة هي الغالبة . فما أشد صلابة امراته وما أشد وحدتها وهي جالسة في الظلام مع مثل هذه الافكار سألها وقد خفض صوته بالغريزة « أهذا ما قاله لك الطبيب ؟ » فأجابت : « نعم انه يقول ان الطبيب العادى كان يجب عليه أن يشير بأجراء جراحة »

وكان ايتان على علم برأى نساء الجيرة فيما يختص بتدخل الجراحة ففريق يفخر بالمكانة التي تسبغها الجراحة ، وفريق يبتعد عنها ويراهما غير لائقة وكان ايتان مغتبطا دائما لاسباب اقتصادية بأن زينة من أنصار الرأي الاخير .

وحاول أن يهدى من روعها بأيسر سبيل على أثر القلق الذي سببه خطورة اعلانها فقال « وماذا تعرفين عن هذا الطبيب ؟ على كل حال لم يقل أحد من الاطباء بمثل ما قاله من قبل ! »

وتبين له في الحال الخطأ الذي وقع فيه فقد كانت تريد العطف لا التيسير فقالت : « لم أكن بحاجة لان يخبرني أحد بما بي في كل يوم من تقهقر فكل الناس يرون ذلك ماعداك ، وكل الناس يعرفون من هو الدكتور بك في بيتسبريدج وهو يأتي مرة كل أسبوعين الى شلالات شادوبيتسبريدج للاستشارات ولقد كادت اليزاسبيرز تفقد حياتها بمرض الكلية قبل أن تذهب اليه ولكنها الان غادرت فراشها وهي تخرج وتشارك في جوقة الغناء بالكنيسة ! »

فأجاب ايتان في عطف : « انى سعيد لذلك ، ويجب أن تفعل ما يخبرك به هذا الطبيب » .

فقالت وكانت لاتزال تنظر اليه « انى عازمة على ذلك ! » وقد استرعى انتباهه نغمة جديدة في صوتها ليس فيها تألم ولا تائب وانما تدل على العزيمة الثابتة .

فسألها وقد بدأ يتوقع نفقات جديدة « وماذا يريد منك أن تفعل ؟ »

فقالت « انه يريد أن تكون معي فتاة أجيعة ويقول انه لا ينبغي لى أن أقوم بأي عمل في خدمة الدار »

فصاح ايتان في دهشة « فتاة أجيعة ؟ »

فأجابت « نعم وقد دبرت لى خالتي مارتا فتاة في الحال ويقول الجميع انى حسنة الحظ اذ وجدت فتاة ترضى بالإقامة هنا واتفقت على أن أمنحها دولارا زيادة في أجرها لكى أتأكد من قدومها وستأتى غدا بعد الظهر » .

وتراوح بين الغضب واليأس فقد كان يتوقع طلبا عاجلا للنقود،

ولكنه لم يكن يتوقع عبثاً استمراراً على موارده الضئيلة ، ولم يعد يعتقد فيما قائلته زينة عن تفاقم حالتها ، ولم ير فى رحلتها الى بيتسبريدج الا مؤامرات دبرت بينها وبين أقاربها من آل بيرنس كى يحملوه أجر خادم • وتغلب الغضب فى تلك اللحظة وقال « اذا كنت تريدان الاتفاق مع خادمه فقد كان من الواجب أن تخبرينى قبل رحيلك »

فأجابته : « وكيف أعلم بذلك قبل رحيلى ؟ وكيف كنت أعرف ما قاله الدكتور بك ؟ »

فضحك ايتان ضحكة قصيرة تدل على عدم التصديق • وقال « آه ! الدكتور بك ! وهل أخبرك الدكتور بك كيف أدفع لها أجرها ؟ »

وارتفع صونها فى غضب بارترفاع صوته وقالت « لا لم يخبرنى ! لأننى كنت أخجل من أن أخبره بأنك تبخل على بالمال الذى يرد على الصحة التى خسرتها فى تريض أمك ! »

فسألها « هل حسرت صحتك فى تريض أمى ! »

فأجابت « نعم وقد قال لى جميع أقربائى عندئذ انه لم يكن فى وسعك الا أن تتزوجنى بعد ! »

فقاطعها صائحا « زينة »

وكانت أفكارهما فى الظلام الذى يخفى وجهيهما أشبه بشعبانين يتقاتلان وينفث كل منهما السم نحو منافسه وقد استولى على ايتان شعور بفضاعة هذا المنظر ، اذ كانت المعركة وحشية لا معنى لها كأنها صراع جسدى بين خصمين فى الظلام .

واستدار الى الرف فوق الموقد وبحث فى الظلام عن الكبريت وأضاء الشمعة الوحيدة فى الغرفة ولم يستطع نورها الضعيف فى مبدأ الامر أن يبدد شيئاً من الظلام ثم ظهر وجه زينه عابسا فى زجاج النافذة العارى عن الستائر ، وقد تحول من أسود الى رمادى •

كان ذلك أول غضب سافر بينهما فى السنوات السبع الحزينة التى قضياها معا • وشعر ايتان انه خسر مزية لا تعوض بنزوله

الى مستوى الجدل معها ولكن المشكلة العملية كانت قائمة ولا بد من معالجتها .

فقال لها « انك تعلمين يا زينة انى لا أمتلك نقودا لأجر الفتاة فلتعيديها من حيث أتت ! فلن أستطيع دفع أجرها . »

فقالت « قال الطبيب اننى أسير الى الموت اذا ظللت أعمل كالعبيد على الصورة الحالية وهو لا يفهم كيف قويت على ذلك الى الآن ! »

فاندفع يقول « تعملين كالعبيد ! » ثم راجع نفسه وقال « لن تضعى يدك فى شىء اذا كان هذا غرضه . سأقوم أنا بكل شىء فى الدار . . . »

فقاطعته قائلة « لقد كفاك انك تهمل أمور المزرعة الآن ! » وكانت صادقة فى قولها ولم يجد ما يرد به عليها وأتاح لها الفرصة لتقول ساخرة : « خير لك أن ترسلنى الى الملجأ وتستريح . . . اظن ان بعض أعضاء أسرة فروم كن لهم مثل هذا المصير ! »

وآلمته الامانة كالنار ولكنه تركها تمر وقال « انى لا أملك مالا . وهذا ينهى كل شىء »

ومرت فترة هيدوء فى نضالهما وكان المتبارزين يجربان مضاء أسلحتهما ثم قالت زينة فى صوت متزن : « ظنك تسلمت خمسين دولارا من أندرو هايل ثمنا للاخشاب » - فقال نـ

« ان أندرو هايل لا يدفع قبل ثلاثة أشهر ! »

ولم ينطق بهذه العبارة حتى تذكر العذر الذى اعتار به كى لا يرافق زوجته الى المحطة فى اليوم السابق فصعد الدم الى حاجبيه المقطبين . فقالت : « قد قلت لى بالأمس انك اتفقت معه على أن يدفع الثمن فوراً ، وقلت أن ذلك هو السبب فى أنك لا تستطيع أن ترافقنى الى المسطحات »

لم يكن لدى ايتان مرونة فى الخداع ، ولم يسبق له أن عرف الاكذوبة ولم يوفق الى وسائل التهرب فتمتم قائلاً : « اظن ذلك كان خطأ فى الفهم »

فقالت « اذن انت لا تمتلك المال »

قال « لا ! »

فقالت « لا ! وهل كنت اعرف ذلك عندما اتفقت مع الخادمة؟ »
قال « لا » ثم سكت فترة ليسيطر على صوته وأتم
الكلام « ولكنك تعرفين ذلك الآن ! وانى لأسف ، ولكنى لا أستطيع
أن افعل شيئاً . انك زوجة رجل فقير يا زينة وسأبذل ما
أستطيع فى خدمتك ! »

وظلت لحظة جالسة بلا حراك وكأنها تفكر وقد مدت ذراعيها
فوق ذراعى المقعد وعيناها مثبتتان فى الفضاء ثم قالت فى
هدوء « أظن من الممكن تدبير هذا الامر »

فطمأنه تغير لهجتها وقال « لاشك ان ذلك من الممكن وانى
لاقدر على عمل الكثير فى سبيلك وماتى ... »

ويظهر أن زينة كانت تقوم فى ذهنها بحساب معقد بينما هو
يتكلم ، وخرجت من التفكير الى القول « على كل حال سوف
نوفر طعام ماتى »

وكان ايتان قد ظن ان المناقشة انتهت واستدار ليذهب للعشاء
فوقف فجأة وهو لا يفهم ماسمعه وسأل : « نوفر طعام ماتى »
وضحكت زينة وكانت فى صوتها رنة غير مألوفة لم يذكر انه
سمعها من قبل وقالت « هل تظن انى كنت أريد الاحتفاظ
بفتاتين ؟ لعل ذلك ما اخافك من النفقات »

وكان لا يزال غير مدرك تماما لما تقوله ، فقد تجنب بالفريزة
منذ بداية المناقشة ان يذكر اسم ماتى وهو يخشى أمرا لا يكاد
يعرفه ! اهو النقد لها أو الشكوى منها أو الاشارات الغامضة
لاحتمال زواجها قريبا ، ولكن فكرة التخلص النهائى لم ترد
على خاطره ولم تدخل حتى الآن فى حيز ادراكه .

فقال لها « انى لا أفهم ماذا تقصدين فان ماتى سيلفر ليست
فتاة اجيرة وهى من اقربائك »

فصاحت « انها فتاة معدمة رمى عبؤها علينا بعد ان عمل
أبوها ما عمل لخرايبنا وقد بقيت لدى سنة كاملة وجاء دور غيرى
ليؤيها »

وفى اللحظة التى خرجت فيها تلك الكلمات الصارخة سمع
ايتان دقا خفيفا على الباب الذى أقفله خلفه وسمع صوت ماتى

المرح وهى تنادى من السلم « ايتان ، زينة هل تعلمان بمرور الوقت ؟ ان العشاء حاضر منذ نصف ساعة ! »

وسادت لحظة سكوت داخل الغرفة ثم نادى زينة وهى جالسة: « سوف لانزل للعشاء! »

فقالت الفتاة « انى لاسفة ! هل تشعرين بتعب؟ وهل احضر لك لقمة من طعام ؟ »

وانتبه ايتان الى نفسه فى جهد وفتح الباب قائلا « انزلى يا مات ليس بزينة شىء غير التعب . وانى سوف اجد للطعام . »

فسمعها وهى تقول « ليكن ذلك » وسمع خطواتها السريعة على السلم ثم اغلق الباب وعاد الى الغرفة وكان مكان زوجته لم يتغير وكان وجهها جامدا لا يرق وشعره باليأس من ان يقدر على عمل شىء .

وقال لها « انك لن تفعلى يا زينة ! »

قالت وقد مدت شفيتها « لن افعل ماذا ؟ »

قال « ان تطردى ماتى هكذا »

قالت « اننى لن اتعهد بان احتفظ بها مدى الحياة ! »

فاستمر يقول فى فصاحة متزايدة « انك لا تستطيعين طردها من البيت كاللصبة وهى فتاة مسكينة بلا مال ولا اصدقاء . وقد بذلت اقصى جهدها من اجلك . وليس لها ماوى تلجأ اليه ولربما نسيت انها من لحمك ودمك ولكن تناس جميعا سيذكرون ذلك ! واذا انت اقدمت على شىء من هذا فماذا يقول الناس عنك ؟ »

وانتظرت زينة لحظة وكأنها ارادت ان تتيح له من الوقت ما يستطيع ان يقدر فيه التباين بين حماسه وهذونها ثم اجابته فى صوت هادىء « انى اعرف جيدا ما يقال بسبب بقائها هنا طويلا »

وسقطت يد ايتان من اكرة الباب ، وكان ممسكا بها منذ

أغلقه لتقى ماتى فى الخارج فقد كان رد زوجته كالسكين نفذ الى أضلاعه . وشعر فجأة بضعف وخوار وكان عازما على أن ينزل عن كبريائه فيناقشها فى أن ماتى لا تكلفهما كثيرا ، وأنه سيعمل على شراء موقد واعداد مكان للفتاة الاجيرة فى غرفة السطح . ولكن كلمات زينة كشفت له عن الخطر الذى تنطوى عليه مثل هذه المناقشة .

فقاطعتها فى تلعثم وهو يخشى من أن تتم الزوجة عبارتها «هل أنت عازمة على ابلاغها ضرورة ذهابها فى إحال ؟ »

فأجابته وكأنها تحاول أن تريه وجه الصواب فى أقوالها :
« ان الفتاة ستحضر من بتسبريدج فى الغد وأظن من الواجب أن تجد مكانا لنومها »

ونظر اليها ايتان فى كراهية فهى لم تعد تلك المرأة المنطوية التى عاشت الى جنبه لا تهتم الا بنفسها . بل سارت قوة غريبة سرية ، قوة سوء تجمعت اثر سنوات طويلة من التفكير الصامت وزاد من حدة كراهيته شعوره بالعجز . ولم يكن فيها ما يمكن للمرء أن يحبه ولكن مادام يستطيع أن يتجاهل هذا الامر وينفذ أغراضه فقد ظل غير آبه ولكنها الآن تغلبت عليه فملأت نفسه باكراهية ، وليست ماتى الا قريبة لها ، لا قريته ، فلم يكن أمامه من وسيلة ليرغمها على الاحتفاظ بالفتاة فى ظل دارها . فهبت فى نفسه ذكرى ماضيه الذى لم يتحقق وفشل شبابه والمتاعب والجهد الذى لا جدوى معه . وانقلبت الى مرارة تتمثل فى تلك المرأة التى كانت تسد الطرق فى وجهه أينما يتجه . لقد انتزعت منه كل شئ وهى تريد الآن ان تنتزع الشئ الوحيد الذى يعوضه عن كل شئ آخر . وقد اشتعلت نار الكراهية فى نفسه لحظة وجرت فى ذراعه فضم قبضته وتقدم بلا وعى خطوة الى الامام ثم وقف .

وقال فى صوت المتحير « هل - هل ستنزلين الآن ! »

فأجابت فى هدوء « لا أظن ! سأرقد على فراشى بعض الوقت » فاستدار وغادر الغرفة .

وكانت ماتى جالسة بجوار الموقد ورقدت القطة بين ركبتيها ،

فهبّت واقفة عندما دخل ايتان وحمل طبق فطير اللحم الذى كان مغطى الى المائدة .

فسألت « أرجو ألا تكون زينة مريضة ؟ »

فأجاب « لا »

وكانت تضيء له المائدة بجلوسها على الجانب الآخر وقالت « فلنجلس أذن للطعام فى الحال اذ لا بد أنك تشعر بشدة الجوع » ورفعت الفطاء ووضعت الطبق امامه وكان عينيها تقولان: « اذن سنمضى ليلة سعيدة اخرى معا »

فأصاب شيئاً من الطعام فى حركة آلية وأخذ يأكل ثم شعر بأشمزاز فى حلقه وأعاد الشوكة

ونظرت اليه مائى فى رقة ولاحظت ما فعله .

وقالت « ماذا جرى يا ايتان؟ ألا يعجبك طعم الفطير ! »

فقال « نعم ! انه جيد جداً ، ولكننى ... » وأبعد عنه الطبق وقام من مقعده ومشى الى جانبها من المائدة ... فقامت واقفة وفى عينيها خوف

قالت « ان فى الامر شيئاً يا ايتان ! ارى ذلك ! »

وكانها ذابت امام ما اعترأها من خوف فأمسك بها بين ذراعيه وضمها اليه وشعر بأهداب عينيها تضربان خديه كالفراشة الحبيسة ثم تمتمت « ماذا هنالك ؟ ماذا هنالك ؟ » وكان قد وجد شفتيها فأخذ يرشف من فيها بلا شعور ونسى كل شيء الا لذة التمتع بها

وظلت ملتصقة به لحظة وقد جذبها التيار اقوى ثم تخلصت منه فى رفق وارتدت خطوة او خطوتين وامتقع لونها وقلق خاطرها وقد أثارت نظرتها عطفه فصاح وكأنه يراها غريقة فى حلم : « لن تذهبي يا مات وان اسمح بذلك ! »

فغمغمت سائلة « اذهب ! اذهب ؟ هل يجب ان اذهب ! »

وكانت الكلمات تتجاوب فيما بينهما كمشعل للتحذير ينتقل من يد الى يد فى ظلام الليل

وغلب ايتان الخجل لانه لم يسيطر على نفسه حين قذفها بالخبر في وحشية ودارت رأسه فاضطر الى أن يستند الى المائدة وكان طول هذا الوقت يشعر كانه لا يزال يقبلها ولكنه يموت تعطشا الى شفيتها .

وصاحت سائلة : « ماذا حدث يا ايتان ؟ هل جن جنون زينة من اجلى ؟ »

فأيقظته صيححتها من أحلامه، ولو انها زادت غضبا وشفقة ، وأكد لها قائلا « لا ! لا ! ليس الامر كذلك ولكن الطبيب الجديد زادها قلقا على نفسها وانك لتعلمين انها تعتقد في كل مايقوله الاطباء في أول مرة تراهم فيها . ولقد قال لها هذا الطبيب انها لن تعود اليها صحتها اذا لم تمتنع عن عمل أى شىء فى الدار - لمدة شهر ستة »

وانقطع عن الكلام وقد حول عينيه فى تعاسة فظلت صامته لحظة أمامه وقد ذبلت كالنور المنكسر وبدأت صغيرة وضعيفة فتقطع قابله ولكنها رفعت رأسها فجأة ونظرت اليه مباشرة وقالت « وهل تريد فتاة اكثر مهارة فى مكانى ، أليس كذلك ؟ »

قال « هذا ما تقوله الليلة »

فقالت « ان ما تقوله الليلة ستقوله غدا »

وأحنى الاثنان رأسيهما امام كلمة صدق لاشك فيها فهما يعلمان ان زينة لا تغير رأيها ، واذا اصرت على شىء فلا بد ان يكون .

وساد بينهما صمت طويل ثم قالت ماتى فى صوت منخفض « لا تحزن ولا تبتئس لذلك يا ايتان ! »

فتأوه قائلا « رباه ! رباه » وقد خبا بريق العاطفة التى شعر بها وذاب . فصار شفقة اليمة ورأى جفون عينيها وهى تحاول ان تحتجز الدمع وود لو يضمها بين ذراعيه ليهدىء من روعها .

وقالت وقد حاولت أن تكون مرحة :

« لقد تركت عشاءك يبرد ! »

وصاح قائلا « أين تذهبين ؟ يا مات ! أين تذهبين ! »

فغضت من عينيهـا ومرت رعدة على وجهها ورأى أن فكرة المستقبل بدت لها واضحة لأول مرة وقالت فى تردد « قد أجد عملا من الاعمال فى ستامفورده وكأنها عالمة بأنه يعرف أن لأمل فى ذلك

وسقط فى مقعده وغطى وجهه بيديه وتملكه اليأس اذ فكر فى أنها ستشقى وحدها جاهدة لتجدد البحث عن عمل . ففى المكان الوحيد الذى تعرفه كانت محوطة بعدم الاهتمام او بالعداء ، وماذا تكون فرصتها بين الملايين من الباحثين عن الخبز فى المدينة وقد عادت الى ذاكرته قصص تيسة سمعها فى ووستر ووجوه الفتيات اللاتى بدأن حياتهن فى الامل مثل ماتى . . . انه من المستحيل أن يفكر فى مثل هذه الاشياء دون أن تثور نفسه وهب واقفا فجأة وقال :

« لا يمكنك أن تذهبي يا مات . . . لادعك ترحلين ! انها دائما تنفذ رغبتها ولكنى عازم على أن أنفذ رغبتى الآن . . . »
ورفعت ماتى يدها فى اشارة سريعة ، وسمع خطوات امراته من خلفه .

ودخلت زينة الغرفة فى خطواتها المتئدة الهادئة وجلست سريعا فى مقعدها المعتاد بينهما .

وقالت فى صوتها الدائم الشكوى : « شعرت بذرة من تحسن وقد قال لى الدكتور بك أن من الواجب أن أكل ما استطعت كى أحتفظ بقوتى حتى ولو لم تكن لدى شهية للطعام » ومدت يدها الى ماتى لتناولها ابريق الشاى ، وكانت قد بدلت ثوب الخروج الثمين لديها بثوبها من الشيت الاسود وعلى كتفها الشال الاسمر اللون ، وهذا لباسها اليومى وقد بدت فى سحنتها العادية ومسلكها المأوف ، وصبت لنفسها الشاى ومزجته بكمية كبيرة من اللبن ، واقتطعت قطعة كبيرة من فطيرة اللحم وبعض المخللات ثم اتت اشارتها العادية اذ تعدل من أسنانها ، وبدأت الاكل وتمسحت القطة بها بها لتسترضيها فانحنى عليها قائلة : « انك هرة طيبة » واعطتها قطعة من اللحم من طبقها وجلس ايتان صامتا ، بينما كانت ماتى تلوك طعامها فى شجاعة ، وسألت زينة سؤالا أو سؤالين عن زيارتها

لبتسبريدج ، واجابت زينة فى صوتها العادى ثم اندفعت فى الحديث فقصت عليهما عدة اوصاف بارزة لامراض باطنية بين اصدقائها واقربائها وكانت تسدد نظرها لما تى وهى تتكلم وظهرت على وجهها ابتسامة باهتة زادت من عمق الخطوط بين انفها ورقبتها .

فلما انتهى العشاء قامت من مقعدها وضغطت بيدها الجزء المسطح من جسمها فيما فوق القلب وقالت فى لهجة لا تنطوى على الشر : « ان فطيرة اللحم التى تعملينها يامات تكون دائما ثقيلة على » وكانت قلما تختصر اسم الفتاة واذا فعالت فهى علامة الود .

وأتمت كلامها قائلة : « أظن من الخير أن اذهب لابحث عن مسحوق المعدة الذى جئت به فى السنة الماضية من سبرنجفيلد فأنى لم أستعمله منذ زمن بعيد وقد يفيد فى ازالة الالتهاب ورفعت مات عينيها وجرأت على القول : « هل آتى به لك يا زينه ؟ »

فاجابت زينه فى غموض وقد ألتبت احدى نظراتها السرية : « لا فانه فى مكان لا تعرفين عنه شيئا »

وخرجت من المطبخ وقامت ماتى وأخذت فى نقل الصحف عن المائدة . وعندما مرت بمقعديتان تقابلت عيناهما فى نظرة طويلة يائسة . وكان المطهى الدافى لا يزال هادئا كشأنه فى الليلة السابقة وقفزت الهرة الى مقعد زينة المتحرك ، وبدأت حرارة النار تقوى من عبيق ازهار الجيران يوم وقام ايتان وهو متعب واقفا على قدميه .

وقال : « سأنطلق الى الخارج لادور حول البيت » وذهب الى الممر ليحمل الفانوس .

وما أن وصل الى الباب حتى قابل زينه عائدة الى الغرفة . وكانت شفتاها ترتجفان غضبا وعلى وجهها الباهت حمرة التأثير وقد انحسر الشال عن كتفيها وهى تجرجره تحت أقدامها وكانت تحمل فى يديها قطع الطبق من الزجاج الاحمر .

وقالت وهي تنظر الى ايتان مرة ومرة الى ماتي « أحب أن أعرف من عمل هذا »

ولم تتلق جوابا واستمرت تقول في صوت مرتعش ، ذهبت لاحضر المسحوق الذي خبأته في علبة نظارة والدى القديمة ، في أعلى دولاب أواني الخزف حيث أضع الأشياء التي أريد الاحتفاظ بها ولا أحب أن تتداولها أيدي الناس » وهنا انقطع صوتها وظهرت دمعتان صغيرتان على أهدابها وانحدرتا في بطة على خديها . ثم عادت الى قولها : « ولا يمكن الوصول للرف الأعلى الا باستعمال سلم وقد وضعت الطبق الذي أهدهته لي خالتي فياورامابل عمدا في ذاك المكان حين تزوجنا ولم انزله من مكانه الا عند تنظيف الدار في الربيع وكنت عندئذ أرفعه بيدي حتى لا ينكسر ! ثم وضعت قطع الزجاج باحترام على المائدة وقالت في صوت مرتعش : « أريد أن أعرف من فعل هذا » وعند هذا التحدى استدار ايتان عائدا الى الغرفة وواجهها قائلا : « استطيع ان أذكر لك الآن لقد كسرت الهرة »

« الهرة ؟ »

« هذا ما أقوله ! »

فصوبت نظرتها اليه ثم أدارت عينيها نحو ماتي التي كانت تحمل مجموعة الاطباق الى المائدة . ثم قالت « أريد أن أعرف كيف دخلت الهرة دولاب الاواني ؟ »

أجاب ايتان « أظنها كانت تطارد الفئران ، فقد رأيت فأرا نبي المطبخ ليلة امس » .

فظلت زينه تجول بنظرها بينهما ثم أخرجت ضحكتها القريبة وقالت في صوت عال : « اني أعرف ان هذه الهرة ذكية ولكني لم أتصور انها من الذكاء بحيث تجمع قطع الطبق الذي كسرت وترجعها كل قطعة الى جانب الاخرى فوق الرف بعد ان سقط بفعلها »

وجذبت ماتي ذراعها من الماء الساخن وقالت : « ليس لايتان من ذنب يا زينه ، فالهرة هي التي كسرت الطبق ولكني أنا

التي أنزلته من دولاب الاواني الخزف وأنا التي تستحق الموم على كسره .

ووقفت زينه الى جانب بقايا كنزها وقد انتصب جسدها حتى لكانها تمثال الغضب ثم صاحت « انت التي انزلت طبقى ؟ لماذا »

واضطجع خدا ماتى بلون احمر براق وقالت : « !ردت ان يكون منظر مائدة العشاء جميلا ! » فقالت زينة :

« أردت أن تكون مائدة العشاء جميلة فانتظرت الى أن أدركت ظهري وأخذت الشيء الذى اعتزبه اكثر من اى شىء آخر امتلكه ولم أستعمله قطحتى عندما يأتى قس الكنيسة للفداء او تأتى العمدة مارتا بيرس من بتسبريدج ! »

وانقطعت زينة عن اتمام عبارتها بشهقة كان تعبر بها عن الخوف الذى انتابها لتدنيس هذا الشيء المقدس ثم عادت تقول :

« انك فتاة شريرة يا ماتى سيلفر واني أعرف ذلك دائما فيك فهى الطريقة التى ابتدأ بها أبوك ، وقد حذرني الناس منك فحاولت أن احتفظ بأشياءى حيث لا تصل يدك اليها * ولكن يدك امتدت الى أنفوس ما أحرص عليه » واندفعت فى البكاء فترة قصيرة عابرة ثم عادت الى شأنها المعهود كتمثال من الحجارة .

وشرعت تقول : « لو انى اصغيت الى رأى الناس لذهبت قبل الآن ولما حدث منك هذا » ثم حملت قطع الزجاج المكسور وخرجت بها من الغرفة وكأنها تحمل جثة هامدة .



عندما دعى ايتان الى المزرعة على أثر مرض أبيه دبرت له أمه غرفة صغيرة لاستعماله الخاص فيما وراء غرفة الضيوف التي لا يقيم بها أحد وفي هذه الغرفة أقام رفوفا كثيرة ثبتها الى الحائط بمسامير وصنع مقعدا واسعا على هيئة صندوق من بعض الألواح وعلق على الحائط المصنوع من جص صورة لابراهيم لنكونل ونتيجة زمنية عليها آراء للشعراء وحول بهذا الاثاث الضئيل أن يقلد بعض التقليد غرفة المكتب لدى قس عرفه في ووتر ، كان يعيره بعض الكتب ، وكان لا يزال يستعمل هذه الغرفة في الصيف ولكن حين جاءت ماتي للمعيشة بالمزرعة في الصيف أعطى لها الموقد فصارت الغرفة لا تسكن لعدة شهور في السنة .

قصد هذا المأوى بمجرد أن ساد السكون الدار وتأكد من تنفس زينة المنتظم أن مشادة المطهى ليس وراءها ما يعقبها . ولقد ظل ايتان وماتي صامتين بعد أن غادرتهم زينة ، لا يحاول أحدهما أن يقترب من الآخر . ثم عادت الفتاة الى عملها في تنظيف المطهى بعد العشاء وحمل هو الفانوس وذهب لدورته العادية حول الدار . وكان المطهى خاليا حين عاد اليه ولكن غليونه وكيس دخانه وضعا على المائدة وتحتها قطعة ورق انتزعت من غلاف اعلان بائع الحبوب ، وقد كتب عليها ثلاث كلمات « لا تحزن يا ايتان »

فلما ذهب الى غرفته المظلمة الباردة وضع الفانوس على المنضدة وقرأ هذه الرسالة مرة ومرة ، وكانت أول مرة كتبت له فيها ماتي رسالة . وكان امتلاكه لهذه الورقة يشعره بشعور جديد غريب هو أنها قريبة منه . ولكنها زادت من ألمه اذ ذكرته بأنهما منذ الآن سوف لا يجدان وسيلة للاتصال غير هذه الوسيلة فلا يجد من الحياة في ابتسامتها والحرارة في صوتها غير الورق البارد والكلمات الميتة .

هبت في نفسه حركات ثورية غامضة ففيه من الشباب والقوة وعصارة الحياة ما لا يخضع بسهولة لتحطيم آماله . فهل يقضى سنى حياته ويبدلها الى جانب امرأة عنيدة تنطوي نفسها على المرارة ؟ لقد كانت أمامه فرص وظروف ضاعت واحدة فواحدة أمام ضيق ذهن زينه وجهلها واى نفع نشأ عن ذلك ؟ كانت أشد مرارة وأقل رضا ائة مرة عما كانت عليه حين

زواجها . وكانت اللذة الوحيدة التي بقيت لها هي ان تسبب له
الآلام ولقد قامت في نفسه الغريزة الطبيعية وهي الدفاع عن النفس
أمام مثل هذا العبث .

انه يعرف حالة رجل على الجانب الآخر من الجبل ، وهو
شاب في مثل سنه ، تخلص من مثل هذه الحياة التعيسة بان ذهب
الى الغرب مع الفتاة التي أحبها ، وقد طلق من زوجته وتزوج هذه
الفتاة ونجح في الحياة ، ورأى ايتان هذين الزوجين في الصيف
السابق في شلالات شاد حين جاء لزيارة بعض الاقرباء . وكانت
لهما ابنة صغيرة شقراء الشعر تضع في صدرها حلية من الذهب
وكانت ثيابها كثياب أميرة صغيرة ولم يكن نصيب المرأة المهجورة
اسوا من الزوجة فقد نزل لها الزوج عن مزرعة واسه استطاعت
بيعها . وبثمنها وبالنفقة المقدرة لها افتتحت مطعما صغيرا في
بتسبريدج ، وازدهرت أعمالها وصارت لها مكانتها . وقد أشعل
هذا التفكير جذوة في نفسه : لماذا لا يرحل في اليوم التالي مع
ماتى بدلا من ان يدعها ترحل وحدها وسيخفى حقيقته تحت
مقعد الزاحفة ولا تشك زينه في شيء الى أن تصعد لغرفتها
للراحة بعد ظهر ذاك اليوم فتجد رسالة على فراشها .

كانت دوافعه لاتزال سطحية ، فهب من مقعده وأشعل الفانوس
وجلس الى المنضدة ، وبحث عن ورقة فوجدها وابتدأ الكتابة :

« انى فعلت من أجلك يا زينة كل ما أستطيع فعله ، ولم أر أن
لذلك فائدة ، ولا ألومك على ذلك كما لا ألوم نفسي وقد يكون
من الخير أن ننفصل ، وسأذهب لأجرب حظى في الغرب وتستطيعين
أنت أن تبيعي المزرعة والطاحونة وتحفظي بالثمن . . »

وهنا وقف القلم عند هذه الكلمة التي نبهته الى ظروفه التي
لاترحم : فاذا وهب زينه المزرعة والطاحونة فماذا يبقى له لابتداء
حياة جديدة ؟ انه ليس على يقين من انه سيجد عملا في الغرب ،
ولم يكن ليخشى على نفسه من المحاولة وهو وحيد ، ولكن الموقف
يتغير حين تكون ماتى معتمدة عليه . وماذا يخفى القدر لزينة ؟
ان المزرعة والطاحونة مرهونتان الى حدود قيمتها ، واذا وجدت
مشترى ، وهو أمر مستبعد ، فمن المشكوك فيه أن يتبقى لها
ألف دولار من الثمن . . وكيف تدبر أمور المزرعة ؟ ان ايتان
لا يخرج منها ما يقيم أوده الا بالعمل المستمر ، والملاحظة

الشخصية الدائمة ، ولا يمكن لزوجته أن تتحمل هذا العبء وحدها ولو كانت في صحة أقوى هي عليه .

تستطيع إذن أن تعود إلى أهلها وترى ماذا يفعلون من أجلها . . أنه القدر الذي تريد أن تجبر ماتي عليه فلم لا تجرب به هي ؟ وإلى أن تكتشف مقره وتقيم قضية طلاق يكون على الراجح قد وجد عملا يربح منه ما يمكنه من أن يدفع لها نفقة مناسبة . أما الجانب الآخر من المسألة فهو ان يدع ماتي تذهب وحدها دون أن يكون هنالك أمل في أن تجد من يعينها .

كان قد بعثر محتويات درج المكتب في بحته عن فرخ من الورق واذ أمسك بالقلم سقطت عيناه على نسخة من جريدة « نسر بتسبريدج » وكانت صفحة الاعلانات مطوية أمامه في القسم الاعلى وقرأ فيها الكلمات المغربية : سياحة إلى الغرب بأسعار مخفضة .

وجذب الفانوس الى قرب وقرأ الاجور بلهفة ، ثم سقطت الجريدة من يده ودفع الرسالة التي لم يتمها جانبا ، وكان منذ لحظة يفكر فيما يعيش عليه هو وماتي عندما يبلغان الغرب ، ولكنه رأى الآن أنه لا يجد حتى المال الذي يأخذها به الى الغرب ولم يكن الاقتراض مستطاعا فانه منذ ستة أشهر قدم ضماناته الوحيدة للحصول على المال ولعمل اصلاحات ضرورية في الطاحونة وهو يعلم انه لن يستطيع اقتراض عشرة دولارات في ستاركفيلد من غير ضمان . وأطبقت عليه الحقائق التي لا يمكن تجاهلها كما يفعل حراس السجن حين يضعون مذنبا في الاغلال - لم يكن هنالك من سبيل - لاسبيل فانه سيجن طول الحياة ، وسينطفئ الآن بصيص النور الوحيد في حياته

عاد متثاقلا الى الاريغة ومد أعضائه المرهقة حتى ليشعر أنه لن يتحرك من بعد وارتفعت الدموع الى حلقه ثم سارت في طريقها في ببطء الى جفنيه وهي كالنار المحرقة .

وبينما هو في رقدته أخذ زجاج النافذة المواجه له يضيء تدريجيا ، ورصع الظلام حوله مربعا من سماء أبنارها ضوء القمر ، وكان غصن من شجيرة يقطع أحيانا هذا الضوء ، وهو غصن شجيرة التفاح التي كان يجد ماتي جالسة تحتها أحيانا في ليالي الصيف عند عودته من الطاحونة . وقد اشتعلت بالضوء أطراف السحب الممطرة ، ثم ذهب السحب وبرز ضوء القمر خالصا في سماء زرقاء ، واستند ايتان الى رسغه وأخذ

يراقب المنظر وهو يزيد بياضاً ثم يزداد وضوحاً تحت تأثير القمر . وفى تلك الليلة كان يجب أن يأخذ ماتى الى ممارسة الانزلاق وهنالك كان المصباح الذى يضىء لهما الطريق . وأطل على منحنيات الجبال فى بريقها ورأى ظلال الغابات التى طليت أطرافها بالفضة واحمرار التلال كالاشباح وهى على وجه السماء وكان الليل بدا فى أبهى حلة ليسخر من تعاسته .

وغلبه الكرى وحين استيقظ كان برد الفجر فى الشتاء قد بلغ الغرفة فشعر بالبرد وتصلب جسده بالجوع وأحس بالحجل لانه جاع . ففرك عينيه وذهب الى النافذة وكانت شمس حمراء قد ظهرت على أطراف الحقول الرمادية اللون وراء أشجار تبدو سوداء منكسرة وقال لنفسه . . هذا هو اليوم الأخير لمات وحاول أن يتخيل الدار بغيرها .

وبينما هو واقف سمع خطوة من خلفه ودخلت ماتى سألته : « أكنت هنا طول الليل يا ايتان ؟ »

وكانت تبدو صغيرة ضئيلة فى ثوبها الرخيص وهى ملتحفة بشالها الاحمر وقد بدل الضوء الابيض لون بشرتها من اللون الباهت الى الشحوب حتى ان ايتان وقف أمامها لا يستطيع الكلام

وأستمرت تقول وقد صوبت اية عينين زال عنهما البريق « لا يد أن اطرافك تجمدت »

وأقرب منها خطوة وسألها : « كيف عرفت بوجودى هنا ؟ »

قالت : « انى سمعتك تنزل مرة ثانية بعد ان أويت الى فراشى وأصغيت طول الليل فلم أجذك تصعد ثانيا »

واجتمع كل ما يشعر به من عطف عند شفقيه فنظر اليها وقال : « سأذهب معك الآن لا يقاد النار فى المطبخ » .

وعاد الى المطبخ وأتى بالفحم والاشباب ونظف لها الموقد فى حين انها أتت بالبن وبقايا فطيرة اللحم وعندما بدأت الحرارة تشع من الموقد ونفذ أول شعاع من الشمس الى أرض المطبخ بدأت أفكار ايتان السوداء تذوب وتتحول الى أفكار أكثر رقة فخيّل اليه وهو يرى ماتى تقوم بعملها كعادتها فى كل صباح أنه من المستحيل أن تنقطع عن أن تكون جزءاً من المنظر وقال لنفسه انه

بالغ بلاريب فى معنى تهديدات زينة ، وانها أيضا ستكون أعقل
مع طلوع النهار .

وذهب الى ماتى وهى منحنية على الموقد ووضع يده على ذراعها
وقال لها وهو ينظر فى عينيها بابتسامة « أريد منك ألا تقلقى
أيضا »

فاحمر وجهها فى حرارة وهمست ترد عليه « لا يا ايتان!
سوف لا أقلق »

فأضاف قائلا « أظن أن الامور ستتحسن » .
فلم يتلق اجابة عن ذلك غير حركة سريعة لجفنيها واستمر
يقول « هل لم تقل شيئا فى هذا الصباح ! »
فأجابت : لا ! لم أرها بعد !
فقال : لا تهتمى اذا رأيتها !

تركها بعد هذا الرجاء وخرج الى حظيرة البقر وقد رأى يوتام
باول يصعد التل خلال ضباب الصباح وكان هذا المنظر الذى
اعتاده مما زاد الطمأنينة فى نفسه

وبينما كان الرجلان ينظفان أمكنة طعام البقر ارتكن يوتام
على منجلته وقال « سيذهب دانييل بيرن الى المنبسطات فى ظهر
اليوم ويستطيع أن ينقل حقيبة ماتى معه مما يسهل على اخذها
معى فى الزاحفة »

ونظر اليه ايتان فى ذهول فاستمر يقول « وتقول السيدة
فروم ان الفتاة الجديدة ستبلغ المنبسطات فى الساعة الخامسة
ويجب أن أذهب بماتى عندئذ كى تركب قطار الساعة السادسة
الى ستامفورد »

شعر ايتان بالدم يدب فى عروقه ومضت فترة قبل أن
يستعيد صوته ليقول « ليس من المؤكد ذهاب ماتى ! »

فقال يوتام فى عدم اهتمام « أهذا صحيح؟ » وعادا لعملهما
وعندما عادا الى المطبخ كانت المرأتان تأكلان فطورهما وكان
يبدو على زينه اليقظة والنشاط غير المعتاد وشربت فنجانين من
القهوة وأطعمت القطة بنتف من فطيرة اللحم ثم قامت من مقعدها
وسارت الى النافذة وشدت ورقتين أو ثلاثا صفراء من نبت
الجيران يوم وقالت فى تفكير « لا توجد ورقة صفراء لدى العمة
مارتا ولكن النباتات تذبل اذا ما أهمل شأنها » ثم التفتت الى
يوتام وسألت « تقول متى يأتى دانييل بيرن ؟ »

فألقى الرجل الاجير نظرة تردد نحو ايتان ثم قال « قرب
الظهر »

والتفتت زينه الى ماتى وقالت « ان حقيبتك أثقل من أن
تحمليها الزاحفة وسيأخذها دانييل يرن معه »
فقلت ماتى : شكرا لك يا زينه •

وأتمت زينه كلامها فى صوت ثابت « أحب أن أفحص معك
الاشياء أولا فاني أعرف أن هنالك فوطه لا أجدها ، ولا أعرف ماذا
عملت بخزانة الكبريت التى كانت موضوعة وراء البومة المحنطة
فى غرفة الضيوف » •

وخرجت تتبعها ماتى ولما اختلى الرجلان قال يوتام لرئيسه
« أظن الأوفق أن أحبر دانييل بالمرور هنا »

وانتهى ايتان من أعمال الصباح العادية فى الدار وفى الجرن
ثم قال ليوتام « سأذهب الى ستاركفيلد ، قل فى الدار انى
لا أحضر للغداء »

وقد هبت فيه روح الثورة مرة ثانية فان الذى بدا له غير
مصدق فى ضوء النهار الذى يحمل على التعقل قد حدث فعلا
وعليه أن يشهد ابعاد ماتى وهو كالمتفرج الذى لا شأن له به •
ولقد أهينت رجولته بالدور الذى كان عليه أن يلعبه وبالتفكير فيما
لا بد أن يكون لماتى من رأى فيه • وتنازعت نفسه دوافع غامضة
وهو يسير فى القرية وعقد العزم على أن يعمل شيئا ولكنه لم
يعرف ما يفعله •

اختفى ضباب الصباح وبدأت الحقول كأنها درع فضيه تحت
ضوء الشمس وكان يوما من الايام التى يبدو فيها بريق الشتاء
تحت غلالة باهتة من الربيع • وكانت صورة ماتى ماثلة أمامه
طول الطريق ولا يكاد يكون هنالك غصن يظلل السماء أو كومة
من الاعشاب المتشابكة على جانبيه يخلو من ذكرى براقه لها •
وذات مرة اخترق السكون نداء طير فى حرج جبلى فكان شديد
الشبه بضحكتها حتى أن قلبه انكمش ثم تمدد • وكل هذه
الامور آرتة أن من الواجب ان يفعل شيئا فى الحال •

وفجأة خطرت له فكرة ، هى أن أندرو هايل ، وهو رجل ذو قلب
رحيم ، قد يعدل رفضه ويقدم له مبلغا صغيرا من ثمن الاخشاب لو
علم أن حالة زينه الصحية تتطلب استئجار خادمة • وكان هايل
يعلم ما فيه الكفاية عن موقف ايتان ، فمن المستطاع ان يجدد له

الرجاء دون أن ينزل كثيرا عن كبريائه . فضلا عن ذلك ماقيمة
الكبرياء أمام غليان العواطف في صدره ؟

وكلما فكر في مشروعه كبر في نفسه الامل ، واذا كان
يؤثر في أذن مسز هایل فلا بد له من النجاح واذا كان في جيبه
خمسون دولارا فلا شيء يحول بينه وبين ماتي

كان غرضه الاول أن يبلغ ستاركفيد قبل أن يبرحها هایل
لعمله فهو يعلم أن النجار يقوم بعمل في طريق كاربوري ومن
الراجح أن يغادر منزله مبكرا فزادت سرعة ايتان في خطواته
لنواصة مع سرعة تفكيره وحين وصل الى أسفل تل المدرسة رأى
راحفة هایل تبدو من بعيد ، فأسرع ليقابلها ولكنه حين اقترب
منها رأى أن الذي يقودها هو ابن النجار الاصغر وأن الجالس الى
جانبه ويبدو كشرنقة كبيرة وضعت مستقيمة وأبست نظارة
ان هي الا السيدة هایل فأشار ايتان اليهما بالوقوف وأطلت
عليه السيدة هایل وقد أبرقت أساريرها وتجا عيدها بعلام العطف
قالت له « انك تسأل عن مستر هایل ؟ نعم ستجده في الدار
الآن فهو لا يذهب للعمل فيما قبل الظهر ، وقد امتيقظ فاذا
به يشعر بشيء من آلام النقرس فحملته على أن يضع احدى لوزقات
الدكتور كايدر الكهل ويجلس الى جانب النار »

وكانت تنظر الى ايتان نظرة الوالدة فانحنى لتقول « اني
سمعت أخيرا من مستر هایل أن زينة ذهبت الى بتسبريدج لتري
الطبيب الجديد . واني لا سفة حقا لاشتداد وطأة المرض عليها
مرة ثانية ، فهل تظن أحدا هنا يستطيع أن ينفعها ؟ اني لا أعرف
أحدا في هذا المكان شعر بوطأة المرض أكثر من زينه . واني
لا تسأل ومستر هایل دائما : ماذا يكون من أمرها لو لم تجدك للعناية
بها ، وكنت أقول مثل هذا عن أمك فلقد كان القدر شديدا لوطأة
عليك يا ايتان فروم »

وأحنى له رأسها أخيرا علامة العطف بينما أخذ ابنها يستحث
الجواد ووقف ايتان في منتصف الطريق وأخذت الزاحفة تتوارى
عنه وهو يحدق فيها

لم يتكلم اليه أحد بمثل العطف الذي أظهرته له السيدة هایل
منذ وقت بعيد وكان أكثر الناس لا تهمهم متاعبه أو أنهم يرون
من الطبيعي أن شابا في مثل سنه يحتمل بلا شكوى عبء

حياة ثلاثة أشخاص عاجزين • ولكن السيدة هاييل قالت له « ان
القدر كان شديد الوطأة عليك يا ايتان فروم ! » وشعرانه أقل
انفرادا بالتعاسة فاذا كانت أسرة هاييل آسفة له فمن المؤكد أنها
تجيب نداه •

وابتداً ينزل فى الطريق الى دار الاسرة ، ولكنه بعد أن قطع
بضع ياردات توقف عن السير فجأة وقد ارتفع اندم الى وجهه •
ولأول مرة رأى فى ضوء الكلمات التى سمعها ما هو قادم على فعله
فهو ينوى الاستفادة من عطف أسرة هاييل للحصول على المال
منهم بوسيلة احتيالية • هذا هو الواقع الصريح للغرض الغامض
الذى دفعه رأسا الى ستاركفيلد

ولما أن رأى فجأة الى أى حد دفعه جنونه زال هذا الجنون عنه
ورأى حياته أمامه كما هى : انه رجل فقير متزوج من امرأة مريضة
اذا هجرها صارت وحيدة معدمة واذا وجد القوة على هجرها فانه
لن يفعل ذلك الا بخداع شخصين عطوفين أشفقا عليه
فاستدار وعاد أدراجه الى المزرعة فى بطاء



كان دانييل بيرن جالسا على باب المطهى فى زاحفته خلف جواد رمادى اللون غليظ العظام يدق الثلج بحافره ويقلب رأسه الطويل من جانب الى جانب

وذهب ايتان الى المطهى ووجد زوجته الى جانب الموقد ملتحفة بشالها فوق رأسها . وهى تقرأ فى كتاب « أمراض الكلى وطرق علاجها » جاءها بالبريد منذ أيام ناقصا بعض الطوابع فاضطرت لدفع رسوم البريد الزائدة عليه

ولم تتحرك زينه من مكانها ولم تنظر اليه حين دخل وبعد لحظة سأل « أين ماتى ؟ » فأجابته دون أن ترفع عينيه من صفحة الكتاب « ذهبت على الغالب لنقل حقيبتها ! » فارتفع الدم الى وجهه وسأل « تنقل حقيبتها . . وحدها ؟ » فردت قائلة « ان يوتام باول يقطع أخشابا ويقول دانييل بيرن انه لا يجرو على ترك الجواد »

ولم ينتظر زوجها حتى يسمع تنمة العبارة بل ترك المطهى وارتقى الدرج مسرعا وكان باب غرفة ماتى مغلقا فتردد لحظة أمام الباب ثم همس مناديا « مات ! » ولكنه لم يسمع جوابا فوضع يده على مقبض الباب

لم يدخل غرفتها من قبل الا مرة فى أوائل الصيف حين أراد أن يغطى بالجص شقا ظهر فى السقف ولكنه يذكر جيدا منظر كل شىء فيها فيذكر عطاء الريش بلونه الاحمر والابيض ومخدة الدبابيس الجميلة على الصندوق ذى الادراج وصورة أمها فى اطار من المعدن المطلى ووراءها باقة من الحشائش الملونة بالاصباغ ، وقد اختفت الآن كل هذه العلامات الدالة على سكنها الغرفة فصار منظر الغرفة عاريا جامدا كما كانت عندما دخلتها مع زينه فى أول يوم وصولها . وقد رآها جالسة فوق الحقيبة فى وسط الغرفة وهى فى الثوب الذى ترتديه يوم الاحد وقد أدارت ظهرها الى الباب وغطت وجهها بكفيها ، فلم تسمع نداء ايتان لانها تبكى ولم تسمع خطوته الى أن وقف خلفها ووضع يديه على كتفيها .

وقال : « مات ! كفى ! لا تبكى با مات ! » فهبت واقفة ورفعت اليه وجهها المبلل بالدموع وقالت : « ظننت يا ايتان انى لن أراك مرة ثانية »

فضمها بين ذراعيه واحتضنها بشدة ورفع الشعر الذي تدلى
على جبينها بيد مرتعشة
وقال : « لن ترينى مرة ثانية .. ! كيف .. ؟ »
فقالته وهى تبكى : « أخبرنى يوتام ألا ننتظر فى الغداء
وظننت ... »

فاتم عبارتها فى خشونة قائلا : « ظننت انى أردت ان انتهى
من كل ذلك .. ! »

وتعلقت به دون ان تجيب فوضع شفتيه على شعرها الناعم
الغزير كالحشائش فى المنحدرات الدافئة ، العطر برائحة كرائحة
فتات الاخشاب تحت أشعة الشمس .

ونفذ صوت زينة من الباب اليهما وهى تنادى من أسفل :
« يقول دانييل بيرن فلتسرعى اذا أردت أن تنقلى هذه الحقيبة »
فافترقا وقد اربدت ملامحهما وارتفعت الى شفتى ايتان
كلمات المقاومة ، الا أنها ماتت عندهما . ووجدت ماتى منديلها
وجففت عينيها ثم انحنى وأمسكت بمقبض الحقيبة .

ونحاهما ايتان جانبا وهو يأمرها : « دعيها يا مات .. ! »
فأجابت : « انها تحتاج الى شخصين لنقلها الى خارج الغرفة »
ونزل عند هذا الرأى وأمسك بالمقبض الآخر .. ! وتمكنا من
نقل الحقيبة الى الخارج ثم كرر القول : « دعيها .. ! »

ورفع الحقيبة الى كتفيه وحملها نازلا بها من السلم وقطع
بها الممر الى المطهى . وكانت زينة قد عادت للجلوس الى جانب
الموقد ، ولكنها لم ترفع رأسها من كتابها وهو فى سيره ، وتبعته
ماتى الى خارج الباب وساعدته فى وضع الحقيبة فى مؤخرة
الزاحفة ، ثم وقفا جنبا الى جنب على عتبة الباب يرقبان دانييل
بيرن يتخذ مكانه خلف جواده العنيف .

وخيل الى ايتان أن قلبه مشدود الى رباط تزيد من شدة يد
غير منظورة كلما دقت لحظات الساعة فى سيرها . وفتح ايتان
شفتيه مرتين ليخاطب ماتى فلم يجد صوتا ينطق به ، وأخيرا
حين استدارت للعودة الى الدار وضع يده عليها ليووقفها قليلا .
وهمس : « سأكون أنا السائق للزاحفة فى سفرك يا مات » .

فتمتت قائلة : « أظن زينة تريد ان اذهب مع يوتام » .
فكرر القول : « سأكون أنا السائق لزاحفتك يا مات .. »
ودخلت الى المطهى دون أن تجيبه ..

ولم يستطع ايتان ان يأكل فى الغداء وكان اذا رفع عينيه

وقعتا على وجه زينة المجدد، وبدأ له أن جوانب فمها تنفرج في ابتسامة وقد اكلت بشهية معلنة أن حالتها الصحية تحسنت بتحس الجوى ، ودعت يوتام بأول إلى تناول نصيب آخر من الفول وكان من عاداتها تجامر امره ..

فإذا انتهى الطعام أخذت ماتى تقوم بعملها العادى من نقل ما وضع على المائدة وتنظيفها وغسيل الأطباق ، وجلست زينة بعد اطعام الهرة على المقعد المتحرك بجوار الموقد وبارح يوتام بأول مقعده فى تردد وهو عادة آخر من يقوم عن الطعام وتحرك نحو الباب .

وحين بلغ الباب استدار ليسأل ايتان : « فى أية ساعة أعود لاسافر بماتى .. ؟ »

وكان ايتان واقفا بقرب النافذة يملا غليونه بحركة آلية وهو يراقب ماتى فى حركتها ذاهبة وجائية ، فأجاب : « لا حاجة لمجيئك فسأذهب أنا بماتى الى المحطة » ورأى خد ماتى يصطف بالاحمرار وزينة ترفع رأسها فى سرعة ..

وقالت الزوجة : « أحب أن تبقى هنا بعدظهر اليوم يا ايتان ويستطيع يوتام أن يذهب بماتى ! »

وألقت ماتى نحوه نظرة توسل ولكنه كرر فى اختصار : « سأذهب معها بنفسى ! »

وقالت زينة فى صوتها المتزن : « اردت أن تبقى لتصلح الموقد فى غرفة ماتى قبل أن تأتى الفتاة الاجيرة فمئذ شهر لم يكن الدخان ينسحب جينا » .

فارتفع صوت ايتان فى غضب : « اظن أن ماكان مقبولا لدى ماتى يصح أن تقبله فتاة اجيرة ! »

وأصرت زينة فى صوتها المتزن على القول : « اعلتنى الفتاة القادمة أنها معتادة الإقامة بمنزل فيه فرن »

فرد فى سرعة : « اذن كان يحسن بها أن تبقى حيث هى ! » والتفت الى ماتى وقال لها فى صوت جاف : « فلتستعدى فى الساعة الثالثة يا ماتى ، فان لدى عملا فى كربورى »

كان يوتام بأول قد قصد الى الجرن وتبعه ايتان اليه وهو يستشيط غضبا وعارضا ينتفضان بشدة وعلى عينيه غشاوة ويسير فى عمله وهو لا يدري أية قوة تسيره ويمشى بقدمين ويعمل بيدين لا يكاد يدري من أمرهما شيئا ، ولم ينتبه الى نفسه الا بعد أن خرج الجواد الاسمر وأوقفه بين مقبضى الزاحفة ورمى

باللجام على رأسه ، وربط المقبضين وشدهما فتذكر اليوم الذي تأهب فيه مثل هذا التأهب ليذهب الى المنسبطات ويأتى بقرينة زوجته . كان ذلك منذ أكثر من سنة بقليل بعد ظهر يوم رائق مثل هذا اليوم في جوه نفحة الربيع ، وفي ذاك اليوم انتفت الجواد الاسمر بعينيه الواسعتين وشم بأنفه يده كما يفعل الآن فعادت اليه ذكرى الايام الخالية بين فترتين ، واصطفت أمامه يوما بعد يوم .

ورفع الفطاء من فرو الدب في الزاحفة وصعد الى مقعده فيها ، وسار بها الى الدار وعندما دخل المطبخ وجده خالبا ، ولكن حقيبة ماتى اليدوية ودثارها كانا الى جانب الباب ، فذهب الى أسفل السلم وأصغى فلم يسمع صوتا من الطابق الاعلى ولكنه ما لبث ان سمع حركة في الغرفة المهجورة التي اتخذها للبحث . ففتح الباب ورأى ماتى واقفة في قبعتها رسرتها الى جانب المائدة وظهرها اليه .

وبوغتت بدخوله واستدارت في الحال وقالت :
« هل حان الوقت .. ؟ »

فسألها : « ماذا تفعلين هنا يا مات .. ؟ »

فنظرت اليه في خجل وأجابت في ابتسامة مترددة :

« كنت ألقى نظرة الى ما حولي .. هذا كل شيء .. »
وعادا الى المطبخ دون أن يتكلمها ، وحمل ايتان حقيبتها اليدوية ودثارها وسأل : « أين زينة ؟ »

فأجابته : « لقد صعدت الى غرفتها بعد الغداء مباشرة وقالت انها تشعر بتلك الآلام المبرحة تعود اليها ، وانها لا تريد أن يقلقها أحد .. »

سأل : « ألم تودعك ؟ ! »

فأجابت : « لا .. ! هذا كل ما قالته ! »

ونظر ايتان في بطاء حول المطبخ وارتعد اذ قال لنفسه أنه سيعود بعد ساعات اليها وحده ثم تغلب عليه الاغراق في الخيال فلم يستطع أن يصدق أن ماتى تقف أمامه للمرة الأخيرة ..

فقال لها في لهجة تكاد تنم على الانشراح : « هيا بنا » وفتح الباب وحمل كيسها الى الزاحفة ثم قفز الى المقعد وانحنى ليدثرها بالفطاء فدلقت الى جانبه ثم صاح بالجواد :

« انطلق » ، بعد أن هز اللجام فسار الجواد في هدوء ينحدر من التل .

وصاح قائلا : « ان لدينا الوقت لنزهة طريفة » وبحث عن
يدها تحت الفرو وضغطها في يده ، وكان وجهها مختفيا ،
وشعر بدوار كأنه وقف في أحد أيام العطلة يتناول خمرا في
مقهى ستار كفيلد .

ووصل الى المدخل الخارجى للدار فخرج بالجواد الى اليمين
صاعدا في الطريق الى تسبريدج بدلا من السير في طريق ستاركفيلد
وجلست مائى ساكنة لا تبدى أية علامة تدل على الدهشة ،
ولكنها قالت بعد لحظة : « هل أنت عازم على الذهاب عن طريق
بحيرة الظلال ؟ »

فضحك وأجاب : « حذرت أنك ستعرفين . . »
وزادت التصاقا به تحت فرو الدب ، ولو أنه نظر جانبيا
حول كم سترته لما رأى غير مقدمة انفها وخصلة متطابرة
من شعرها الاسمر وكانت الزاحفة تسير بهما في بطء صاعدة
في الطريق بين حقول تلمع تحت ضوء الشمس الباهتة . ثم
اتجهت الى اليمين نازلة في طريق ضيق ، غرست على جانبيه
الاشجار وكانت امامهما سلسلة من تلال ترى عليها بقع من
الغابات السوداء وتؤلف هذه التلال دوائر بيضاء متتابعة الى
ما وراء السماء . ثم انتقلت بهما الزاحفة من هذا الطريق الضيق
الى غابة صنوبر مليئة بكرات الصنوبر . . صبغتها الشمس
بالحمرة فيما بعد الظهر وتلقى اشجارها ظلالا خفيفة زرقاء على
الثلج ، وحين دخلا الغابة هدأت الرياح وكان الدفء والسكون
خيما مع ابر الثلج المتساقطة من الاغصان . . وكان الثلج هنا
ناصعا حتى ان الآثار الدقيقة لحيوانات الغابة قد تركت عليه
ما يشبه نقوش الدانتلا ، وتبدو كرات الصنوبر التى سقطت
على سطحه كحلى من البرونز .

واستمر ايتان يسير بالزاحفة في صمت الى أن بلغا قسما
من الغابة كانت الاشجار فيه أقل تكاثفا ، فوقف الزاحفة ،
وساعد مائى على النزول منها . ومرا بين الجذوع العطرة والثلج
يتكسر في جفاء تحت أقدامهما الى أن بلغا بحيرة صغيرة مجللة
بالاشجار ، وعلى سطحها المتجمد من الجانب المقابل لهما قتل واحد
يرتفع الى كبد الشمس الفاربة ويلقى ظلا طويلا كالقمع ، ولذلك
سميت بحيرة الظلال ، وكانت بقعة سرية منزوية تنطوى على
مثل الحزن الصامب العميق فى قلب أيتان !

وبحث في جوانب ذلك الشاطئ ذى الجص والاحجار الى
أن وقع نظره على جذع شجرة ملقى كاد يغطيه الثلج ، وأخذ

يوقد ذاكرتها قائلا : « هنا جلسنا عندما قمنا برحلة صغيرة »
وكانت تلك النزهة احدى انزهات القليلة التي اشترك فيها معاه
وهى رحلة نظمها الكنيسة بعد ظهر يوم طويل من ايام الصيف
السابق . فامتلا المكان بمرح المتنزهين وكانت ماتى قد رجته
فى ان يذهب معهم ولكنه رفض ، ثم حدث قبيل الغروب ان كان
نازلا من الجبل حيث كان يقطع اخشابا فقابل فريقا من المتنزهين
اوغلوا الى ناحيته فجذبوه الى الجماعة حول البحيرة . فرأى ماتى
وحولها عدد من الشبان المعجبين بها وهى فى مثل نضرة التوت
تحت قبعتها تعدلهم القهوة تحت نار هيئت فورا كما يفعل الفجر
وقد تذكر الخجل الذى اعتراه حين اقترب منها فى ثياب العمل
الرثة وكيف ان وجهها اضاء حين رآته وكيف انها اقتحمت الحشد
من حولها لتأتى اليه وفى يدها قدح من القهوة وقد جلسا بضع
دقائق على هذا الجذع الملقى الى جانب البحيرة وكانت قد سقطت
حلية صدرها الذهبية وأخذ الشبان يبحثون عنها ولكن ايتان
هو الذى رآها بين الحشائش . . كان هذا كل شىء . . ولكن جميع
اتصالاتهما تتألف من مثل هذه اللحظات المهمة التى
تباغتهما فيها السعادة كأنها فراشة عرضت لهما فى غابات الشتاء
قال : « لقد كانت حليتك هنا » ووضع قدمه على باقة من
اعشاب الالعاب البرية .

فأجابت : « لم أر أحدا له مثل هاتين العينين الحادثتين » . .
وجلست على جذع الشجرة فى الشمس وجلس الى جانبها
وقال : « لقد كنت جميلة فى تلك القبة الوردية كأنك صورة
من رسم فنان . .

فضحكت سرورا وقالت : « أظن القبة هى الجميلة » .
ولم يكونا قد اعربا عن ميولهما من قبل بطريقة ظاهرة وخيل
الى ايتان فى لحظة انه رحل طليق يغازل الفتاة التى يريد
ان يتزوجها فنظر الى شعرها وودلو يستطيع لمسه مرة ثانية
ويستطيع ليقول لها أن رائحته كرائحة الغابات ولكنه لم يكن قد
اعتاد قول هذه الاشياء مطلقا .

وهبت واقفة فجأة وقالت : « يجب الا نبقى هنا أكثر من
هذا . . ! »

واستمر يطيل النظر اليها وهو لم يستيقظ بعد من أحلامه
ثم اجاب : « لا تزال اماننا فسحة من الوقت . . »

ووقفا ينظر كل منهما الى الآخر كأن عيني كل منهما تحاولان
جاهدتين أن تشبع بصورة الآخر وتحفظ بها . . وكانت

هناك أمور يرى أن يقولها قبل افتراقهما ولكنه لا يستطيع قولها
فى هذا المكان وبه ذكريات الصيف فاستدار وتبعها فى صمت
الى الزاحفة ، وتحركا ، بينما كانت الشمس تغيب خلف التلال
وتتحول ألوان كرات الصنوبر من الأحمر الى الرمادى ..

وعاد الى طريق ستاركفيلد بعد أن اخترقا ممرا ملتويا وكان
الضوء لا يزال ماثلا فى السماء ولا يزال ينعكس لون أحمر جاف
على التلال الشرقية وكانت جذوع الأشجار المتجمعة بين الثلج تبدو
كطيور وضعت رؤوسها تحت أجنحتها ثم بهت لون السماء
فكانها ارتفعت أكثر مما هى تريد الابتعاد عن الأرض
فلما بلغا طريق ستاركفيلد قال ايتان « ماذا تزمعين أن تفعل
يامات ؟ »

فسكتت قليلا ثم قالت أخيرا : « سأحاول أن أجد عملا فى
أحد الحوانيت الكبيرة »
فقال : « انك لتعلمين انك لا تستطيعين مزاولة مثل هذا العمل
فالوقت الطويل وقلة الهواء الطلق كادا يقتلانك من قبل »
قالت : « لقد صرت أكبر قوة بكثير منى قبل المجئ الى
ستاركفيلد »

فقال : « والآن ستضحين بكل ما استفدته فى هذه الفترة ! »
ويظهر أنها لم تجد جوابا لهذا القول وسارا فترة دون أن يتكلما
وكان ايتان فى كل ياردة من الطريق يجد بقعة ضحكا عندها
أو صموتا فتعود به الذكرى الى الماضى .
وسألها : « ألا يوجد أحد من أقارب أبيك يساعدك »
قالت : « لا يوجد بينهم من أحب أن أسأله المساعدة »
وكان صوته منخفضا حين قال : « انك تعلمين انى أقدر على
أى شئ من أجلك ! »

فأجابت : « انى لا أعلم ذلك »
وقال : « ولكننى لا أستطيع »
وسكتت ولكنه شعر برغبة خفيفة فى الكتف الملاصقة له ،
فباح قائلا : « لو انى أستطيع أن أذهب معك الآن لفعلت .. »
فنظرت اليه وأخرجت ورقة من صدرها وتمتمت قائلة : « لقد
وجدت هذه الورقة يا ايتان ورأى بالرغم من الضوء الخفيف انها
رسالته الى زوجته التى بدأها فى الليلة السابقة ونسى أن يمزقها
وخالط دهشته شعور قوى بالسرور وصاح : « لو انى
أستطيع أن أفعل يامات ! هل تقبلين ؟ »
فقالت « ما الفائدة يا ايتان ؟ » ثم مزقت الرسالة فجأة قطعاً

صغيرة وأطلقتها فى الهواء حيث طارت وهبطت على الثلج .
فكر رسؤاله صائحا « أخبرينى يامات ! أخبرينى انى أرجوك ،
فصمتت فترة من الزمن ثم قالت فى صوت منخفض حتى اضطر
الى احناء رأسه ليسمعهان : « كنت أفكر فى هذا أحيانا فى ليالى
الصيف فقد كنت لا أستطيع النوم عندئذ حين يسطع ضوء
القمر »

وئمل قلبه بخمر هذا الاقرار وتمتم قائلا : « أكان الامر هكذا
من زمن بعيد ؟ »
فأجابته وكأن التاريخ ثابت لديها « كانت المرة الاولى عند
بحيرة الظلال »
فقال : « هل كان ذلك هو السبب فى أنك قدمت الى القهوة
قبل الآخرين ؟ »

فأجابته : « لا أعلم انى فعلت ولقد تضايقت كثيرا عندما أبيت
الذهاب معى الى الرحلة ، ثم حين رأيتك نازلا من الطريق فكرت
فى انك ربما أردت الذهاب الى الدار عن هذا الطريق عمدا
فابتهجت لذلك »

وصمتا مرة ثانية . ووصلا الى مكان ينحدر فيه الطريق
سريعا الى حفرة عميقة وهو قريب من طاحونة ايتان وبنزولهما
نزل الظلام كأنه ستار أسود اسدل من غصون اشجار الهملوك .
فبدأ يقول : « انى موثق اليدين والقدمين يا مات فلا أستطيع
أن أفعل شيئا ! »

فأجابته : « يجب أن تكتب الى أحيانا يا ايتان »
فقال : وما الفائدة من الكتابة ؟ « انى أريد أن أمد يدي فألمسك ،
انى أريد أن أعمل من أجلك وأعنى بك : انى أريد أن أكون
حين تمرضين وحين تشعرين بوطاة الوحدة »

فقالت : « يجب ان تفكر انى لابد واجدة سبيلا للنجاح ! »
فقال : « تقصدين انك لا تحتاجين الى ؟ » أظن أنك ستزوجين !
فصاحت « ايتان ! »

قال : « لست أدرى الشعور الذى ينتابنى اذا ما فكرت فى
هذا الامر يامات ! انى لا أفضل موتك على ذاك ! »

فبكت صائحة : « ياليت ذلك ! ياليت ذلك ! »
وأزاح صوت بكائها من نفسه ذلك الغضب المظلم وحل محله
شعور بالحجل

وهمس قائلا : « دعينا من الحديث على هذا النحو »
فقالت : « لماذا نترك الحديث فى الموت جانبا وهو أمنيته فى

كل لحظة من لحظات النهار !
فقال لها : « اسكتي يامات ! لا تقولى هذا اقول »
فقالت : « انى لم أجد حنانا قط من أحد الا أنت ! »
فقال : « لا تقولى هذا القول أيضا وأنا لا أستطيع أن أرفع
بدا من أجلك . »

فقالت « نعم ومع ذلك فانى أقول الصدق ! »
وكانا قد وصلا الى أعلى تل المدرسة وبدأت ستاركفيلد تحتكما
فى ضوء الشفق ومرت بهما مركبة زاحفة وهى صاعدة من القرية
وللأجراس التى علقّت بها رنين بهيج فاعتدلا فى جلستهما ونظرا
الى الامام وقد جمدا وجهاهما وكانت الاضواء فى الشارع
الرئيسى قد بدأت تلمع من واجهات المنازل وأخذ أناس
منتشرون هنا وهناك يمشون الى الابواب الخارجية لدورهم ومس
ايتان ظهر الجواد بسوطه فركض فى تراخ

ولما اقتربا من أطراف القرية وصل اليهما صياح أطفال ورايا
عصبة من الغلمان واقفين فى الفضاء أمام الكنيسة ووراءهم
الزلاقات

فقال ايتان وهو ينظر الى السماء الهائلة أظنها آخر مرة
يمارسون فيها رياضة الانزلاق قبل يوم أو يومين
وسكتت ماتى فأضاف « كنا نريد الانزلاق فى الليلة الماضية ! »
ولم تتكلم مع ذلك وشعر برغبة غامضة فى أن يسرى عن نفسه
ويسرى عنها فى هذه الساعة الاخيرة التعة ، فقال :
« أليس من العجب أننا لم نذهب للانزلاق معا غير مرة واحدة فى
الشتاء الماضى »

فاجابت « انى لا أنزل للقرية الا نادرا ! »
فقال « هذا صحيح »

وكانا قد وصلا قمة طريق كوربرى، وبين العالم غير الواضحة
للكنيسة فى بياضها اللامع والستار الاسود لاشجار فانورم،
كان المنحدر يمتد تحتكما دون أن تكون عليه زلاقة واحدة .
فاذا بدافع فجائي يحمل ايتان على أن يقول « هل تحبين أن
نمارس الانزلاق الآن »
فاغتصبت ضحكة وقالت : « كيف ! لم يبق لدينا وقت
لذلك ! »

قال : « ان أمامنا من الوقت متسعا لما نريد ! هيا بنا » وكانت
أمنيته الوحيدة الآن أن يؤجل لحظة الاتجاه بالجواد الى المنبسطة

فقالت في تلعمش: «ولكن الفتاة !! الفتاة ستكون منتظرة في المحطة»

قال « فلتنتظر ! انك كنت تنتظرين اذا تأخرت هي ! هيا بنا ! »

وكانت في صوته نبرة الأمر فتغلب على اعتراضها ولما قفز من الزاحفة سمحت له بأن يساعدھا قائلة فيما يشبه بقية من تردد « ولكنى لا أرى زلاقة واحدة على مقربة من هنا » . فقال : « هنالك تجدينها ! تحت ظلال الشجر »

ورمى بجلد الدب على ظهر الجواد الذى وقف هادئا الى جانب الطريق وقد أحنى رأسه فيما يشبه التفكير ثم أمسك بيد ماتى وجذبها وراءه نحو الزلاقة

فاتخذت مقعدها كرغبته وجلس هو خلفها ملاصقا لها حتى مس شعرها وجهه وناداهما قائلا : « هل أنت فى راحة يامات » وكأن عرض الطريق كان يفصل بينهما

فأدارت رأسها لتقول : « ان الظلام شديد ! فهل أنت واثق من الرؤية ؟ »

فضحك فى احتقار قائلا : « انى لا أستطيع النزول فى هذا المنحدر وأنا مغمض العينين ! » وضحكت وقد سرتها جرأته . على أنه ظل لحظة يصوب نظره الى أسفل التل الطويل اذ كانت هذه الساعة أشد الاوقات المحيرة فى المساء فهى الساعة التى يختلط فيها آخر مابقى من ضوء السماء العليا مع الليل المسرع فتختفى معالم الارض وينخدع الناس فى المسافات وصاح « الآن ! »

وقفزت الزلاقة وطارا فى الظلام وهى تزيد سرعة فى انحدارها بينما الليل البهيم فاغر فاه تحتها والهواء يصفر لمرورها كأنه صفير أرغن . وجلست ماتى ساكنة ولكن عندما بلغا المنحنى فى أسفل التل حيث تمتد شجرة البلوط الكبيرة ذراعا مميتا خيل اليه أنه أصابها شئ من الخوف فازدادت التصاقا به

فصاح فى حماسة قائلا : « لاتخافى يامات » وقد مرا بها فى سلام وطارا مندفعين فى المنحدر الثانى وحين وصلا الى الارض المستوية بعد ذلك وبدأت تخف سرعة الزلاقة سمعها تضحك ضحكة ارتياح صغيرة

ونزلا من الزلاقة وأخذا يصعدان التل قافلين سيرا على الاقدام وكان ايتان يجر الزلاقة بيد ويمسك باليد الاخرى ذراع مات .

وسألها فى ضحك أشبه بضحك الصبية « هل خفت أن
أصطدم بك فى شجرة البلوط »
فأجابت « قلت لك انى لا أخاف من شىء وأنا معك ! »

وكان الحماسة الغربية التى استولت عليه قد أصابته باحدى
النوبات النادرة التى ينتابه فيها حب الزهو فقال لها « ومع ذلك
فإن هذا المكان خداع ولو أننا أتينا أقل حركة لما عدنا مرة ثانية
ولكننى أستطيع قياس المسافات فلا أخطئ قيد شعرة - وكنت
دائما كذلك »

وتتممت قائلة : « انى أقول دائما أن عينك من أحد العيون ! »
وخيم السكون العميق مع الليل الخالى من النجوم واستند
كل منهما الى الآخر دون أن يتكلم ولكن فى كل لحظة من صعودهما
كان ايتان يقول لنفسه « انها آخر مرة نكون فيها معا »
وصعدا فى بطء الى قمة التل، ولما وصلا أمام الكنيسة أحنى
رأسه ليسألها « هل أنت متعبة » فأجابت وهى تتنفس فى سرعة :
« كان هذا عظيما »

وقادها بضغظ ذراعه الى الاشجار اللرويجية وقال : « أظن هذه
الزلاقة هى لند هايل وعلى كل حال سأتركها حيث هى » وذهب
الى الباب الخارجى لدار فارنوم وانحنى واسندها الى السور
وعندما انتصبت قامت به شعر بامتى قريبة منه فى الظلال .

وهمست وهى لا تكاد تسيطر على أنفاسها « هل هذا المكان
الذى قبل فيه ند خطيبته روث ؟ » ورمت ذراعيها حوله وكانت
شفتها فى بحثها عن شفثيه تمران على وجهه وقد ضمها اليه
فى قوة وهو فى نشوة الدهشة .

وتتممت تقول : « وداعا ! وداعا » وقبلته مرة ثانية »

وصاح مكررا صيحته القديمة « لا أستطيع يامات أن أدعك
تذهبين ! »

وتخلصت من ذراعيه وسمعها تبكى وتقول « لا أستطيع أنا
فراقك ؟ »

فسألها « ماذا نفعل يامات ؟ ماذا نفعل يامات ؟ »

وأمسك كل منهما بيد الآخر كطفلين وكان جسدهما يهتزان
بعبرات اليأس وسمعا ساعة الكنيسة تقطع السكون وتدق
خمس دقائق

فصاحت « ايتان ! ايتان لقد حان الوقت ! »

وجذبها اليه وهو يقول « أى وقت حان ؟ هل تظنين انى أتركك
الآن ؟ »

فقلت « اذا لم ادرك القطار فأين أذهب ؟ »

فقال « واذا أدركته فأين تذهبن ؟ »

فسكتت وقد بردت يدها وتراخت فى يده
قال « ما الفائدة فى أن يذهب أحدهما الى أية جهة دون الآخر؟ »
وظلت بلا حراك كأنها لم تسمعه ثم سحبت يدها من يده ولفت
ذراعيها حول رقبتة وأسندت خدابلله الدمع الى وجهه وقالت :
« ايتان .. ايتان ! أريد أن تنزل بى مرة ثانية . »
قال : « أنزل بك أين ؟ »

قالت: « الى المنحدر حيث لانصعده قط مرة ثانية »

فسألها : « مات ؟ ما غرضك وماذا تعنين ؟ »

والصقت شففتيها بأذنه وقالت : « سنسطح شجرة البلوط الكبيرة
لقد قلت انك تقدر على ذلك فلانفترق بعدها مطلقا »

قال : « بماذا تتحدثين ؟ هل أنت مخبولة ؟ »

فقالت : « لست مخبولة ولكنى أجن اذا تركتك ! »

فنادى اسمها فى أنين : « مات ! مات ! »

فزادت قوة تعلقها برقبته والتصق وجهه بوجهها .

وقالت : « لا أعلم يا ايتان أين أذهب اذا تركتك ؟ ولا أعرف
كيف أسير وحيدة لقد قلت أنت ذلك الآن ! ولم أجد فى حياتى
عظفا الا منك .. وستأتى تلك الفتاة الغريبة الى الدار .. وتنام
فى سريرى حيث كنت أرقد فى الليالى وأنصت لأسمعك تصعد
فى السلم .. »

كانت هذه الكلمات كأنها فلذات اقتطعت من قلبه وجاء
معها شبح الدار الكريهة التى سيعود اليها ، والسلم الذى يجب
أن يصعد فيه كل ليلة ، والمرأة التى تنتظره هناك وكان ما ينطوى
عليه اعتراف ماتى من حلاوة ، ودهشته الجامحة حين عرف أخيرا
أن ما حدث له قد حدث لها أيضا مما زاد كراهيته للآخرى ،
واستقرت عنده الرغبة فى عدم العودة للحياة معها .

وكانت توصلات ماتى تصل اليه فى بكاء متقطع ولم يعد يسمع
ما تقوله وقد انحرفت القبعة عن رأسها فأخذ ينظم شعرها بيده ،
وأحب أن تشعر يده بملمس هذا الشعر ، وأن تظل راقدة فى
ثناياه ، كما ترقد البذرة تحت الاديم فى الشتاء . ووجد
فمها مرة أخرى وخيل اليهما أنهما الى جانب البحيرة معا فى

شمس أغسطس المحرقة • ولكن خده مسخدها فاذا هو باردمبلل
بالدموع ورأى الطريق أمامه الى المنبسطات وسمع صفير القطار
على السكة الحديدية .

وكانت الاشجار المحيطة تكسوهما بحلة من السواد
والسكون ، وكأنهما في نعشيهما راقدان تحت الثرى ، وقال
لنفسه « ربما اشعر هكذا ! ثم بعد ذلك لا اشعر بشيء ! »
وسمع فجأة صهيل الجواد الأسمر وفكر في أن الجواد يستغرب
لماذا لم يقدم له عشاؤه !

وهمست ماتى وهى تشد يده « هيا بنا »

وقد تراجع لعنفها الحزين وكأنها يد القدر • فجذب الزلاقة
وأهدابه ترتعش كأنه طائر ليلي وهو يمر من ظلال الاشجار الى
ظلام الفضاء النقي • وكان المنحدر من تحتهم مهجورا وقد جلس أهل
ستاركفيلد الى عشايتهم • ولم يمر انسان بذاك الفضاء الواقع
أمام الكنيسة • وقد تلبدت السماء بغيوم تنذر بتساقط ثلج
غزير وكانت السحب منخفضة كما تكون قبل عواصف الصيف
وأجال عينيه فى الظلام وكأنهما أقل نفاذا وأقل مقدرة على
الرؤية من عادتهما

وجلس فى الزلاقة وجلست ماتى فى الحال أمامه وقد سقطت
قبعته على الثلج وكان فمه فى شعرها ومد رجله وثبت قدميه
فى الطريق ليحول دون اندفاع الزلاقة بين يديه ثم قام فجأة من
مقعده وأمرها قائلاً : « قومى »

قالها فى النغمة التى تعودت أن تحفل بها دائما ولكنها
تسمرت فى مكانها وأجابت فى شدة « لا ! لا ! لا ! »

— « قومى ! »

— « لماذا ؟ »

— « أريد أن أجلس فى المقدمة ! »

— « لا ! لا ! كيف تستطيع تسيير الزلاقة من المقدمة ؟ »

— « لسنا فى حاجة الى ذلك فسنبتع أثر الطريق » •

وكانا يتكلمان فى همس خافت كأن الليل يسترق السمع •

وثلج قائلاً « قومى ! قومى » ولكنها ظلت تتساءل : « لماذا تريد
الجلوس فى المقدمة ؟ »

تمت قائلًا « لأننى أريد أن أشعر بك ممسكة بى » وجرها من مكانها لتقوم

ويظهر أنها رضيت بهذه الاجابة ! وانها خضعت لما فى صوته من قوة وانحنى يبحث فى الظلام عن الطريق الذى شقه المنزلقون وتركوا أثره على الثلج وثبتت قوائم الزلاقة عليه فى عناية وانتظرت الى أن جلس فى المقدمة وانزوت هى خلفه ولفت ذراعيها حوله وشعر بأنفاسها فى رقبتة فارتعدت ثانية وكاد يقوم من مقعده ولكنه فى مثل البرق تذكر ما ينتظره : انها على حق فهذا خير من الفراق واستدار وجذب فمها الى فمه ..

وحين ابتدأ السير سمع صهيل الجواد مرة ثانية وتذكر النداء المعروف والصور المبهمة التى أثارها وقد انحدرت كل هذه الذكريات معه فى المرحلة الاولى من الانحدار وكان فى وسط الطريق منحدر شديد الانحدار ثم ارتفاع ثم انحدار طويل سريع كالأحلام وشعر حين بدأ هذا الانحدار كأنه يطير حقا ، يطير فى ليل تكتنفه السحب وتقع ستار كفيلد تحتها على مسافة لا تقاس وانه ليبعد كأنه ذرة فى الفضاء .. ثم ظهرت الشجرة الغليظة فجأة فوجد رءوسها تتربص لهما فى منحنى الطريق وقال وهو يصر على أسنانه : اننا نستطيع أن نقصدها ! انى أعرف اننا نستطيع أن نقصدها .. »

وفى طيرانهما نحو الشجرة اشتدت مائى فى قبضة ذراعيها حوله وكان دما هاسرت فى عروقه واهتزت الزلاقة مرة أو مرتين تحته ومال بحدّة كى يدفعها نحو الشجرة ، وهو يكرر مرة بعد مرة « أعرف اننا نستطيع أن نقصدها » واخترقت ذهنه بعض العبارات التى نطقت بها وظلت تتراقص أمامه فى الهواء وأخذت الشجرة تتبين لهما ويزداد حجمها أمام عينيها وهما يقتربان منها ودار فى خلدّه أنها فى انتظارهما وكأنها تعرف أمرهما ولكن تمثّل لعينيها فجأة وجه زوجته بغضونه القطيعة وقد ارتسم بينه وبين غايته . فأتى بحركة غريزية ليبعد هذا المنظر عنه وتأثرت الزلاقة بهذه الحركة فتحوّلت ، ولكنه عدل من سيرها وسار بها الى تلك الكتلة الضخمة السوداء البارزة ، وفى اللحظة الاخيرة كان الهواء يمر بهما كأنه ملايين من الاسلاك المحماة ثم كانت الشجرة ..

كانت السماء لا تزال مثقلة بالغيوم ولكنه فى نظرتة المصوبة نحوها رأى نجما واحدا وظل يفكر فى ابهام هل هو النجم

« سيروس » أو هو ماذا ؟ ولكن جهد هذا التفكير أتعبه فأغمض عينيه وفكر في أن ينام . . . وكان السكون شاملا بحيث سمع صوت حيوان صغير راقد تحت الثلوج وكان صوتا خافتا كأنه صوت فأر صغير، وفكر وهو متعب هل أصابه ضرر ثم فهم انه لابد أن يكون في ألم ، ألم شديد حتى لكانه انتقل اليه بطريقة غريبة وسرى في جسده . وحاول عبثا أن يزحف نحو هذا الصوت الصغير ومد ذراعه اليسرى فوق الثلج فاذا به يشعر بهذا النقيق الصغير أكثر مما يسمعه . وكان الصوت تحت راحة يده التي وقعت على شيء ناعم طرى . وكانت فكرة تألم الحيوان تزعجه ، وحاول أن يقوم من رقدته ولكنه لم يستطع وكان صخرأ أو كتلة ضخمة ترقد فوقه . ولكنه ظل يتحسس بأصابعه في حذر لعله يستطيع أن يجد هذا المخلوق الصغير ويعاونه ، ثم عرف فجأة أن هذا الشيء الناعم الذي لمسه هو شعر ماتى وأن يده على وجهها .

فزحف الى أن جنس على ركبتيه، وكان الثقل فوقه يتحرك بحركته ويده تمر على وجهها وشعر أن هذا الصوت الضعيف يخرج من بين شفتيها

واقترب وجهه منها وأذنه الى فمها ورأى عينيها تفتحان في الظلام وسمعها تهتف باسمه .

وتتممت متألما « لقد ظننت اننا بلغنا ما أردناه يامات » ثم سمع صهيل الجواد من بعد ودار في فكره أنه كان يجب عليه الآن أن يطعمه

سكن ذلك الصوت الشاكي حين دخلت من باب ايتان فروم ولم أستطع أن أعرف من من المراتين كان يتكلم .

وقامت احدهما من مقعدها حين رأته وكانت امرأة فارعة القامة بادية العظام - لالترحاب بي فهي لم تلق على غير نظرة قصيرة تدل على الدهشة - ولكن لتأخذ في اعداد الطعام الذي تأخر تناوله لغياب فروم . وكانت ترمى على كتفيها دثارا قديما من الشيت وقد جمعت شعرها القليل الابيض من جوانب جبهتها وعقصته خلف رأسها بمشط مكسور . وكانت لها عينان باهتان غير شفافتين لا تنمان عن شيء ولا تتركان شيئا وكانت شفاتها في مثل لون بشرتها باهتين شاحبتين .

أما المرأة الأخرى فأكثر شحوبا ونحولا وكانت جالسة في غير نظام على مقعد كبير الى جانب الموقد وعندما دخلت ادارت رأسها نحوى في حركة سريعة دون أن تقابلها حركة من جسدها ، وكان شعرها قد شاب كشعر زميلتها ووجهها تقلص وذهب لونه كزميلتها ولكنه كان فى لون الكهرمان وفيه أغوار جعلت الانف أكثر بروزا وزادت فى عمق الخدين وكان جسدها تحت ثوبها الذى لا شكل له ثابتا لا يتحرك وعيناها السوداوان فيهما تلك النظرة الثابتة التى هى أشبه بنظرات الساحرات ، وهى اعراض الإصابة فى السلسلة الفقرية .

وكان المطبخ حتى فى ذلك الجانب من البلاد بادی الفاقة ، فالاساس من أخشن الانواع ، فيما عدا المقعد الذى تجلس عليه المرأة ذات العينين السوداوين ، وهو بقية من أثاث غرف الترف وابتيع من أحد المزادات . وكانت هنالك ثلاثة أطباق من الصينى الحشن ، وabric للبن كسر فمه ، موضوع على مائدة عليها آثار السكين . ويوجد به كرسيان قاعدتهما من قش ، ومنضدة طويلة للمطبخ من الخشب غير المدهون أسندت الى الحائط المطلى بالجير .

قال فروم بلهجة تدل على الاعتذار ، وهو يتبعنى فى دخولى الى المطبخ : « ربه ! ما أشد البردهنا ! لا بد أن النار قد انطفأت » ولم تهتم المرأة الطويلة التى قامت نحو المنضدة بقوله ، ولكن الأخرى أجابة شاكية فى صوت عال رفيع ، وهى جالسة فى مقعدها من حولها المساند : « ان النار لم تشعل الا فى هذه اللحظة ، فقد أخذ زينه النعاس ، وطال نومها ، وشعرت أن أعضائي تكاد تتجمد من البرد قبل أن أقدم على ايقاظها وأرجوها العناية بالنار » .

فعرفت أنها هى التى كانت تتكلم حين دخولنا . أما زميلتها فقد عادت الى المائدة تحمل بقايا فطير بارد محشو باللحم فى صحن قديم معوج من صحنون الفطير . ووضعت حملها الذى لا تستجيب له الشهية وكأنها لم تسمع اتهام الأخرى لها .

ووقف فروم مترددا أمامها وهى تتقدم ثم نظر الى وقال « هذه هى زوجتى السيدة فروم » وبعد فترة تحول الى الجالسة فى المقعد الكبير وقال « وهذه هى الأنسة ماتى سلفر »

تصورت السيدة هايل فى رقة قلبها أنى هالكت فى طريق المنبسطات ودفنت تحت زوبعة من الثلوج ، وكان سرورها

كبيرا عندما رددت اليها في الصباح التالى وشعرت انى ارتفعت وزدت مقاما فى عينيها لما تعرضت له من أخطار وكانت دهشتها ودهشة السيدة فارنوم العجوز شديدة حين علمت أن جواد ايتان فروم القديم حملنى الى وصلة كوربرى وعاد بى منها فى أسوأ عاصفة ثلجية فى ذاك الشتاء وكانت دهشتها أكبر عندما علما أن صاحبه آوانى ليلة فى داره .

وشعرت أن فى طيات دهشتها تطلعا خفيا لمعرفة آرائى فيما شاهدته فى الليلة التى قضيتها فى دار فروم وخيل الى أن خير طريقة للتغلب على تحفظهما لى أن ادعهما تحاولان التغلب على تحفظى ، ولذلك اقتصرت على القول فى نعمة واقعية انى قوبلت مقابلة كريمة وقد دبر فروم لى فراشا فى غرفة أرضية كانت على الغالب فى أيام سعيدة أخرى غرفة للكتابة أو للدرس قالت مسز هايل فى تفكير «أظن أنه فى مثل هذه العاصفة لا يستطيع الا أن يؤويك فى داره ولكنى أظن مع ذلك أنه كان عزيزا على مستر فروم أن يفعل هذا وانى لا أعتقد انك الاجنبى الوحيد الذى وطأ أرض داره منذ أكثر من عشرين سنة ، فهو معتز بنفسه ، ولذلك لا يحب أن يذهب أقدم الاصدقاء الى تلك الدار ولا أعرف أن أحدا منهم يذهب اليها غيرى وغير الطبيب ..»

فجرؤت على السؤال « هل تذهبن حتى الآن يامسز هايل ؟ » قالت « كنت أذهب كثيرا بعد الحادث على أثر زواجى ولكن خيل الى أنهم يشعرون بالحرج لرؤيتنا ثم توالى ظروف الايام وشغلتنى الشواغل .. ولكنى أزورهم عادة قبيل رأس السنة الجديدة ومرة أخرى فى الصيف ، غير انى أحاول أن أختار يوما يكون فيه ايتان بعيدا عن الدار فان منظر المرأتين فى جلوسهما فى الدار لما تنقبض له النفس . وأكاد أصعق حين أرى وجهه وهو ينظر فى أركان داره العارية .. فلقد عرفت هذه الدار واذكرها أيام أمه قبل أن تحل بهما الارزاء »

وكانت السيدة فارنوم قد أوت الى فراشها ولبشت وابنتها جالسين بعد العشاء على انفراد فى غرفة الضيوف ، ونظرت الى السيدة هايل فى تطلع لتعرف الى أى مدى يمكن أن أفضى لها بشئ وعرفت انها اذا كانت قد اعتصمت بالسكوت الى الآن فذلك لانها كانت تنتظر على مر السنين شخصا يكون قد رأى ماراته . وانتظرت حتى تزداد ثقته بى رسوخا قبل أن أقول « حقا ان منظر الثلاثة معا أليم الوقع على النفوس ! »

وتقطب حاجباها الرقيقان دليلا على الالم وقالت « ان الامر كان فظيحا منذ البداية فلقد كنت هناك عندما حملا ووضعت ماتى سيلفر فى الحجرة التى اقممت فيها، وقد كنت أنا وهى صديقتين وكان من المنظور أن تكون احدى رفيقاتى من الفتيات فى حفلة زفافى فى الربيع . . ولما تحسنت حالتها ذهب الىها وبقيت معها طول الليل وكانوا ينجدونهما بالادوية لتهدئتهما . ولم تكن تدري من أمرها الا قليلا الى قبيل الصبح ، ثم رأيتها فجأة تسترد جميع حواسها وتنظر بعينيها الواسعتين وتقول . . « لا أدري لماذا أروى لك هذا الحديث كله؟ » وانقطعت مسز هايل عن الكلام وهى تبكى . ثم رفعت المنظار عن عينها ومسحته من الدموع ووضعتها فى مكانه بيد ترتعش تأثرا، وأتمت حديثها قائلة « أشيع فى اليوم التالى أن زينه فروم أرسلت ماتى على عجل لأنها أتت بفتاة أجيرة ولكن لم يستطع أحد أن يفسر السبب فى أنها كانت تمارس الانزلاق على الثلج مع ايتان فروم مع انه كان من الواجب أن يكونا فى طريقهما الى المنبسطات للحاق بالقطار . . ولم أعرف أنا مطلقا رأى زينه فى هذا ، حتى اليوم ولا أحد يعرف آراءها . . على كل حال حين سمعت هى بالحادث جاءت الى دار قس القرية . . وقد حمل ايتان اليها ، وحين قال الطبيب ان ماتى يمكن نقلها أرسلت زينه فى طلبها . فنقلت الى المزرعة »

سألت : « وظلت هنالك طول الوقت ؟ »

فأجابت مسز هايل فى بسالة « لم يكن هنالك مكان آخر تذهب اليه » وانقبض صدرى حين فكرت فيما يضطر اليه الفقراء اضطرارا !

واستمرت مسز هايل تقول « نعم ! لقد ظلت هنالك تقوم زينه بخدمتها وخدمة ايتان بقدر ما تستطيع ، وانه لمعجزة ما تقوم به اذا نظرنا الى شدة مرضها وكان المرض قد زال عنها عندما جاءها هذا الواجب . وليس ذلك لعدم حاجتها الى الطبيب فماتزال تتنابها نوبات المرض ولكنها وهبت القوة على العناية بالانثين طوال عشرين سنة وكانت تظن قبل الحادث أنها لا تستطيع العناية بنفسها ! »

وتوقفت مسز هايل لحظة عن الحديث ورحت أفكر فيما أوجت الى به كلماتها ثم تمت « ما أقطع حظهم جميعا ! » وقالت « نعم ! انه لأمر سيء ، ولا سيما انهم جميعا ليسوا على شئ من سهوله الطباع فقد كانت ماتى سيلفر لينة الطبع قبل

الحادث ولم أعرف فتاة أرق منها ولكنها تعذبت كثيرا - وهذا ما أقوله للناس عندما يتحدثون الى عن شدة تبرمها ، أما زينه فكانت دائمة ضجرة وعنفية ولا أعنى أنها شديدة القسوة على ماتى فهي تتحملها بما يثير الإعجاب ، على أن الاثنتين كثيراماتتخاصمان فيكون وجه ايتان عندئذ فى حالة يرئى لها الناظر . . . وعندما أراه فى هذا الموقف أشعر أنه أكثر الثلاثة ألما . . . على كل حال ليست زينه أشدهم تألما اذ ليس لديها الوقت لذلك . . . وأنهت مسز هايل حديثها قائلة : «مما يؤسف له مع ذلك أن الثلاثة لا يجدون مكانا غير المطهى الذى يقيمون فيه وفى شهور الصيف فى الايام الصاحية منه يأخذون ماتى الى غرفة الضيوف أو الى فناء الدار فتكون الحياة أسهل لديهم ، أما فى الشتاء فلا بد من مجاورة النار وليس لدى آل فروم من المال ما يمكنهم من أن ينعموا بأكثر من موقد واحد »

وتنهدت مسز هايل تنهدا عميقا كأنها استراحت الآن من عبء ما حملته من ذكريات ولم يبق لديها ماتقوله ثم أخذتها فجأة نوبة من الاعتراف الكامل

فخلعت منظارها مرة ثانية وانحنى نحوى على المائدة المغطاة بغطاء من خرز منضد ، وقالت فى صوت خفيض « ذات يوم بعد الحادث بأسبوع اعتقد الناس أن ماتى سيلفر لا يمكن أن تعيش فقلت على كل حال ان حياتها ممالا يغتبط له . . . وقلت ذلك لقس القرية ، فتضايق من قولى ولكنه لم يكن معى فى ذلك الصباح الذى عادت فيه الى نفسها . . . وانى لا أعتقد انها لو ماتت لكان ايتان اقرب للحياة منه الآن ، ففى أسلوب حياتهم الحاضر لا أرى فرقا بين آل فروم الساكنين فى أعلى المنحدر فى المزرعة ، وآل فروم الساكنين أسفل المنحدر فى القبور ، الا أن هؤلاء الاخيرين هادئون !! »

انتهت

غرام عانس

بمقام

ادیت لوارتون

ترجمہ

لامی فاضل عبد السید

غرام عانس

الجزء الاول

- ١ -

فى نيويورك القديمة ، حوالى منتصف القرن الماضى ، كانت أسر قليلة تسيطر على المجتمع فى بساطة ورخاء وكانت أسرة رولستون احدى هذه الاسر

فالانجليز الصلاب العود ، وأهل هولندا الحمر الوجوه الثقال الاجسام ، امتزجوا وأوجدوا مجتمعا ثريا وحذرا وسخى اليد معا . وكانت أبهة المظهر والتأنق فى كل شىء مبدءا أساسيا يسير على هديه أفراد هذا المجتمع الحذر المؤلف من أصحاب المصارف الاثرياء ومن تجار جمعوا ثرواتهم من الهند ، وأصحاب مصانع السفن ، ومتعهدى تزويد السفن بأدوات الملاحة . . فأولئك القوم الشباع الثقال الذين يبدوون فى عيون سكان أوربا عصبين مصابين بسوء الهضم ، لا لشيء الا لان تقلبات الطقس جردت جسامهم من اللحم الزائد ، وشدت أعصابهم أكثر من المعتاد قليلا ، عاشوا حياة على وتيرة واحدة ، كتلك التى يحياها أهل الطبقة العليا ، وما تأثر مظهرها الخارجى قط بما كان يعتمل فى داخلها من حين لآخر من المآسى الحرساء . . لقد كانت النفوس الحساسة فى تلك الايام ، مثل مفاتيح البيانوالذى خفت نغمات الصوت فيه ، يلعب القدر عليها دون ما صوت

فى هذا المجتمع المحكم البنيان شغلت أسرة رولستون وفروعها جزءا من أكبر أجزائه . . وقد انحدرت تلك الاسرة من سلالة انجليزية من الطبقة الوسطى لم ترحل الى المستعمرات كى تموت فى سبيل عقيدة بل لتعمل وتنشئ حسابا بالمصارف أما النتيجة فكانت أكثر مما أملوا وقد أثرنجاحهم فى عقيدتهم الدينية، فكنيسة انجلترا المصفاة من الشوائب التى اتخذت لنفسها اسما وسطا فى البلاد الجديدة وهو «الكنيسة الرسولية للولايات المتحدة الامريكية» قد تنازلت عن العبارات الحشنة فى قداس الزواج، ومرت مر الكرام على الفقرات التأكيدية فى المذهب «الاتناسى» فظنت أنه مما يدعو الى الاحترام القول بأن «أبانا الذى فى السموات»

بدلاً من « أبانا من في ... » وكان هذا الاتجاه يلائم تماماً روح الوفاق التي كانت جزءاً من كيان أسرة رولستون ... لقد شمل السلالة كلها ذلك التردد الغريزي إزاء المذهب الجديدة وهو نفس ما يشعرون به إزاء الغرباء من الناس وكانوا يؤمنون بالنظام القائم فهم يمثلون العنصر المحافظ الذي يربط المجتمعات الجديدة بعضها ببعض كما تربط الحشائش البحرية ما بين البحر وشاطئه

وإذا قارنا أسرة رولستون بغيرها من الأسر المتمسكة بالتقاليد مثل آل لوفيل أو هاسي أو فاندريغز ، بدت هذه الأسر كلها عديمة الاهتمام بأمور المال ويكاد لا يوجد لها ضابط في اندفاعاتها وتردداتها . ولقد أدرك هذا الفرق جون فردريك رولستون الشيخ وهو المؤسس القوي لهذه السلالة وأبرز هذا الفرق في حديثه لابنه فردريك جون عندما أحس بأن به ميلاً طفيفاً لصحبة الكسالى والمتواكلين

قال له « يجدر بك أن تترك أسر لاننج وداجونت وسيندر لمراعاتهم ومبازلتهم فإن الدم الذي يجري في عروقهم هو دم عائلات الريف الغنية وما لنا شأن بهذا ... أنظر كيف بدأت ريحهم تذهب أقصد الرجال منهم ... دع أولادك يتزوجون من بناتهم إذا أردت (انهن ممتلئات صحة وأنيقات) وإن كنت أفضل أن أرى أحفادي يتزوجون من أسرة لوفيل أو فاندريغز أو من أى أسرة أخرى على شاكلتنا ولكن إياك أن تسمح لأولادك بأن يذرعو الأرض مع أولادهم دون عمل نافع يقومون به ، ولا أن يذهبوا معهم إلى سباق الخيل أو يتجهوا جنوباً إلى أماكن الاستشفاء اللعينة أو يذهبوا للمقامرة في نيو أورليان وغيرها من الأماكن ... بهذا تقيم صرح الأسرة وتبعد عنها المتاعب وهو عين ما فعلناه دائماً ... »

استمع فردريك جون لكلام أبيه وأطاعه فتزوج فتاة من أسرة هاسي وسار هادئاً في نفس الطريق الذي سار فيه أبوه ... لقد كان من الجيل الحريص الذي ينتمي إلى خاصته أهل نيويورك أولئك الذين بجلوا هاملتون وخدموا جفرسون والذين تشوقوا إلى بناء نيويورك على صورة واشنطن فجعلوا منها ساحة مخططة كساحات لعب الكرة لكيلا يقال عنهم انهم غير ديمقراطيين من قوم يشعرون هم نحوهم باحتقار خفى ... ولأنهم تجار بالسليقة فقد وضعوا في نوافذ متاجرهم من البضائع ما كان الطلب عليه

شديدا . بينما احتفظوا بالانواع المفضلة لديهم في داخل محالهم
حيث ذوت وحال لونها تدريجيا لعدم استعمالها . .

لم يبق للجيل الرابع من أسرة رولستون شي من قبيل المعتقدات
غير شعور قوى بالشرف في مجال الاعمال والامور الخاصة . .
لقد استمدوا آراءهم عن المجتمع والدولة من الصحف اليومية
التي كانوا يشعرون نحوها بالاحتقار ولم تقم أسرة رولستون
بالكثير كي تؤثر في مصير الامة الا ما كانوا يبذلونه من مال للمعاونة
مذهبهم السياسى والدينى عندما لم يكن في مثل هذا العمل ثمة
خطر . . لقد كانوا على صلة بنسب بكثير من عظماء الرجال الذين
اقاموا صرح الجمهورية ، بيد انه ما من فرد من أسرة رولستون
حاول الوصول حتى الآن الى مستوى العظماء . . وعلى حد قول
جون فردريك الشيخ انه من الاصول ان يقنع المرء بفائدة
مقدارها ثلاثة في المائة فقط ، اذ انهم كانوا يعتبرون البطولة نوعا من
المقامرة . . . ومع ذلك فقد تهيأ لهم بسبب كثرتهم وتشابههم
مكان مهم في المجتمع . . ويقول الناس «هكذا فعل آل رولستون»
عندما يريدون ان يستشهدوا بالسوابق ، وقد أقنعت هذه
السلطة الجيل الثالث بأهميته في مجموعه شيئا فشيئا ، بينما
امتاز الجيل الرابع الذي كان مهزوج ديليا رولستون بسهولة
وبساطته وهما طابع الطبقات الحاكمة .

وفي حدود ما امتازوا به من الوعي العام قام أفراد أسرة
رولستون بما تعهدوا به من التزامات بوصفهم مواطنين أغنياء
محترمين . فكانت أسماءهم تظهر في قوائم المشروعات الخيرية
ذات التاريخ القديم كما منحوا المؤسسات الناجحة هبات سخية
وكان لديهم أحسن الطهارة في نيويورك وعندما سافروا الى
الخارج كانوا يطلبون من المثاليين الأمريكيين في روما من أصحاب
الشهرة الوطيدة أن يصنعوا لهم تماثيل وقد اعتبروا اول فرد
منهم احضر لنفسه تمثالا شخصا غير متمدين ولكن عند ما ذاع
ان التمثال قام بتمثيل عدة طلبات لافراد الهيئة الاجتماعية
الانجليزية الراقية ساد الاسرة شعور بأن هذا العمل أيضا ماهو
الا مسألة استثمار بفائدة ثلاثة في المائة . . .

زيجتان مع أسرة فاندركريفرز الهولندي قد أدتا الى دعم صفات

الحرص والاسلوب الانيق في الحياة التي امتازت بها أسرة رولستون ، واصبحت الشخصية التي تميزت بها هذه الأسرة وكونتها بكل دقة وعناية أصيلة فيهم الى حد أن ديليا رولستون كانت في بعض الاحيان تسأل نفسها هل لو أطلقت العنان لوحدها في منطقة من مجاهل الارض غير المسكونة أفليس من المؤكد أنه ينشئ نيويورك صغيرة هناك وينصب نفسه عضوا في كل مجالس الادارة بها

تزوجت ديليا لوفيل من جيمس رولستون في سن العشرين . والزواج الذي حدث في شهر سبتمبر من عام ١٨٤٠ احتفل به حسب العادة التي كانت سائدة حينئذ في قاعة الاستقبال بالبيت الريفى للعروس في المكان الذي يقع الآن عند نقطة تلاقي الشارع الاول والشارع الواحد والتسعين الذي يطل على الخليج الصغير . ومن هناك أخذها زوجها في عربة صفراء اللون تملكها الجدة لوفيل مقعدها الامامي مكسو بقماش ذي حواش مدلاة، وجاس معها خلال الضواحي البعيدة والشوارع غير النظيفة التي تظللها أشجار الدردار ، وأخذها الى دار من الدور الحديثة في جرامرسى بارك التي كانت الطلائع الاولى للشبان قد بدأت تقيمها . وهناك وفي سن الخامسة والعشرين صارت اما لطفلين وماكة لدخل طيب يمنح لها للصراف على ملابسها وأغراضها الشخصية وبالإضافة الى ذلك كانت باجماع الآراء واحدة من أكثر نساء عصرها أناقة ومن أحبهن الى القلوب ...

كانت تفكر في هدوء ورضى في تلك الاشياء وهي تجلس ذات مساء في مخدعها الانيق في جرامرسى بارك ...

كان قربها الشديد من أسرة رولستون يحول دون أن يكون لها رأى واضح عنهم شبيه بالرأى الذي يكن أن يكون لابن من أبنائهم . . . لقد عاشت في رحابهم دون تفكير كما يعيش الانسان في ظل قوانين بلاده . . ومع ذلك فان تلك الذبذبة الخافتة كأنها صادرة عن مفاتيح البيانوا الخفيض الصوت ، وتلك الاسئلة الحفية التي تضطرب في نفسها في بعض الاحيان كما تضطرب الاجنحة . . كانت تقيم من حين لآخر حاجزا يفصلها عنهم بحيث تستطيع للحظة عابرة أن تتأملهم من خلال الوشائج الكثيرة التي تصلهم

بأشياء أخرى .. لقد كانت اللحظة على الدوام عابرة وسرعان ما ارتدت عنها حسيرة النفس لاهثة فتيمة وجهها شطراً ولادها وشئون بيتها وملابسها الجديدة، ذبحها الرقيق « جيم » ..
لقد فكرت فيه اليوم بابتسامة كلها عطف وهي تذكر قوله لها بالأ تبخل بالمال في شراء قبعته الجديدة ، وهي وإن كانت في الخامسة والعشرين من عمرها وأصبحت أما مرتين فإن وجهها لا يزال جميلاً ناضراً على صورة تدعو إلى الدهشة .. لقد كان امتلاء الجسم في ذلك الوقت من علامات الجمال في زوجة شابة ولقد غطت صدرها بقطعة من الحرير الرمادي اللون . وجعلت سلسلة ساعته الذهبية الثقيلة تتدلى على صورة غير مأمونة في الفراغ الواقع في أعلى خصر دقيق مشدود إلى حزام من المخمل ولكن الكتفين استدارتا في فتنة تحت شالها الكشمير وكانت تتحرك في خفة الفتاة ..

أخذت السيدة جيم رولستون تفحص راضية زينة القبعة التي لم تقتصد في ثمنها اطاعة لأم وزوجها . وكانت قبعة خفيفة مصنوعة من مخمل أبيض محوطة بأشرطة حريرية عريضة ومثبتة فيها ريشة بلورية تخطف البصر .. قبعة زفاف جديدة لتلبسها في زفاف ابنة عمها شارلوت لوفيل الذي كان من المقرر حدوثه في ذلك الأسبوع في كنيسة « القديس مرقس بيوري » وكانت شارلوت على وشك أن تتزوج زوجاً شبيهاً تماماً بزواجها إذ تزف إلى أحد أفراد عائلة رولستون من فرع ويفرلي بليس وما من زواج يفوق هذا سلامة وصحة أو يفوقه من حيث أنه شائع الحدوث مألوف في العائلتين .. لم تكن ديليا لتدري السبب في أن كلمة مألوف قد قفزت إلى رأسها ، فقلما تزوجت إحدى بنات أسرته من أفراد أسرة رولستون في العادة ، بيد أن هذا الزواج كان أنموذجاً صالحاً لما تتمناه لنفسها أي فتاة جميلة من وسط راق .

ثم ماذا يكون بعد ذلك ؟

وما الذي يعنيه هذا السؤال الجديد ؟ بعد ذلك هناك طبعاً التسليم الخائق المحير للطلبات الملحة المفهومة من الشاب الذي تمنحه الفتاة خذاً وردياً في مقابل خاتم الزواج ، وهناك السرير الكبير العريض والرعب المنبعث من رؤية الزوج يحلق ذنبه صباح اليوم التالي في غرفة الملابس وهو في جلباب النوم ، ثم هناك التهرب والتلميح والابتسامات المغتصبة والآيات المأخوذة من الانجيل المهدى من « ماما » ، وهناك ما يذكر بالفقرة

التي تشير الى طاعة الزوجة لزوجها وقد جاءت اليها من خلال ضباب قداس الزواج على قدر ما به من تألق ... ثم أسبوع أو شهر من الحزن الغامر ، والارتباك والمتعة المخطوفة ثم ينشأ التعود وينمو وتكون الاستقامة الدائمة التي تقود الى التسليم للأمور حين تحدث في ترتيبها الطبيعي ، ثم الغفوة التي تخلو من الاحلام في الفراش الكبير الابيض ، ثم مناقشة المطالب اليومية التي تبدأ عادة في الصباح الباكر والاستشارات التي تأخذ طريقها من خلال باب غرفة الملابس ذلك الباب الذي خيل اليها ذات مرة أنه يغلق على بؤرة مشبوبة تكون أذى في عين الفضيلة .. ثم بعد ذلك الاطفال . الاطفال .. وقد يخيل للمرء أنهم تعويض عن كل شيء - وليسوا كذلك - وان كانوا قرة العين ، وليس لدى المرء فكرة محدودة عن ذلك الشيء الذي ضاع ، وهم يقومون بتعويضه !

أجل ان مصير شارلوت سيكون كمصيرها تماما فجو رولستون مثل ابن عمه الثاني جيم (وهو جيمس زوج ديليا) ولذا لم تر ديليا سببا في أن الحياة في المنزل الصغير المشيد بالطوب في ويفرلي بليس لا تشبه تماما الحياة في المنزل الكبير المبني بالحجارة السمراء في جرامرسي بارك .. كل ما هنالك أن غرفة نوم شارلوت لن تكون قطعا في جمال غرفتها ..

رمت ببصرها وقد غمر نفسها الرضى الى ورق الحائط الوارد من فرنسا والذي يصور خيوطا من الحرير المموج ذي الحافة المزركشة ، وكان السرير المصنوع من خشب الماهوجني والمغطى بملاءة بيضاء مشغولة ينعكس في تناسق على مرآة خزانة ملابس متسقة معه في اللون ، كما تدلت نسخة ملونة من صورة «الفصول الاربعة» من رسم ليوبولد روبرت فوق جماعات من أفراد العائلة مصورة بالطريقة القديمة وموضوعة في اطارات محفورة ومطلية بطبقة من الذهب ، وهنالك ساعة الحائط من معدن البرنز المطلي بماء الذهب وهي تمثل فتاة ترعى الغنم تجلس على جذع شجرة ملقى على الارض وعند قدميها سلة من الازهار ومن خلفها راع قد فاجأها بقبلة بينما أخذ قلبها الصغير ينبج عليه وسط كومة من الورود .. كانت هذه الساعة ذات الهيئة البعيدة عن الاحتشام هدية قدمت لديليا من عمتها السيدة مانسون منجوت بمناسبة زواجها ، وهي أرملة متحررة عاشت في باريس ودعيت الى قصر التويلري .. لقد عهدت السيدة منجوت بهذه الساعة الى

كلمنت سبندر الشاب أثناء عودته من إيطاليا في أجازة قصيرة عقب زواج ديليا مباشرة ، ذلك الزواج الذي ما كان ليحدث قط لو كان في مقدور كليم سبندر أن يعول زوجة ، أو لو أنه وافق على أن يهجر التصوير وروما ويستبدل بهما نيويورك والقانون . . لقد أكد هذا الشاب (الذي بدا شاذاً أجنبى المظهر ساخراً بكل ما حوله) للعروس وهو مستغرق فى الضحك أن هدية عمته كانت « أحدث شئ فى حوانيت باليه رويال » وكان أفراد الأسرة يعجبون بذوق السيدة مانسون منجوت وان أخذوا عليها « أجنبيتها » ولكنهم انتقدوا ديليا لوضعها الساعة فى مخدعها بدلا من عرضها فوق رف المدفأة بغرفة الجلوس . . . بيد أنها كانت تحب عندما تستيقظ من النوم فى الصباح أن ترى الراعى الجسور وهو يسترق قبلته . .

ما كانت شارلوت لتستطيع وضع مثل هذه الساعة الجميلة فى مخدعها فانها حتى ذلك الوقت لم يكن لديها الكثير من تلك الاشياء الجميلة وأبوها الذى توفى فى الثلاثين من عمره بحمى الرئتين كان واحدا من فقراء أسرة «لوفيل» بينما أرملته وقد ثقل عليها حمل العائلة الصغيرة اضطرت للمقام طول السنة عند أعلى النهر فلا تستطيع والحالة هذه أن تفعل الكثير لابنتها الكبرى ، ولذا فقد دخلت شارلوت الى المجتمع فى ملابس أمها القديمة وفى قدميها حذاء خفيف من الحرير ورثته عن عمة متوفاة كانت قد رقصت به مع القائد واشنطن . . وكانت قطع الاثاث ذات الطراز للقديم لدى أسرة رولستون تبدو فخمة فى عيني شاروت ، ومن انراجع أنها تعتبر ساعة دايلا الفرنسية الصنع شيئا خارجا قليلا أو حتى غير لائق تماما . . أن شارلوت مسكينة قد أصبحت متمسكة بأهداب الفضيلة ومغرقة فى التحشم منذ أن هجرت الحفلات الراقصة وعكفت على الاهتمام بأمر المحتاجين ! لقد لحظت ديليا فى دهشة ذلك التغير المفاجئ الذى شملها وتذكرت أن أفراد الأسرة كانوا مجمعين على أن شارلوت توشك أن تصبح عانساً فلما خرجت الى المجتمع تغير رأيهم فيها ، فهى وان كانت أمها عاجزة عن أن تهبها أكثر من ثوب حريرى واحد وان كان كل شئ فى مظهرها تقريبا يدعو الى الاشفاق ابتداء من شعرها الاحمر الفاقع حتى عينيها العسليتين الباهتتين الا أن هذه العيوب قد خفف منها خصر نحيل وقدم رشيقة وضحكة مرحة . . وعندما يصفف شعرها ويدهن جيدا استعدادا لحفلة مسائية يبدو بنى اللون وينسدل فى رقعة على خديها

الاثيلين تحت اكليل من زهور الكاميليا الحمراء والبيضاء ، فاذا
 رآها بضعة من الشبان الصالحين للزواج قالوا عنها أنها جميلة .
 ثم جاءها المرض . . . لقد أصابها البرد أثناء نزهة انزلاق في
 ضوء القمر فأخذت الدوائر الحمراء تزداد عمقا وبدأت تسعل
 وخرجت الاشاعة تقول انها «تسير في الطريق الذي سار فيه أبوها»
 وحملت الى قرية بعيدة في ولاية جورجيا حيث عاشت وحيدة لمدة
 عام مع مربية عجوز وعندما عادت شعر كل واحد في الحال أنها
 تغيرت فقد كانت ممقعة اللون زادت نحولها أكثر من أي وقت
 مضى ، ولكن خدها أصبح شفافا شائقا ، وكثر اللون الاسود في
 عينيها ، وزاد شعرها احمرارا . ومما زاد في طرافة مظهرها ارتداؤها
 للملابس البسيطة الفضفاضة . . . لقد هجرت حليها وزهدت في
 استعمال السلاسل الذهبية ، وارتدت دائما نفس الرداء الرمادي
 وقلنسوة صغيرة لاصقة بشعرها وظهر عليها حماس مفاجئ لزيارة
 المحتاجين . . . وفسرت العائلة هذا المسلك منها بأنه أثناء العام الذي
 أمضته في الجنوب صدمتها رؤية مناظر الفاقة الشديدة والتدهور
 الاجتماعي للفقراء من البيض المساكين واطفالهم وقيل ان رؤيتها لمظاهر
 التعاسة هذه جعلت من المستحيل عليها أن تعود الى حياة الترف
 وخلق البال التي اعتادها الشباب من أصدقائها . . . وما من أحد
 الا رأى هذا الرأي وكان رأيه واضحا في نظراته ، الا أن الجميع
 قرروا أن هذه الحالة العقلية الشاذة لا بد أن تزول في الوقت
 المناسب . وحدث في الوقت ذاته أن جدتها السيدة لوفيل العجوز
 - وقد فهمت ما بها بطريقة أفضل من طريقة الآخرين - قد وهبتها
 بعض المال لتنفقه على فقرائها ، وأعارتها غرفة في حظائر الخيول
 الخاصة بأسرة لوفيل ، فجمعت شارلوت حولها بعض أطفال الحي
 الفقراء ، ومن بينهم تلك الطفلة الصغيرة التي أثار نسبها اهتماما
 عميقا لدى الناس قبل ذلك الوقت بعامين أو ثلاثة ، حين أحضرتها
 سيدة محجبة ذات ثوب أنيق الى المسكن الحقيق الذي يسكنه
 سيروس واشنطن ، وهو الخادم الزنجي الذي تعمل زوجته باسمين
 غسالة في منزل الدكتور لانسكل . . . ومن المحتمل أن الدكتور
 لانسكل أشهر أطباء عصره كان مطلعا على التاريخ السرى لكل
 أسرة ابتداء من حي باتاري حتى يونيون سكوير بيد أنه بالرغم
 من محاصرة مرضاه له وتوجيه وابل من الاسئلة اليه فانه كان
 يصرح على الدوام بأنه لا يستطيع أن يعرف حقيقة السيدة المحجبة
 أو يحذر مصدر الشيك ذي المائة دولار الذي وجد مثبتا في ثياب
 الطفل .

ولم يتكرر مجيء المائة دولار قط كما لم تعد السيدة الى الظهور أبدا ولكن الطفل عاش في صحة جيدة سعيدا في حياته مع أطفال يسمين وبمجرد ان استطاع الجبواخذ الى مدرسة الحضانة التي تديرها شاتي لوفيل حيث ظهر (كبقية الاطفال الفقراء في المدرسة) في ملابس صغيرة مأخوذة من أثوابها القديمة وجوارب شغلتها يداها التي لا تكف عن العمل .. ومع انهماك ديليا في شئون أطفالها هي ، فانها استطاعت أن تزور تلك المدرسة مرة أو مرتين وعادت من هنالك وهي تتمنى من صميم نفسها أن تجد غريزة الامومة عند شاتي لطريقها الطبيعي بالزواج .. لقد شعرت ابنة العم المتزوجة شعورا غامضا بأن حبها لأطفالها ماهو سوى عاطفة معتدلة الانفعال محدودة المجال اذا قورن بحب شاتي الشديد الجارف لأطفالها الهمل في حظائر خيول الجدة لوفيل .

بعد ذلك دهش الناس جميعا حين خطبت شارلوت لوفيل الى جو رولستون .. وشاع في نفس العام الذي عادت فيه الى المجتمع أن جو يعجبها .. كانت تجيد الرقص أما جو وكان فارغ العود خفيف الحركة فقد شاركها كثيرا من الرقصات الشعبية .. وقبل نهاية الشتاء تنبأ جميع ساسة الزواج بأن الموقف لا بد أن ينجلي عن شيء ما ولكن عندما حاصرت ديليا ابنة عمها بالاسئلة بدا من اجاباتها الغامضة واحمرار وجوها أن خطيبها قد عدل عن رأيه .. والآن ظهر جليا أن الذي كان بينهما لا بد أن يكون قصة غرام أعقبها ذلك العارض المثير « سوء تفاهم » وأخيرا أصبح كل شيء على ما يرام واستعدت أجراس كنيسة القديس مرقس كي تدق معلنة بدء أيام سعيدة في حياة شارلوت . وأخذت سيدات عائلة رولستون يرددن « سنرى عندما نضع طفلها الاول »

« شاتي » هكذا صاحت ديليا وهي تدفع كرسيها الى الوراء عندما رأت وجه ابنة عمها منعكسائي المرأة أمامها .

فوقفت شارلوت لوفيل عن السير عند باب الغرفة وهي تقول « اخبروني بوجودك هنا - لذا جئت اليك على عجل » فقالت ديليا : « اهلا آيتها العزيزة .. ما أجملك في هذا الثوب الحريري ! كنت دائما أقول ان الذي ينقصك هو الاثواب الغالية .. اني مرتاحة لتركك لبس الشيلان الكشميرية القائمة اللون . ثم رفعت ديليا يديها وأزاحت قبعتها البيضاء عن رأسها الفاحم اللامع وأخذت تهزها في لطف .

وقالت ضاحكة « آمل أن تعجبك ! لقد اشتريتها لمناسبة زواجك .. »

وقفت شارلوت لوفيل بلا حراك وكانت في ثوب أمهها الحريري وهو بلون الحمام البري وقد أضيفت اليه حديثا خطوط من الشرائط القانية اللون ، وعند الصد انفاة من الفراء وعلى الرأس قبعة جديدة من جلد كلب الماء ، وهكذا بدت عليها مسحة من العظمة والروعة خليقة بامرأة متزوجة .. ثم قالت ديليا وهي لا تنقطع عن التطلع اليها :

« ومع ذلك فإن شعرك يبدو أكثر سوادا الآن أيتها العزيزة »
فصاحت شاروت بصوتها العميق : « أكثر سودا !! إنه شيب »
وأزاحت عن وجهها بعض الشرائط المعطرة وكشفت عن عارضتها فظهرت خصلة بيضاء وقالت : « لا تقصرى فى استهلاك هذه القبعة منذ الآن فلن يكون هناك زواج .. » بينما أفتّر ثغرها عن ابتسامة كشفت عن أسنانها الصغيرة البيضاء اللامعة
وكان لدى « ديليا » من حضور الذهن ما جعلها تنحى القبعة جانبا حماية منها لريشها قبل أن ترقى على صدر ابنه عمها قائلة :
« لن يكون هناك زواج يا شارلوت ! هل وصل بك الجنون الى هذا الحد ؟ »

فقالت شارلوت :

« هل من الجنون أن أفعل ما أعتقده صوابا ؟ » وضحكت ديليا قائلة فى صوت متقطع : « ولكن الناس قالوا أنك كنت على وشك أن تتزوجيه فى العام الذى خرجت فيه الى المجتمع ، ولم يعرف أحد حقيقة ما حدث حينئذ .. والآن ليس فى وسعك أن تمتنعى عن الزواج .. »

قالت شارلوت لوفيل فى اعياء « مالى وللناس ! » ورمقتها ابنة عمها المتزوجة بنظرة واجفة .. وكان فى صوتها رجفة ماعهدتها ديليا فيه قبل الآن قط أو فى أى صوت بشرى آخر وكان أصداءه البعيدة قد أخذت تهزكيان عالمها المألوف هذا ، وكان السجاد يتأرجح تحت قدمي ديليا المرتعشتين .

ووقفت شارلوت لوفيل تحديق فى الفضاء أمامها وفى عينيها العسليتين المفتوحتين لاحظت ديليا النقط الخضراء التى تظهر فيهما عادة كلما استولى عليها الغضب أو تملكها الاضطراب !
ثم قالت وهي تجذبها الى جوارها على المقعد المستطيل :

« شارلوت خبريني بالله من أى مكان أنت قادمة الآن ؟ »

– « أى مكان تقصدين ؟ »

– « أجل يبدو عليك كأنك قد رأيت شبحا – بل جيشا من

الاشباح »

وداعبت شفيتها نفس الابتسامة القاسية وهى تقول « لقد رأيت

جو ... »

فصاحت ديليا وقد أشرق عليها نور فكرة جديدة : « لا تقولى بأنك

عرفت شيئا عن حياة جو الماضية ! حتى لو كان هناك شيء ... »

ثم زفرت بشدة واستمرت تقول فى شجاعة « حتى لو سمعت أنه

كان ... ان كان لديه طفل ... كان خليقا به أن يبرر لك

تصرفه ... »

فهزت الفتاة رأسها وقالت « أعرف ذلك ولا حاجة بك

للاستمرار فالرجال سيظلون دائما هكذا ولكن المسألة ليست

ما تظنين »

– « خبريني اذن ماهى ؟ »

أدارت شارلوت لوفيل بصرها فى الغرفة المشمسة الانيقة كما

لو كانت تمثل عالمها الذى تعيش فيه وكما لو كان ذلك العالم

سجنا عليها أن تفر منه ، ثم خفضت رأسها وهى تقول لاهثة :

« أريد – أن أهرب ... »

– « تهربين ؟ من جو ؟ »

– « من آرائه – آراء أسرة رولستون » .

فشمخت ديليا بأنفها ، فهى على اى حال من أسرة رولستون !

ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت « آراء أسرة رولستون ؟ – لم

أجدها سيئة الى الحد الذى يصبح معه العيش متعذرا ... »

– « كلا ولكن الامر جدمختلف ... لم يطلبوا منك ان تنزلى عن

أشياء خاصة ... »

– « أى أشياء تقصدين ؟ ماذا لدى شارلوت المسكينة من أشياء

يطلب اليها أن تنزل عنها ؟ لقد كانت دائما فى مقام الاخذ اكثر

مما كانت فى مقام العطاء ... »

وقالت لها فى الحاح « ألا يمكن أن تفصحى أكثر من هذا أيتها

العزيزة ؟ »

صاحت الفتاة فى همس كسير « أطفالى الفقراء – يقول ان على

أن أنزل عنهم ... »

– « تنزلين عنهم ؟ تكفين عن مساعدتهم ؟ »

« يريد منى أن أكف عن رؤيتهم وعن العناية بهم ! لقد أرسل الى أمه كي تخبرنى بذلك .. فبعد أن يكون لنا أطفال .. انه يخشى أن تصيب العدوى أطفالنا .. طبعاً سوف يهينى بعض النقود لكى أستخدم شخصاً يعنى بهم .. يظن ان هذه الطريقة لاثقة .. » ثم أخذت شارلوت تشهق بالبكاء وأزاحت القبعة عن رأسها وأخفت عينيها بالباكيتين فى الوسائد .

جلست ديليا وقد استولت عليها حيرة شديدة اذ من بين كل المضاعفات غير المتوقعة كان هذا بالتأكيد آخر شئ يمكن تخيله ، ولكنها مع ذلك لم تجد مفراً من الاعتراف بصواب فكرة جو بعد ما كسبته بالانتساب الى أسرة رولستون ، بل هى تقره على رأيه ، فما من فرد فى نيويورك الا يذكر وفاة وحيد « هنرى فان در ليدن » التعس وقد أصابته عدوى الجدري من السيرك بعد أن أخذته اليه مربية لا ضمير لها دون علم والديه . فبعد تحذير كهذا شعر الآباء أنهم على حق فى كل ما يتخذون من احتياطات ضد العدوى ، فان الفقراء من الناس على كثير من الجهل والاهمال فتعرض أطفالهم على الدوام للعدوى ، كلا لقد كان « جورولستون » قطعاً على حق وشارلوت على خطأ فاضح ، ولكنها لم تجد فائدة ترجى من وراء اخبارها بذلك الآن . فتمهلّت فى مصارحتها برأيها . وهمست فى أذن شارلوت تقول « ان الامر مرهون بولادتك أطفالاً - وقد لا تلدين - قبل مرور بعض الوقت .. »

قالت فى صوت حزين وهى تخفى وجهها فى الوسائد ...
« أجل سوف ألد ! »

فابتسمت ديليا ابتسامة العارف وقالت « فى الحقيقة يا شاتى لا أستطيع أن أدرك تماماً كيف تعرفين أنك سوف تلدين ..
انك لا تفهمين هذا .. »

رفعت شارلوت لوفيل نفسها عن المقعد وقد انحلت أربطة رقبتها المصنوعة من حرير بروكسل وتدلّت جوانبها بغير انتظام على النصف الأعلى من ثوبها المتكسر . ومن خلال شعرها المشعث التمتعت الخصلة البيضاء مما يبعث الانقباض الى النفس . وفى عينيها العسليتين سبحت النقط الخضراء الصغيرة كما تسبح أوراق الشجر فى بركة لصيد السمك .

قالت ديليا لنفسها « يا لها من مسكينة ! انها تبدو كبيرة السن قبيحة وهى أقرب الى منظر العانس الآن ويظهر أنها لا تدرك أبداً أن الفرصة لن تسنح لها مرة ثانية ! »

ثم قالت لها : « يجدر بك أن تكونى عاقلة يا عزيزتى شاتى •
على أى حال من واجب الفرد أن يعنى بأطفاله قبل أن يعنى بأطفال
الآخرين • »

قالت الفتاة وقد قبضت على يديها بقوة • • « تلك هى المسألة
• • كيف أستطيع أن أنزل عن طفلى ؟ »

— « طفلك • • طفلك ؟ » مرة ثانية بدأ عالم ديليا يهتز تحتها
وسألتها وهى تتذرع بالصبر « أى طفل من الاطفال الهمل المساكين
تعدينه طفلك ؟ »

نظرت « شارلوت » الى عينيها مباشرة وقالت « ان طفلى هو طفلى
حقا »

— « طفلك • • احذرى • • انك تؤذين يدي يا شاتى ! » وخلصت
ديليا نفسها وابتسمت ابتسامة مغتصبة وقالت « طفلك ؟ »
— « طففتى الصغيرة • • الطفلة التى تولتها ياسمين وسيروس »

وزفرت ديليا رولستون زفرة طويلة •
وجلست المراتان كل منهما فى مواجهة الاخرى دون كلمة •
ولكن ديليا أشاحت بوجهها جانبا • لقد شعرت بقشعريرة
الاشمئزاز تسرى فى بدنهما بينما تحدثتا نفسها بأن مثل هذه
الاشياء حتى لو لم يكن بد من قهائما كانت لتقال فى مخدعها
وبالقرب من مخدع الاطفال الطاهر على الجانب الآخر من الممر • •
وبحركة آلية أخذت تعدل من ثنيات ثوبها الحريري التى
أسقطها احتضان ابنة عمها لها وبعد ذلك نظرت مرة أخرى فى
عيني « شاتى » فتلاقت النظرات وهى تقول « أواه يا شاتى
المسكينة ! » ثم مدت ذراعيها لابنة عمها •



استمر الراعى يسترق قبلته من الراعية كما استمرت الساعة
فى الجذع الساقط تدق الثوانى

وجلس « ديليا » جامدة لا تشعر بمرور الوقت بينما تشبثت
بها ابنة عمها . . لقد عقد الرعب لسانها وأخذها العجب عندما
عرفت أن دمها يجرى فى عروق اللقيط المجهول « طفل المائة
دولار » الذى ظل وقتا طويلا هدفا لسخرية أهل نيويورك المكتومة
اوطنونهم الخفية . . كان هذا أول اتصال لها بالجانب الخفى فى
الهيئة الاجتماعية وأحست بالأسى لان مثل هذه الاشياء تحدث
وتقال فى دارها ولائها - هى ديليا رولستون - تسمعها
من شفتى الضحية ! اذ كانت شاتى طبعاً هى الضحية - ولكن
ضحية من ؟ انها لم تذكر أسماء ولم تستطع ديليا أن تسأل أى
سؤال : لقد ختم الرعب على فمها فما استطاعت كلاماً . . وفى
الحال كان فكرها قد ارتد الى الوراء منقبا فى ماضى « شاتى »
ولكنها لم تعثر فيه على رجل غير جورولستون وأن ربط « جو »
بالحدث أمر بعيد الاحتمال . . اذن هو شخص ما من الجنوب ؟
ولكن كلا فلقد كانت « شارلوت » مريضة عندما سافرت الى هنالك
. . وفى لحظة خاطفة فهمت ديليا حقيقة ذلك المرض وسر اختفائها
. . ولكن عقلها ارتد عن هذا الضرب من الحدس وتركز اهتمامها
بدافع غريزى حول شىء استطاعت أن تدرك كنهه : فمثلا مسلك
جورولستون ازاء فقراء شاتى . . بطبيعة الحال لم يكن « جو » ليسمح
لزوجه بأن تخاطر بجلب العدوى الى منزلها . . وكان هذا أمراً
يجدر الوقوف عنده . . لا بد أن زوجها « جيم » كان يفكر بنفس
الطريقة . . ولا بد انها كانت توافقه على رأيه .

وعادت عينها تتطلع ان الى الساعة . . كانت دائماً تفكر فى
« كليم سبندر » عندما يقع بصرها على الساعة وفجأة تسألت
- لو اختلفت الاوضاع - كيف تكون اجابته لو أنها وجهت اليه
نفس الرجاء الذى وجهته شارلوت الى « جو » . . . كان أمراً
يصعب تخيله ومع ذلك ففى ومضة خاطفة أمكن لديليا أن ترى نفسها
كزوجة « كليم » ورأت أطفالها على أنهم أطفاله ، وتخيلت نفسها
وهى ترجوه أن يدعها تستمر فى العناية بالاطفال الهمل المساكين
المقيمين فى حظائر الخيول وسمعت ضحكته الواضحة واجابته

الساخرة : « ولم السؤال أيتها الأوزة الصغيرة ؟ هل تعتبرينى متعصبا لآرائى الى هذا الحد ؟ »

أجل ! كان هذا « كلیم سبندر » بكل صفاته - متسامحا مستهترا لا يقيم وزنا للنتائج ، سباقا دائما لفعل الخير فى اللحظة المناسبة وكثيرا ما يترك الآخرين يسددون الحساب ولقد قال جيم ذات مرة بطريقته الحشنة .. « توجد ناحية حقيرة فى شخصية « كلیم » .. ثم أيقظت ديليارولستون نفسها وشدت قبضتها على ابنة عمها وهى تهمس فى أذنها « شاتى .. خبرينى »

- « ليس لدى شىء آخر » ..

- « أقصد أن تحدثينى عن نفسك .. عن هذا الشىء .. هذا .. » لقد كان صوت كلیم سبندر لا يزال يرن فى أذنيها وهى تقول فى صوت خفيض : « هل أحببت شخصا ما ؟ » فأجابت !

« أجل ، ولكن انتهى هذا الآن ، ولم يبق سوى الطفل .. وفى استطاعتى أن أحب « جو » وبطريقة أخرى .. » وشدت شاتى لوفيل من جسمها بينما بدا عليها الالقاء والجهد .. ثم قالت :

« أريد المال .. يجب أن أحصل عليه من أجل طفلى والا فانهم سوف يبعثون به الى ملجأ » وتوقفت ثم قالت « ولكن ليس هذا كل شىء .. أريد أن أتزوج .. أن أصبح زوجة مثلكم جميعا .. فى استطاعتى أن أحب أطفال « جو » - أطفالنا ... فالحياة لا تعرف التوقف ... »

- « كلا ان الامر كما تقولين ولكنك تتحدثين كما لو كان الشخص الذى غرر بك .. »

- « لم يغرر بى أحد .. لقد كنت وحيدة وكنت شقية فقابلت من كان وحيدا شقيا .. وليس لكل الناس ما لك من حظ .. كان كلانا فقيرا فلم نستطع الزواج .. وما كانت أمى لتوافق على هذا الزواج قط وعلى ذلك فقد حدث ذات يوم .. ذات يوم قبل أن يودعنى ... »

- « وهل ودعك ؟ »

- « أجل لقد كان على وشك ان يترك البلاد .. »

- « وهل ترك البلاد .. وهو يعرف ؟ »

- « كيف له أن يعرف ؟ انه لا يعيش هنا .. بل جاء ليرى أسرته ويمكث أسابيع قليلة ... » وهكذا تملصت ولم تقل شيئا بينما اغلقت شفتاها الرقيقتان على سريرها ...

وساد المكان صمت وأخذت ديليا تطيل النظر في الراعى
الجسور وأخيرا سألت فى صوت منخفض « جاء من أين ؟ »
- « وما أهمية ذلك ؟ انك لن تفهمى » وهكذا تملصت
شارلوت مرة أخرى .

وفى بطاء اصطبغ وجه ديليا بحمرة قانية ، لقد أحست بكرامتها
تمتحن لما يكمن فى هذا الرد من تأنيب ينضح بالاحتقار ، وبدت
أمام نفسها خجولا ضائعة كفتاة جاهلة عاجزة عن فعل شئ حيال
ذلك الدنس الذى أهالته شارلوت على رأسها . ولكن فجأة استيقظت
فى نفسها فكرة عارمة من الهام أنوثتها أخذت تكافح لظهور .
فركزت عينيها عن عيني ابنة عمها وقالت « اذن فلن تقولي لي من
الرجل ؟ »

- « وما الفائدة ؟ اننى لم أخبر أى انسان .. »

- « ولماذا اذن اتيت الى ؟ »

وانفجر وجه شارلوت المتحجر باكيا « لقد جئت
اليك فى شأن طفلتى .. طفلتى »
ولم تلق ديليا بالا لبكائها وقالت « وكيف أستطيع لك مساعدة
اذا لم أعرف ؟ » وعبرت عن عزمها بصوت شديد حاد النبرات
وكانت ضربات قلبها من العنف بحيث خيل اليها ان ثمة يدا
خفية تمتد الى حنجرتها تضغط عنقها وتمنعها من التنفس .
ولم تحر شارلوت جوابا

فكررت ديليا السؤال فى عناد « جاء من أين ؟ » وعند ذلك
قالت الفتاة وهى تنوح وترفع يديها الى أعلى كى تغطى عينيها
« كان دائما يعتقد بأنك ستنتظرينه وعندما وجد أنك لم تفعل
.. وتزوجت من « جيم » .. لقد سمع بهذا فى الوقت الذى
كان فيه على وشك الرحيل .. لم يعرف بزواجك الا عندما طلبت
منه السيدة « منجوت » أن يحمل معه الساعة هدية عرسك .. »
فصاحت ديليا . « كفى .. كفى .. »

لقد دفعتها الى الاعتراف دفعا والآن عندما تكلمت أحست ، بأنها
تقذف بالكلمات فى وجهها فى عنف وقسوة .. أكانت هذه
نيويورك ؟ .. نيويورك المسالة المناقفة فى ود ؟؟ أكان هذا منزل
« جيمس رولستون » وهذه زوجته تنصت الى مثل هذه الاعترافات
المشينة ؟

ووقفت شارلوت تقول : « توقعت ذلك ! ان فكرته عن طفلى الآن قد
سأت بدل أن كنت أهل فى أن تتحسن ... لماذا دفعتنى الى

الكلام ؟ توقعت أنك لن تفهمي . كنت دائما أهتم به منذ اللحظة التي خرجت فيها الى المجتمع ، وهذا هو السبب في أنني قررت ألا أتزوج غيره ولكنني أدركت أن لا أمل لي في ذلك . . . لم يتطلع الى أية امرأة سواك وعندما عاد منذ أربع سنوات ولم يجدك أمامه بدأ يهتم بي وأخذ يعاملني بلطف ويحدثني عن حياته وعن فنه « وتنفست في عمق وأخذ صوتها بصفو . . . » لقد انتهى كل شيء الآن . . . انتهى تماما . . . ان شعوري الآن كما لو كنت لم أستطع له حبا أو كرها . . . ولا يوجد الآن سوى الطفل . . . طفلي . انه لا يدرك شيئا عن هذه الامور . . . ولم يدرك ؟ هذا لا يخصه في شيء . . . هذا الامر لا يخص أي انسان سواي . . . ولكن يجب ان تدركي اني لا أستطيع النزول عن طفلي . »

وقفت ديليا رولستون وقد انعقد لسانها وأشاحت بوجهها عن ابنة عمها وقد تملكها رعب متزايد . . . لقد فقدت ديليا كل احساس بالواقع وكل شعور بالطمأنينة والاعتماد على النفس وكانت فكرتها الاولى هي أن تغلق أذنيها فلا تسمع توسلات الشخص الآخر كما يدفن الطفل رأسه عريبا من مخاوف الظلام ، وأخيرا استجمعت قواها وتكلمت بشفتين متصلبتين « ولكن ما الذي عولت عليه عندما اتيت الى ؟ لماذا أخبرتني بكل هذا ؟ »

- « لانه أحبك » وخرجت الكلمات متعثرة من فم شارلوت لوفيل ووقفت المرأتان كل منهما تواجه الاخرى . . .

وشيئا فشيئا فاضت الدموع في عيني ديليا وانحدرت فوق خديها وبللت شفتيها المتيبستين ومن خلال الدموع رأت وجه ابنة عمها الشاحب يتكسر ويدوى كوجه غارق تحت الماء ، فان الاشياء الناقصة التكوين التي أحست بها احساسا غامضا قد طفت الى السطح قادمة من أعماق نفس سحيقة مجهولة . وللحظة قصيرة كاد الامر لا يعدو أن يكون أن المرأة الاخرى حدثتها عن ماضيها هي المجهول وعبرت بكلمات ساذجة عن مخاوف قلبها هي .

ان أسوأ ما في الموضوع كله هو على قول شارلوت أنه يجب أن يعمل في الحال فلم يكن هناك وقت يضاع . . . لقد كانت شاتى على حق ومن المستحيل عليها أن تتزوج « جو » فمعنى ذلك هو النزول عن الطفل ، ومن جهة أخرى كيف تستطيع أن تتزوجه دون أن تخبره بالحقيقة ؟ وهل من المعقول أنه بعد سماع لقصة لا ينبذها ؟ كل هذه الاسئلة دارت في عقل ديليا مسببة لها آلاما كثيرة ، ومن خلالها أشرقت صورة الطفل وفرضت

نفسها على كل ماعداها .. طفل كليم سبندر .. وهو ينمو على الصدقات فى بيت حقير لزنجى أو يرعى بين أمثاله فى منزل من تلك المنازل اللعينة المسماة بالملاجىء .. كلا ! الطفل أولا .. هذا ما أحست به مختلطا بكل ذرة من ذرات جسمها .. ولكن ماذا يجب أن تفعل ومن تلتمس النصيحة وما الذى تشير به على هذا المخلوق التعس الذى سعى إليها يطلب مساعدتها باسم «كليمنت» ؟ وتلفتت ديليا حولها فى يأس ثم نظرت خلفها الى ابنة عمها ..

« لا بد لى من وقت للتفكير ... يجدر بك الا تتزوجيه .. ومع ذلك فكل الترتيبات قد عملت وهدايا العرس ... لا بد من حدوث فضيحة ستقضى على الجدة لوفيل ... »

أجابت شارلوت فى صوت منخفض « ليس ثمة وقت فلا بد لى أن أتخذ قرارا الآن ... »

وطغطت ديليا بيديها صدرها وهى تقول « أقول لك يجب أن أفكر .. ليتك تعودين الى بيتك .. لكن لا ! ابقى هنا .. يجب ألا يقع نظراؤمك على عينيك .. لن يعود « جيم » الى البيت الا متأخرا وفى وسعك أن تنتظري فى هذه الغرفة حتى أعود .. » وكانت أثناء ذلك قد فتحت خزانة ملابسها وأخرجت قبعة رخيصة وحجابا ثقيلا ... وقالت شارلوت :

« أبقى هنا ؟ ولكن الى أين أنت ذاهبة ؟ »

— « لا أدري .. أريد أن أتمشى قليلا .. أريد الهواء .. أظن أننى فى حاجة لأن أكون وحدى .. وبسرعة نشرت ديليا شالها ووضعت على رأسها القلنسوة والحجاب ودست يديها فى خباء الفرو بعد أن لبست قفازاتها ، بينما جلست شارلوت تحمق فيها وقد انعقد لسانها وهى مستلقية على المقعد المستطيل لا تبدى حراكا .. »

وعندما وقفت ديليا على عتبة الباب قالت فى اصرار : « ستبقى هنا » فأجابت شارلوت :

« نعم .. سأبقى »

وأغلقت ديليا الباب خلفها وراحت تعدو على السلم

كانت تتكلم صدقا عندما قالت أنها لا تعرف الى أين تذهب فقد أرادت أن تهرب من وجه شارلوت الذى لا يحتمل ، ومن الجو الملتصق بمأساتها .. وفى الخارج ، فى جو الحرية من السهل عليها أن تفكر ..

وعندما تخطت سياج الحديقة رأت أطفالها المتوردي الوجوه وهم يلعبون تحت رقابة مربيتهم مع غيرهم من أطفال الحى . وكانت الابنة الصغيرة تلبس قبعاتها المصنوعة من المخمل المشغول وتضع على كتفيها فراءها الابيض والغلام بقلنسوته الاسكتلندية وسترته الصوفية القصيرة .. كم يبدو عليهم المرح والسعادة ؟ ورمقتها المربية بنظرة ولكنها هزت رأسها ولوحت بيدها للأطفال ثم أسرعت الحطى ..

وأخذت تسير وتسير فى الشوارع المألوفة التى تسبح فى شمس الشتاء المشرقة اذ كان الوقت بعد الظهر بقليل وهى ساعة يكون الرجال فيها قد عادوا الى مكاتبهم ولم يكن هناك سوى قليل من المارة يسرون فى ساحة ارفنج وميدان يونيون ، وعبرت ديليا الميدان متجهة الى برودواى

كانت دار لوفيل فى شارع مرسر بناء قويا على الطراز القديم من الطوب وخلفه حظيرة كبيرة للخيول تطل على شارع جانبي ضيق كالذى رآته ديليا أثناء رحلة شهر العسل فى انجلترا ويسمى « التخشيبية » ، واتجهت الى هذا الشارع الجانبى ودخلت الى فناء الحظيرة وفتحت بابا . وفى غرفة متواضعة طليت حوائطها بالجير الابيض وجدت عددا من الاطفال متجمعين حول مدفأة يلعبون بلعب قديمة . وكانت المرأة الارلندية المشرفة عليهم تقوم بتفصيل ثياب صغيرة على منضدة قديمة فرفعت وجهها بشوشا اذ عرفت فى ديليا السيدة التى سبق لها المجئ مرة أو مرتين لرؤية الاطفال فى صحبة الانسة شارلوت ...

وقفت ديليا وقد بدا عليها الاضطراب وقالت متلعثمة : « لقد أتيت لأسألك اذا ما كنت فى حاجة الى لعب جديدة .. » فأجابت :

« هذا ما نحن فى حاجة اليه أيتها السيدة ! ونريد أشياء أخرى كثيرة كذلك وان كانت الانسة شارلوت تأمرنى بالألا أطلب المساعدة من السيدات اللاتى يأتين لرؤية اطفالنا المساكين .. »

أجابت السيدة رولستون وعى تبتسم « فى وسعك ان تطلبى منى يا بردجيت .. دعينى أرى أطفالك .. لقد مضى على وقت طويل منذ كنت هنا آخر مرة .. »

كان الاطفال قد توقفوا عن اللعب وأحاطوا بمربيتهم يتزاحمون عليها وأخذوا يحملقون فى السيدة الثرية التى ترفل فى غالى اثياب وأفواههم مفتوحة من الدهشة ... ولححت بين الاطفال بنتا صغيرة ذات عيين عسلتين وخدين قرمزين ، ترتدى رداء فضفاضاً من الصوف المزخرف مزينا بأزرار هى تقليد للمرجان، فتذكرتها دايما اذ كانت هذه الأزرار مثبتة على أحسن ثوب لدى شارلوت فى العام الذى خرجت فيه الى المجتمع .. وقفت ديليا وحملت الطفلة بين يديها وكان شعرها المجعد بنى اللون كعينها تماما ولكن العينين كان بهما نفس النقط الخضراء ... فجلست ديليا وأجلست البنت الصغيرة على ركبتها وتركها تلعب فى اهتمام بسلسلة ساعتها ... فقالت المربية :

- « اخشى ياسيدتى .. ان يتسخ ثوبك بسبب حداثها فأرض الغرفة ليست نظيفة .. »

فهزت ديليا رأسها وضمت الطفلة الى صدرها بقوة ونسيت الآخرين الذين أخذوا يحملقون فيها كما نسيت مربيتهم .. كانت المخلوقة الصغيرة التى تجلس على ركبتها من مادة مختلفة فلم تكن فى حاجة للرداء الفضفاض المزخرف ولا للأزرار المرجانية كى تميزها من بين بقية الاطفال . فعلى جبهتها العالبة نمت أطراف خصلات شعرها الاصفر تماما كخصلات شعر كلبمنت سبندر ووضعت ديليا خدها الملتهب على جبهة الطفلة .

- « هل تريد الطفلة ان تأخذ سلسلتى الصفراء الجميلة ؟ »

وهذا ما أرادته الطفلة !

خلعت ديليا السلسلة الذهبية من الساعة وعلقتها حول عنق الطفلة وصفق الاطفال وصاحوا طربا ولكن الطفلة الصغيرة استمرت تلعب بحلقات السلسلة فى صمت وقد بدت على وجهها علامات الاهتمام ...

قالت المربية : « ايتها السيدة لا يمكن ان تتركى لتينى الصغيرة هذه السلسلة الجميلة فعندما تعود الى أولئك الزنوج ... »

- « ما اسمها ؟ »

- « يدعونها تينا على ما أعتقد . أظن أن هذا ليس اسمها الحقيقى »

فلم تنبس ديليا بكلمة . فقالت المربية :

« أرى أن خديها متوردان أكثر مما يجب كما انها تسعل لاتفه
الاسباب وكثيرا ما تصاب بالبرد . . . والآن يا تبنى اتركى
السيدة . . . »

وقفت ديليا وتخلت عن الذراعين الرقيقتين . . بينما تقول
المربية :

« انها لا تريد ان تدعك تذهبين أيتها السيدة ولم تحضر اليوم
الآنسة شاتى وتلك الصغيرة تحس أنها وحيدة بدونها . .
انها لا تلعب كما يفعل الآخرون . . والآن يا تبنى انظرى الى
هذه السلسلة الجميلة التى أعطتها السيدة لك . . . كفى كفى هذا
الآن . . . »

همست ديليا فى صوت منخفض « وداعا يا كلمنتينا » وقبلت
العينين العسليتين وتاج الشعر المجعد ثم أسدلت القناع
على عينين أسرعتهما اليهما الدموع . وفى فناء الحظيرة أخذت تجففهما
بمنديلهما الكبير المطرز ووقفت مترددة وبعد أن استجمعت قواها
عادت الى المنزل . .

كان المنزل كما تركته الا أن الاطفال قد دخلوا الى غرفتهم
وسمعت صخبهم فيها وهى تسير فى الممر متجهة الى مخدعها حيث
كانت شارلوت لوفيل تجلس على المقعد المستطيل جلسة معتدلة
صارمة تماما كما تركتها ديليا

« شاتى . . شاتى . . لقد فكرت فى المسألة . . اصغ الى
مهما حدث فلن تبقى الطفلة حيث هى الآن . . انى عازمة على أن
أكفلها . . »

فانتصبت شارلوت على قدميها طويلة ممتعة اللون ، وبدأت عيناها
فى وجهها النحيل كأنهما تجويقان فى جمجمة ميت وفتحت شفتيها
لتتكلم وعند ذلك مدت يدها الى منديلها ووضعتة بسرعة على فمها
وغاصت فى المقعد مرة ثانية وانساب من خلال المنديل خيط
أحمر سقط قطرات على ثوبها الحريري .

وصرخت ديليا راکعة على ركبتها بجوار ابنة عمها :
« شارلوت . . شارلوت . . »

وانزلقت رأس شارلوت الى الخلف واستقرت على الوسائد
فتوقف جريان الدم وهنا تناولت ديليا قنينة من أمامها وقربتها
من أنفها المحتقن فامتلاء جو الغرفة برائحة عطر قوى نفاذ . .
فتحت شارلوت عينيها وقالت « لا تخافى فانى أبصق
دما فى بعض الأحيان . . وليس دائما . . لقد شفيت رئتى
تقريبا ولكنه الرعب . . . »

- « كلا كلا لم يعد هناك ما يرغب ... أقول لك اننى دبرت الامر كله وسوف يسمح لى جيم بأخذ الطفلة ... »
ورفعت الفتاة نفسها فى اعياء وقالت : « جيم ؟ وهل أخبرته ؟
ألهذا ذهبت ؟ »

- « كلا أيتها العزيزة ... لقد ذهبت لأرى الطفلة فقط ... »
فتأوهت شارلوت وهى تسند ظهرها على الوسائد ثائية وتناولت ديليا منديلها ومسحت الدموع التى كانت تسيل على خدى ابنة عمها ...

- « لا تبكى يا شاتى يجب أن تكونى شجاعة من أجل طفلتك وطفلتك ... كيف تجروين على مثل هذا التفكير ؟ ولكن يجب أن تمنحينى بعض الوقت كى أتصرف بطريقتى الخاصة ... فقط ثقى بى ... »

وتحركت شفتا شارلوت فى ضعف ... « لا تجفنى الدموع يا ديليا فانى أحب أن أشعر بها وهى تجرى ... »
واستمرت الاثنتان تستند كل منهما الى الاخرى دون أن تنطقا بكلمة بينما الساعة البرنزىة تحسب عليهما لحظات امتزاج روحيهما وتقيسه بالدقائق وأرباع الساعة وأنصافها ثم بالساعات الكاملة حتى انصرم حبل النهار وأظلم وجهه واستطالت الظلال على صفحة السجاد المزخرف وفوق الفراش الابيض العريض ثم سمعتا طرقا على الباب ...

- « الاطفال فى انتظارك لصلاة المساء قبل تناول طعام العشاء أيتها السيدة ... »

- « نعم ! يا ليزادعيهم يقولونها لك ... وانى قادمة بعد وقت . وبينما كان صوت وقع اقدام المربية يبتعد خلصت شارلوت لوفيل نفسها من احضان ديليا وقالت : « الآن أستطيع أن أرحل ! »
- « اilst فى الدرجة القصوى من الاعياء أيتها العزيزة ؟ هل ارسل فى طلب عربة لتنقلك الى المنزل ؟ »

- « كلا ستتزعج أمى لو رأتنى هكذا ... ثم انى فى هذه اللحظة أحب ان أسير على قدمى فى الظلام ففى بعض الأحيان كانت الدنيا تبدو فى عيني كأنها حريق واحد مخيف وجاءت أيام كنت اعتقد فيها ان الشمس لا تريد ان تغرب عن العالم - ثم يأتى القمر بالليل ... ووضعت يديها على كتفى ابنة عمها وقالت « اما الآن فقد تبدلت الاحوال وقبل مرور زمن طويل لن أبقى على كرهى للنور ... »

وقبلت كل منهما الاخرى وهمست ديليا قائلة : « الى غدا »

كان أفراد أسرة رولستون لايهجرون العادات القديمة الا على كره منهم ولكنهم بمجرد اعتيادهم عادة جديدة يصعب عليهم أن يدركوا لماذا لا يفعل الناس مثلهم في الحال . . .

فديليا التي تنتسب الى أسرة لوفيل غير المتزمته وهي تميل بالطبيعة الى الأخذ بكل جديد - عند ما اشارت على زوجها لاول مرة بتناول الغداء في الساعة السادسة بدلا من الثانية جمد وجهه الشاب الطرى وتعدد حتى صار يشبه في جموده وقسوته وجه كبير الاسرة القديم في عهد الاستعمار الاول كما يبدو في احدى صورته . ولكنه بعد مقاومة استمرت يومين كاملين اقتنع برأى زوجته وهو الآن يتسهم في احتقار لعناد أولئك الذين يتمسكون بعادة تناول اكلة ثقيلة في وسط النهار مع شاي كامل .

هكذا صار زوج ديليا يقول : « لا أكره شيئا كما أكره ضيق العقل فليأكل الناس حين يريدون . . . انى لا أمقت شيئا مثل ضيق العقل ؟ »

كانت ديليا تفكر في هذا وهي تجلس في غرفة الاستقبال (وكانت أمها تدعوها غرفة الضيوف) تنتظر عودة زوجها وكانت قد فرغت من تمشيط غرائرها اللامعة المصقولة وارتداء ثوبها الحريري ذى الخطوط السوداء والبيضاء والمزين بخيوط حمراء، وكان هذا هو الثوب المفضل لديه . . . أما غرفة الاستقبال ذات الستائر المصنوعة من نسيج « نوتنجهام » الرقيق المتدلى من اطارات كثيرة النقوش بارزة الزخرف مذهبة ، وذات المنضدة الرخامية المقامة وسط الغرفة على قاعدة من خشب الورد المنحوت ، وذات المقاعد الكبيرة المصنوعة من خشب الماهوجنى على الطراز القديم المغطاة بنسيج جديد من الدمقس الفرنسي ، لونه بين الخضرة والصفرة ، فكانت شيئا يمكن أن تفخر به أى زوجة شابة . وكانت قطع الاثاث من خشب الورد ذات الرفوف المتعددة عليها التحف والتمائيل موضوعة على جوانب الابواب المتحركة المؤدية الى غرفة الطعام ويزينها أنواع من الاصداف الاستوائية والأواني الكبيرة من حجر الصوان المتبلور ، ومن بينها أنموذج من المرمر لبرج « بيزا » المائل، وزوج من المسلات من شظايا الحجر النارى والصخور المعدنية ، كان الزوجان الشابان قد جمعها من الباحة الرومانية بروما . وهنالك تمثال نصفى ناصع البياض

للاله « كليتي » من خزف « سيفر » وأربعة تماثيل قديمة لفصول السنة مصنوعة من صلصال « شلسي » وقد تركت بين التحف الحديثة لأنها من متعلقات والددة جدة رولستون . وعلى الحوائط تدلت رسوم كبيرة محفورة مصنوعة من المعدن غامقة اللون تمثل رسوم كول لرحلة الحياة وبين النافذتين قام تمثال العذراء الاسيرة بالحجم الطبيعي صنعته المثالة المشهورة هريت هوزمر لوالد جيم رولستون وخلده الكاتب هاوثورن في قصته المسماة « اله الاحراج الرخامي » وعلى المائدة استقرت نسخ مجلدة تجليد أنيقا لكتاب تيرنر المسمى « أنهار فرنسا » و « فاي المذنب » لدريك وخصص « كراب » وكتاب الجمال الذي يضم صوراً للنبيات الانجليزيات اللاتي اشتركن في مسابقة الجمال التي نظمها ايرل اجلنتن .

كانت ديليا تجلس في مكانها هناك أمام نار صادرة من فحم صلب يحترق في مدفأة ذات فتحة مقوسة من رخام أسود وبجوارها منضدة صغيرة من خشب الليمون وعلى المائدة الوسطى أحد المصابيح الفرنسية الجديدة يلقي ضوءاً بهيجاً من تحت مظلة حولها دلايات من خرز بللوري فأخذت تسائل نفسها كيف خرجت في مثل هذه الفترة القصيرة وعلى هذه الصورة اقاطعة على نطاق عداتها ومعتمداتها وبعدت أكثر من أي وقت مضى عن الأفق الذي تعيش في حدوده أسرة رولستون . . . وهامى الدائرة تغلق حولها مرة أخرى كما لو كانت نقوش السقف المصنوعة من الملاط وقطع الاثاث المختلفة وشكل ثوبها قد صنعت كلها من ميول أسرة رولستون وما يتعصبون له من آراء ثم تحولت كلها الى صخر صلد بلمسة من يد هذه الاسرة

ظننت أن مسا من الجنون لا بد أصابها اذ ارتبطت بالوعود الى هذا الحد مع شارلوت ولكنها مهما تجولت منقبة داخل المشكلة التي تضيق دائرتها حولها تدريجياً قلن تجد أي مخرج ، وعلى أي صورة من الصور أصبح فرضاً عليها أن تنقذ طفلة كلیم سبندر طرق سمعها صوت فتح الباب (وما كان قلبها يدق بهذه القوة لمجرد سماعه) ثم صوت تعليق القبة العالية على مشجب المنضدة المستديرة في البهو . هل كان الصوت لقبعتين ؟ وفتح باب غرفة الجلوس ودخل شابان يلتحفان بأردية ثقيلة غالية الثمن وكانا صورتين مكررتين لجيم رولستون . . . لم تلحظ ديليا قبل الآن قط مقدار الشبه بين زوجها وابن عمه « جو » ولقد جعلها هذا الادراك تشعر بأنها على حق اذا كانت دائماً تنظر الى أفراد أسرة رولستون كمجموعة واحدة

ولا يمكن أن تكون زوجة صغيرة السن غضة الاهداب وسعيدة لو أنها لم تعتبر جو صورة غير متقنة من زوجها جيم ومع تسليمتنا بوجود بعض العيوب في الصورة فإن التشابه يسترعى النظر بين القوامين الفارعين الرياضيين والوجهين القصيرين اللذين يكاد الدم ينبثق منهما وبين الانفن المستقيمين والسوالم المنتظمة والحوالب الافقية والعيون الزرقاء الصافية والابتسامة الحلوة التي تكشف عن حب الحياة . فقط كان جو في اللحظة الراهنة يبدو صورة من جيم وهو يشكو ألمافى الاسنان

ابتسم جيم وقال فى ثقة الزوج المتمتع بطيب المائل الذى يدرك أن فى استطاعته دائما اصطحاب صديق الى منزله : « أصغى الى أيتها العزيزة . هاك شابا طلب أن يشكر لنا طعاما » فقالت ديليا : « هذا ظريف منك يا جو ! . ولكن أظن أن فى مقدوره الاكتفاء بحساء المحار وأوزة محشوة ؟ »

— « كنت أعرف ذلك وهكذا أخبرتك يا صديقى العزيز ! لقد قال انك ستبهرمين بمقدمه وستقعين فى حيرة بسبب الطعام . . . انتظر حتى تتزوج يا جوزيف رولستون وانزل جيم كفا ودودا ضخما على كتف ابن عمه فعلت وجهه تقطبة من ثقله كما لو كان قد شعر بألم فى أسنانه يخترم بسنده . . . »

— « انها لنهاية الرقة منك يا ابنة العم ديليا ان تؤوينى هذا المساء . . الحقيقة هى . . . »

فقال جيم : « أرجو أن تفكر فى الطعام أولا يا ولدى ، وأن زجاجة من نبيذ برجاندى لكفيلة بأن تبعد الهموم الزرقاء . ضع ذراعك فى ذراع ابنة عمك وسأذهب الآن لأشرف على اعداد النبيذ . . »

حساء بالمحار وأوزة محشوة بالتفاح المحمر والفلفل الاخضر ! وبعد هذا تأتى حلوى السكر المحروق المطبوخ مع اللبن والبيض وهى صنف الطعام الذى اشتهرت به الجدة رولستون . ومع كل آلامها الثقيلة كانت ديليا تشد برشئ من الفخر لذلك . . حقان مثل هذا العمل يؤكد الاشاعة بأن فى مقدور جيم رولستون دائما أن يحضر للعشاء فى بيته صديقا دون سابق انذار . . ولقد استطاعت أنبذة أسرته رولستون ولوفيل ان تنعم بالنشوة . . فحتى وجه جو كان قد رق وانحلت عقدته بعد أن تناول كمية من نبيذ ماديرا المخزوز فى أقبية أسرة لوفيل . ولقد أحست ديليا بالتغير عندما تبعها الشابان الى غرفة الجلوس .

قال جيم بعد أن اقترب بكرسيه من ابن عمه : « ران

أيها العزيز . يجدر بك أن تخبرها بالقصة كلها .. »

وانحنى المرأة الشاب فوق أشغال الصوف وأصغت وقد تدلى جفناها وتورد خداهما ، بينما كان جو يرجو أن تغفر له كزوجة وكأم اقدمه على الحديث معها في صراحة : لقد خوله زوجها الحق في أن يفعل ذلك ..

صاح جيم من مكانه فوق السجاد الوثير بجوار المدفأة في ضجة ونشاط غامر بعد الغداء : « تكلم .. تكلم » .

أما ديليا فقد أصاحت السمع وفكرت فيما سمعت وتركت العريس ييسط موضوعه في مشقة بينما استقرت ابرتها معاقة فوق رقعة القماش التي تشتغل فيها مثل سيف ديموقليس وادركت في الحال أن جو يعلق أملا كبيرا عليها في محاولة اقناع شارلوت بوجهة نظره بيد أنه كان غارقا في حبه بحيث كانت كلمة واحدة من ديليا كفيلا بجعله يرضخ فتقلب وجهه نظر شارلوت وتزوجه وفي نفس الوقت تنقذ الطفلة ..

يا له من أمر سهل بالرغم من كل ذلك ! استقبال حسن وطعام جيد وشراب معتق ثم ذكرى العيون عيون شارلوت التي لا يدرك تأثيرها الا من جرح بلحظها . وأحست الزوجة بحسد خفي يعتصر قلبها لانها حرمت من هذه الميزة الأخيرة

يا له من أمر سهل - ومع ذلك يجب الا يقع .. ! فمهما حدث فلن تسمح لشارلوت لو فيل بأن تتزوج جو رولستون ، كل تقاليد الشرف والاستقامة التي تربت في ظلها تمنعها من أن تغض الطرف عن مثل هذا التدبير .. كان في استطاعتها أن تتخذ - اذا لم تكن قد اتخذت فعلا - اجراءات تعسفية ، وتتحدى

الالوف دون تردد وتشعل ثورات خفية على قسوة النظام الاجتماعي ولكنها لا يمكن أن تتساهل في أمر هذه الاكذوبة .. ان فكرة زواج شارلوت من جو رولستون - ابن عم زوجها - دون أن تكشف له عن ماضيها ، بدت لعيني ديليا عملا شائنا ، كما لا بد ان تبدو

هكذا لعيني أي فرد من اسرة رولستون . واذا هي أخبرته بالحقيقة فانها تحول دون الزواج . وحتى شاتي نفسها كانت مدركة لهذه الحقيقة ، فالرجال والنساء لا يستوون في مجال التسامح الاجتماعي ، ولم يخطر في بال احدهما أن تسأل عن السبب في هذا التفريق ، فانهما كشابات هذه الطبقة ليس في مقدورهما سوى الخضوع لما لا مناص منه .

لا .. لم يكن ثمة خلاص من هذه المشكلة ، فاذا كان واجبا

على ديليا ان تنقذ طفل كليم سبندر ، فقد كان من المقدر عليها أن تضحي بعشيقته ، وعندما ألحت عليها الفكرة تذكرت صرخة شارلوت الحزينة : « أريد أن أتزوج مثلكم .. » وانقبض قلبها ومع ذلك فهذا لن يكون

استمر جو في حديثه يقول : « اننى مقدر تماما بساطة حسنائى وسداجتها ، ونقاء سريرتها .. كيف يمكن للمرء أن يتمنى ان تكون زوجته على خلاف ذلك ؟ انت معى يا جيم فى هذا وأنت يا ديليا » لقد قلت لها ان فى استطاعتها أن تحصل على مبلغ معين يرصد لصالح الاطفال المساكين - هذا بالاضافة الى المبلغ المعين لشئونها الخاصة وفى مقدورها ان تعتمد على فى هذا كل الاعتماد .. يا الهى ! انى على استعداد لان اكتب عهدا بذلك امام احد المحامين ليرطب الى .. ! اننى معجب بكرمها ومقدر اياه ولكننى اطلب منك يا ديليا كأم أن تصارحينى برأىك الآن .. هل تعتقدين ان فى مقدورى أن أوضح رأىى فى هذه المسألة بأكثر من ذلك : اننى أستطيع ان اتركها تستمر فى العناية بهؤلاء الاطفال الى ان .. الى ان « وتلون وجه الوالد العظيم بحمرة الفخر : « الى ان تستدعيها واجبات أهم .. قطعاً انى على اتم الاستعداد .. لبتك تخبرينها » وظل يغلى وهو تحت تأثير كأسه الاخير : « وانى اتعهد بتسوية الامور مع والدتى التى لها آراء ثابتة أحترمها ، الا أننى لا أستطيع أن أسمح لها - بأن تحول بينى وبين معتقداتى ! .. »

ونفض واقفا ينظر الى صورته فى المرآة وقد بدت عليه الشجاعة وهو يردد : « معتقداتى »

وصاح جيم فى انفعال عاطفى : « مرحى .. ! مرحى .. ! » وغرزت ديليا ابرتها فى رقعة الاشغال أمامها ثم أزاحتها جانبا وقالت : « أظن أننى أفهمكما أنتما الاثنىن يا جو .. لو كنت فى موقف شارلوت لما نزلت عن أولئك الاطفال قط » فقال جيم بلهجة المنتصر : « اليك الرأى الصواب يا صديقى العزيز » .. وكان فخورا بطعامها المتقن .

قالت ديليا : « لن أنزل عن هذا الامر على الاطلاق ، أقصد أمر اللقطاء ، فان أولئك الاطفال معرضون دائما للموت اذا ارسلوا الى الملاجئ .. وهذا ما يقض مضجع شاتى » .. فقال جو : « يا لهم من ابرياء مساكين ! انى لاحبها لانها تحبهم ! كيف يترك على الارض مثل أولئك الاوغاد السفلة دون ان ينالوا

قصاصهم . ديليا .. ! أرجو منك أن تخبريها بأننى سأفعل كل ما »

فقال جيم منبها اياه وقد سرت فى كلامه نزعة الحذر الاصيله فى أسرة رولستون : « مهلا أيها الرجل مهلا »

- « أريد أن أقول اننى سأفعل كل ما هو معقول »

رفعت ديليا يدا أمرة وقالت : « سأخبرها يا جو ولا بد أن تقدر جميلك كل التقدير ولكن لا فائدة من كل هذا » .

- « لا فائدة ؟ ما الذى يجب أن أفعله أكثر من ذلك ؟ »

- « ايس هناك أكثر ما عدا هذا الذى سأقول : لقد عاود شارلوت مرضها القديم ، لقد سعلت هنا اليوم وكان سعالها مصحوبا بالدم .. يجب الاتزوج »

ووقفت وكل جزء من جسمها يرتعش وشعرت بأن الدم قد جمد فى عروقها .. هل كان تصرفها صحيحا ؟ هل أخطأت ؟ ومن ذا الذى يبصرها ؟

وأطل عليها جو بوجه ممتقع كوجهها . كان يقبض بشدة على ظهر مقعده ورأسه منحس الى الامام كراس شيخ هرم وتحركت شفاته ولكنهما لم تخرجا صوتا

قال جيم متلعثما : « يا الهى .. ! يجب أن تتشجع أيها الرجل » .. فقالت ديليا :

« انى .. انى آسفة من أجلك يا جو .. ستخبرك بنفسها غدا » وتعثرت شفثا ديليا بهذه الكلمات بينما استمر زوجها يقدم له تعازيه الصادقة ! ..

- « يجب أن نتلقى هذه الصدمة كرجل يا صديقى .. فكر فى نفسك .. فى مستقبلك . لا يمكن أن يكون زواج بينكما أليس كذلك ؟

ان ديليا على حق .. انها دائما على حق .. يجب أن تتغلب على هذه الصدمة - والافضل ان تجابه الصعاب الآن رهذا خير من أن تجابهها مستقبلا »

« الان خير من أن تجابهها مستقبلا » أعاد جو هذه الكلمات وهو يتسم ابتسامة مفتضبة ، وتذكرت ديليا انه لم يحدث قط طول عمره السهل الرضى أن اضطر الى النزول عن شيء تعلق به قلبه .

ثم قال وقد ذرفت عيناه دمعة صبيانية : « ولكننى لافهم

•• اننى لا أستطيع النزول عنها •• »

فقال جيم : « فكر في الاطفال يا صديقى العزيز انه واجبك »
وكبت نظرة فخر سريعة الى ديليا تنم عن اعجابه بجمالها وامتلائها
بالصحة •

وفى الحديث الطويل الذى كان بعد ذلك بين ولدى العم ••
من ابداء وجهات النظر والرد عليها واسداء النصيح المفيد ،
والرفض القاطع - لم تشترك ديليا الا بمقدار بسيط عارض
فقد كانت تعرف جيدا النتيجة المحتمومة فالعريس الذى خشى
ان تجلب العروس العدو الى بيته بتردها على ماوى الاطفال
المساكين لا يمكن ان يلقي بذور المرض فى ذريته ، ولم يكن هذا
كل شيء ، فهناك حالات لا يدركها الحصر لامهات ودعوا الحياة
قبل الاوان تاركين لازواجهن قطيعا من الصغار يتولون تربيته
ولا بد ان تكون صورة لذلك كله تلح بقوة على ذاكرة جو ، فهناك
آل رولستون ولوفيل ولانسج رارستد وفاندرليدن : اى أسرة
من هذه ليس لها قبر تحج اليه فى مكان ناء؟ قبور للشباب الذين
ذوت أعوادهم تدريجيا ، فأرسلوا الى خارج البلاد للاستشفاء فى
ايطاليا مصححة المرضى ؟ ان مقابر البروتستانت فى روما وبيزا
ملينة باسماء كثيرة لآناس قدموا من نيويورك وان شبحا لتلك الرحلة
المقدسة المألوفة فى صحبة زوجة على شفا الموت لكفيل بأن يجعل
الدم يجمد فى عروق أقوى فرد فى أسرة رولستون •• وطيلة
الوقت كانت ديليا تصفى خافضة الرأس الى ما يدور حولها من
أحاديث ولم تكف عن سؤال نفسها : « هذا امر هين ولكن
كيف السبيل الى اخبار شارلوت •• ؟ »

وعندما ضغط جو المسكين يدها مودعا فى ساعة متأخرة
من تلك الليلة استدعته البها فجاة بعد خروجه وقالت له :
« أرجو أن تتركنى أراها اولا وأن تنتظر الى أن ترسله فى طلبك »
ثم امتدحت سرعة موافقته على هذا الطلب بيد أنه ما من عدد
من عبارات التشجيع منها كانت بلاغتها بقادرة على تخفيف وقع
المصيبة التى ينتظرها جو ، ولذا كانت نظرتها الاخيرة اليه تنم
عن المشاركة والعطف •

وأغلقت الباب الخارجى على جو وأيقظتها فى مكانها لمسة خفيفة
من زوجها على كتفها :

« ما كنت قط تستحقين الاعجاب أكثر من الآن أيتها العزيزة
يا ديليا الحكيمة ! »

وثنت رأسها الى الخلف وهي تتلقى قبلته ثم ابتعدت . .
لقد ادركت ان البريق الخاطف في عينيه كان اعترافا بجمالها
كما كان اعجابا بحصافتها . .

وابعدته قائلة : « ماذا كنت تفعل يا جيم لو قلت لك عن
نفسى ما قلته الآن لجو عن شاتى ؟ »

ودل تقطيب خفيف على رجهه أنه يعتبر السؤال تافها ولا
يتفق مع ذوقها المعهود رقال : « هيا بنا » وامتدت اليها
ذراعه القوية .

وظلت في مكانها بعيدة عنه ، وفي عينيه حزن عميق وقالت :
« ان شاتى لمسكينة ! فلم يبق لها شيء بعد الآن . . »

وامتلأت عيناه فجأة بالحزن مشاركة لها في آلامها ففي مثل
هذه اللحظات يعود الغلام العاطفى الذى هو رهن اشعارتها !
- « حقا أنها لمسكينة ! » وأخذ يتحسس في حذر اقرب رسالة
للتخفيف ، وقال : « لحسن الحظ ان بقى الآن لها هؤلاء
الاطفال اليس كذلك ؟ انى اعتقد ان كل امرأة يجب ان يكون لديها
اطفال لتحبهم - اطفال اى شخص آخر اذا لم تكن قد انجبت »
وكان من الواضح ان العلاج الذى اقترحه قد خفف ما يحس به
من ألم . .

قالت ديليا : « وهى تبدى موافقتها : « أجل لا ارى وسيلة
أخرى يمكن أن تريحها . . انى متأكدة بأن جو لديه نفس الشعور
. . بينى وبينك أيها العزيز » - وهنا أعطته يديها - « بينى
وبينك يجب أن نعمل على أن نحفظ بأطفالها . . »

« أطفالها ؟ » وابتسم لضمير الملكية فى كلمة أطفالها وقال :
« طبعا يالها من فتاة مسكينة ! هذا طبعا اذا لم يرسلوها الى
إيطاليا ؟ »

« ان هذا لن يحدث - من أين لها المال ؟ وهى لن تترك
العملة لوفيل ، ولكننى أحب أن أعرف يا عزيزى هل من الممكن أن
أخبرها - ولست كما ترى متحمسة لحديث الغد معها - هل
أستطيع أن أخبرها بأنك سوف تسمح لى أن أعتنى بالطفل الذى
يقلقها أمره أكثر من أى طفل آخر ، وهى لقيطة مسكينة لا اسم

لها ولا بيت - فلو أمكن أن أقتصد مبلغا ثابتا من مصروفي الخاص .. »

وتشابكت أيديهما سويا ورفعت إليه وجهها متوردا وامتلاّت عيناه بدموع الشهامة ، آه ! انه ليتفيا ظلال صحتها وحكمتها وكرمها ! قال :

« ولا مليما واحدا من مصروفك مطلقا ! »

وتظاهرت بالهزيمة والعجب، وقالت : « فكر أيها العزيز فقد يكفى مصروفي الخاص »

- « أقول ولا مليما واحدا من مصروفك - ولكن خذى ماتحتاجين إليه لمساعدة طفلة شائى المسكينة من الآن - هل هذا يرضيك ؟ »

- « يا أعز الناس الى ! عندما نفكر فى أطفالنا النائمين فى الدور العلوى ! » وتشابكت أيديهما وقد روعهما ذلك الحاطر .



رفعت شارلوت لوفيل عن الوسادة وجها محموما عندما سمعت وقع أقدام ابنة عمها .

وفاحت من المخذع المظلم المغلق رائحة الكولونيا والثياب المغسولة ، وعشيت عينا ديليا القادمة من شمس الشتاء اللامعة ولذا كان عليها أن تتحسس طريقها خلال ضوء ضعيف زاد من ظلمته لون الاثاث المصنوع من خشب الماهوجنى الغامق اللون - « أريد أن أرى وجهك يا شاتى الا اذا كانت رأسك تؤلمك كثيرا؟ » فاشارت شارلوت بيدها علامة النفى وأزاحت ديليا عن النافذة الستائر الثقيلة فدخل شعاع من النور رأت عليه رأس الفتاة وقد بدا باهت اللون فوق الفراش الابيض ، وظهرت الدوائر الحمراء مرة أخرى تحت الجفون المظلمة فتذكرت ان ابنة عمها فلانة المسكينة بدت هكذا تماما فى الاسبوع السابق لاجرارها الى ايطاليا !..

وهمست شارلوت .. « ديليا »

واقتربت ديليا من الفراش ووقفت تتطلع الى ابنة عمها بعينين جديدتين .. أجل لقد كان من السهل عليها فى الليلة السابقة أن تتصرف فى مستقبل شاتى كما لو كان مستقبلها هـى ولكن ما العمل الآن ؟ قالت :

« يا عزيزتى » :

فقاطعتها الفتاة قائلة : « أرجو أن تبدئى الكلام فى الحال ، هل ما تحملينه يبعث الرعب الشديد لى النفس ! »

- « شاتى يا أعز الناس ! هل أنا وعدتك بأكثر مما يجب ؟ » فقالت شارلوت : « جيم لن يسمح لك بأن تأخذى طفلتى ؟ لقد عرفت ذلك ! هل قدر لى أن أحلم دائما بأشياء لا يمكن أن تتحقق ؟ » ركعت ديليا بجوار الفراش والدموع تجرى على وجهها ، ووضعت يدها الريانة فى القبضة الملتهبة للمرأة الأخرى .

ثم قالت : « لا تفكرى فى ذلك أيتها العزيزة فكرى فقط فى أفضل ما يعود عليك بالخير ... »

- « أفضل ما يعود على بالخير ! » ورفعت الفتاة نفسها على الوسائد وتنبت جميع مشاعرها .

واستمرت ديليا تقول « ليس فى مقدورك أن تتزوجى جو يا عزيزتى ، وفى نفس الوقت تحتفظين بتينا الصغيرة .. أليس كذلك ؟ »

فقال شالوت « لن أحتفظ بهامعى كلا ، ولكن فى مكان قريب منى حيث أستطيع أن أسارع الى رؤيتها ! كم أملت فى مثل هذه الحماقات ! »

- « اتركى الحماقات جانبا يا شارلوت .. أين تحتفظين بها ؟ وهل تذهبين لرؤية طفلك فى الحفاء وأنت دائما فى رعب من الفضيحة ؟ وفى خوف من الاساءة لاطفالك الآخرين ؟ ألم تفكرى فى ذلك أبدا ؟ »

- « ان راسى المسكين يرفض التفكير ! أنت تحاولين نصحى بأننى يجب أن أنزل عنها ؟ »

- « كلا ايتها العزيزة ولكننى أحاول نصحك بالا تتزوجى جو »

وغاصت شارلوت الى الخلف فى الوسادة وقد أغمضت عينيها قليلا ، وقالت : « أقول لك يجب أن أنشئ لطفلى بيتا ! أنت موفقة يا ديليا فى حياتك فلن تفهمنى ما أعنيه ! »

قالت ديليا :

« يجدر بك أن تعتبرى نفسك موفقة كذلك يا شاتى اذ لن تضطرى الى النزول عن طفلك .. سوف تعيش معك ، وسوف تشرفين على تربيتها بنفسك - لاجلى ولا لجلك ؟ »

واستمرت تقول : « لقد وعدتك بأننى سوف آخذها .. أليس كذلك ؟ ولكننى لم أعدك بأن تتزوجى جو ، وعدتك فقط بأن أقيم بيتا لطفلك والآن لقد تم ذلك وانتما الاثنى ستظلان سويا دائما .. »

وتشبثت شارلوت بها وانخرطت فى البكاء قائلة « ولكن جو لا أستطيع أن أخبره لا أستطيع ! » ثم أزاحت ديليا عنها فجأة وقالت « ألم تخبريه عن طفلى ؟ لا أتحمل أن أسىء اليه الى هذا الحد .. »

فقال ديليا : « قلت له انك سبعلت دما أمس ، وسيأتى لرؤيتك حالا .. انه مبتئس للغاية .. لقد جعلته يفهم انه بسبب صحتك السيئة تعتبر الخطوبة ملعاة برغبتك وهو يقبل قرارك ، ولكن اذا ضعف هو أو اذا ضعفت أنت فلن أستطيع أن أفعل شيئا لك أو لتينا »

الصغيرة • بحق السماء تذكرى ذلك ! »

تراخت قبضتا ديليا ، واضطجعت شارلوت الى الخلف لا تنبس بكلمة ، وقد أغمضت عينيها وزمت شفتيها وبقيت فى مكانها كالحطام • وقد وضع على كرسى بالقرب من فراشها ذلك الثوب الحريري ذو الشرائط الحمراء الذى أعد للاحتفال بخطوبتها ومن تحته أطل زوج جديد من الاحذية الخفيفة من الجلد البرونزى اللامع ٠٠٠ ياكشأتى المسكينة ! لم تكد تحين الفرصة كى تبدو جميلة حتى ٠٠

جلست ديليا بجوار الفراش لا تبدى حراكا ، وعيناها لا تفارقان وجه ابنة عمها الحزين وأخذتا تتبعان دمعة اقتحمت طريقا من بين جفنى شارلوت المضمومين ، واستقرت معلقة على الاهداب ، ثم تلائأت فى بطاء وهى تسيل على خديها وعندما وصلت الدمعة الى الشفتين المغلقتين تكلمتا •

— هل سنعيش سويا فى مكان ما ؟ أهذا ما تقصدين ؟ هى وأنا دون أحد غيرنا ؟ »

— « أنت وهى فقط »

— « فى بيت صغير ؟ »

« فى بيت صغير »

— « هل انت واثقة يا ديليا ؟ »

— « واثقة أيتها العزيزة »

مرة ثانية رفعت شارلوت نفسها على مرفقها وأرسلت يدا تبحث فى حذر تعبت الوسادة وأخرجت شريطا صغيرا تعلق به خاتم ماسى • وقالت فى بساطة :

« لقد خلعته من أصبعى قبل مجيئك » وناولته ديليا ٠٠

لقد كان في وسعك أن تقول - ولا بد أن تحظى بموافقة كل انسان - ان شارلوت لوفيل خلقت لتعيش عانساً . . حتى قبل مرضها . وقد كان واضحاً لكل ذى عينين أن فيها شيئاً يمت للتمت بصلة بالرغم من شعرها الاحمر . . ولحسن حظ هذه الفتاة المسكينة وبالنظر الى صحتها المتردية في شبابها ظل المعاصرون للسيدة زوجة جيمس رولستون مثلاً يتذكرون شارلوت كشبح ليس غير ، يسعل فيقذف بمحتويات صدره الى الخارج . . وذلك طبعا هو السبب الذي من أجله فسخت خطبتها من جو رولستون .

حقاً انها استعادت صحتها بسرعة كبيرة بالرغم من العلاج الخاص الذي اتبع معها ، فان أسرة لوفيل كما عرف كل انسان لم تستطع أن ترسلها الى ايطاليا و تنفق على علاجها هنالك . كما لم تنجح التجربة السابقة في ولاية جورجيا . . وعلى ذلك فقد حملت الى منزل ريفي واقع على نهر الهدسون وهو مكان صغير يقع وسط أراضي جيمس رولستون حيث عاشت مدة خمس أو ست سنوات في صحبة خادمة ايرلندية وطفلة لقيطه . . وكانت قصة اللقيطة فصلاً آخر عجيباً في تاريخ حياة شارلوت ومنذ الفترة التي مرضت فيها أول مرة عندما كانت لا تتعدى اثنين وعشرين سنة أو ثلاثاً وعشرين ظهر عليها ميل شديد للأطفال يصل الى حد الهوس بهم وخاصة أطفال الفقراء . . ولقد قيل ، وشاع أن الدكتور لانسكل قال ان غريزة الامومة المعطلة تكون متيقظة بصفة خاصة في الحالات التي يحول فيها مرض الزوج الى الزواج . . وعلى ذلك عندما تقرر أن تلغى شاتى خطوبتها من جو رولستون وتذهب الى الريف لتعيش فيه أخبر الطبيب أسرته بأن الامل الوحيد في انقاذ حياتها ليس هو في عدم الفصل بينها وبين أطفالها الفقراء فصلاً تاماً بل في تركها تختار واحداً منهم وليكن أصغرهم وأشدهم حاجة الى العطف وتكرس نفسها للعناية به . . وعلى ذلك أعارتها أسرة جيمس رولستون منزلها الريفي الصغير كما رتبّت السيدة زوجة جيم كل شيء في الحال بما جبلت عليه من موهبة فائقة في ادراك الامور بلمحة سريعة ولقد صنعت أكثر من

ذلك فتعهدت بأن تعتنى بالطبنة في حالة وفاة شارلوت ولم تمت شارلوت بل عاشت لتقوى وتسير الى منتصف العمر نشطة بل مستبدة ، وبينما كانت شخصيتها في سبيل التحول والتبدل ازدادت شيئا فشيئا شبها بالعانس المثالية ، مدققة ومنظمة ، ومنهمكة في التوافه من الامور ، تهتم برعاية الشؤون الاجتماعية والعائلية وتعدسها . . كانت سمعتها كمديرة منزل ممتازة ومن الذيوخ بحيث أنه عندما فقد جيم رولستون المسكين حياته بعد سقوطه من فوق حصانه ، تاركا خلفه ديليا شابه معها ولدوبنت تقوم على تربيتهما كان من الطبيعي تماما للأرملة المنكوبة أن تدعو ابنة عمها الى العيش معها ومشاركتها واجباتها ولكن ديليا رولستون ما كانت لتقوم بشيء كما يقوم به الآخرون فانها عندما أخذت شارلوت الى بيتها أخذت معها لقيطتها كذلك وهي طفلة سوداء الشعر لها عينان عسليتان ولها اسلوب حسم مرهق شاذ كاسلوب الاطفال الذين عاشوا أكثر مما يجب مع من هم أكبر سنا . . وكانت الطفلة الصغيرة تسمى تينا لوفيل وكان مفهوما بطريقة غير واضحة تماما أن شارلوت قد تبنتها . . وترعرعت الطفلة في جو من العطف والحنان وتساوت في ذلك مع اولاد قريبتها، ويمكن أن يقال انها ظفرت بالمساواة ايضا في . . .

حب المرأتين لها ، وهما اللتان كفلتاها ، ولكونها مسوقة بدافع للتقليد غريزي لم يهتم أى انسان بتصحيحه فانها درجت على أن تدعو ديليا رولستون « ماما » وشارلوت لوفيل « خالتي شاتي » . كانت مخلوقة ذكية جذابة ، وتعجب الناس لتوفيق شاتي المسكينة في اختيارها هذه الطفلة من بين جميع لقطائها فقد كان معروف عنها من قبل أن لديها ملجأ كاملا من الاطفال اللقطاء تختار منهم .

لقد أخذ سيلرتون جاكسون الأعزب المتقدم السن ذو الصفات للمتازة الذي عاد بعد اقامة طويلة في باريس (حيث عرف عنه كثرة الاختلاط بأفراد الطبقة الراقية) . . أخذ كثيرا بسحر تينا وجاذبيتها عندما رآها في اول حفل راقص اقيم احتفالا بدخولها المجتمع . فاستأذن ديليا في الحضور ذات مساء وتناول العشاء معها ومع الصغار وعندما حضرها الأرملة على الجمال المشرق الذي تتمتع به ابنتها الصغيرة ، بيد أن عين الام المتيقظة لاحظت أنه كان يرمق تينا طوال الوقت . وبعد العشاء أسر الى السيدتين الكبيرتين بأن هناك طابعا فرنسيا أصيلا في الاسلوب

الذى تتبعه الفتاة فى تصفيف شعرها . وانها قد تعتبر فى عاصمة الاناقة فى غاية الامتياز والاخذ بأصول التجديد .

فابتسمت ديليا سرورا ، بينما كانت شارلوت لوفيل تحس منحنية فوق شغلها ضامة شفيتها ، ولكن تينا التى كانت تمرح مع اولاد قريبتها فى الطرف الآخر من الغرفة التفت اليهما فى سرعة عظيمة . . وتالت :

« لقد سمعت ما قاله السيد سيلرتون ! أجل يا أمى يقول اننى أرتب شعرى بطريقة حديثة . ألم أخبرك بذلك على الدوام ؟ أعرف أنه يبدو جميلا لو تركته مجعدا على طبيعته أكثر مما لو بسطته وثبته بالادهان كما نفعل الحاله »

فقالت الانسة لوفيل محتجة : « تينا . . تينا . . انك دائما تظنين ان الناس معجبون بك ! » فقالت تينا وهى تضحك فى تحد : « ولماذا لا أفعل اذا كانت كذلك ؟ » وفى نفس الوقت ادارت عينيهما الساخرتين وقالت لسيارتون جاكسون أرجوك ان تطلب من الخاله لوفيل الان لترم أسلوب العوانس الى هذا الحد المخيف ! »

ورأت ديليا الدم يصعد الى وجه شارلوت لوفيل ولم يعد يصبغ دائرتين ورديتين على خديها النحيلين ولكنه أغرق وجهها كله بفيض قوى من الدم ابتداء من رقبتها حتى شعرها الذى اختلط فيه اللونان الابيض والاسود كما يختلط الفلفل والملح ولم يعد فيه أثر للون الاحمر ، ثم انحسر الرأس فى غطى صدغيها الخاويين .

وفى ذلك المساء عندما أوين الى فراشهن دعت ديليا تينا الى غرفتها ، وقالت :

« ينبغى يا عزيزتى ألا تتحدثى الى خالتك شارلوت بالطريقة التى تحدثت بها هذا المساء . . انها طريقة مهينة ، يجب أن تعرفى أنها تؤلمها »

وافاضت الفتاة فى اظهار أسفها قائلة : « . . انى آسفه جدا . . الاننى قلت انها عانس ؟ ولكنها هكذا أليس كذلك يا أمى ؟ أقصد أنها فى أعماق نفسها لم تحس مرة بالشباب ولا فكرت فى أن تلهو أو تعجب بشخص أو أن تقع فى حب . . أليس كذلك ؟ هذا هو السبب فى أنها لا تفهمنى قط بينما أنت على عكسها تماما أنت يا أمى الحبيبة . . وبحركة من حركاتها الرشيقه ارتمت بين ذراعى الارمله . . فانبتها ديليا بكل رقة وهى تقول :

« انت طفلة ! طفلة » ثم قبلت الخصلات الفاحمة في مواضع
خمس من جبهة لفتاة .

ومن الممر جاء صوت ضعيف لوقع أقدام ثم ظهرت شارلوت
عند الباب ، ودون أن تتحرك نظرت اليها ديليا نظرة تنم عن الترحيب
بها من فوق كتف تينا .

وقالت :

« أدخل يا شارلوت انى أؤنب تينا لتصرفها كطفلة مدللة
امام سيلرتون جاكسون . . ماذا يظن بها ؟ »

فاجابت شارلوت وعلى فمها ابتسامة باردة : « ماتستحقه تماما »
وسارت تينا نحوها فقبلتها شارلوت فى نفس المكان الذى
انطبعت عليه قبلة ديليا الحارة ، وقالت بصوتها الجاف وهى تصرفها
الى غرفتها « مساء الخير أيتها العزيزة »

وأغلق الباب على المرأتين وأشارت ديليا الى شارلوت كى
تجلس فى المقعد المواجه لمقعدھا . . . فقالت الانسة لوفيل :

« ليس بقرب النار هكذا » ، واختارت مقعدا له ظهر معتدل
وجلست فيه ، وقد طوت يديها على صدرها . ووقعت عينا ديليا دون
قصد على الاصابع النحيلة الخالية من الخواتم وتساءلت مندهشة :
لماذا لا تلبس شارلوت حلى امها قط .

قالت شارلوت :

« سمعت عرضا ما كنت تقولينه لتينا ياديليا : كنت تؤنبينها
لانها دعتنى بالعانس . »

وجاء دور ديليا ليحمر وجهها خجلا وقالت « لقد أنبتھا لانھا لم
تراع كرامة الآخرين فلو سمعت ما قلته لها لما ظننت اننى افسو
عليها »

— انت لا تقسين عليها ! ما اعتقدت قط انك قاسية مع تينا
انت على العكس . . . »

— هل تعتقدين بأننى أدلھما ؟

— فى بعض الاحايين

وأحست ديليا بحرق لا تعرف سببه وقالت « ما الذى قلته ولا
توافقين عليه ؟ »

وردت اليھا شارلوت النظرة بنظرة مثلھا وقالت « أفضل أن
تعتقد اننى عانس . . . »

فغمغت ديليا .. وبلمحة من لمحات ذكائها الملهم
تسللت الى خبايا نفس شارلوت فادركت مرة أخرى وحدتها
الميتة . .

وتابعت شارلوت حديثها بارادة لاتهن « وای شيء آخر يمكن
لها ان تعتقد في ؟ »

قالت الارملة متعثرة « حقا .. حقا .. »

وهمت شارلوت لوفيل واقفة وهي تقول في اصرار « اما ان
أكون عانسا صيقة العقل تبعث على الهزؤ والسخرية - ولا شيء
خلاف ذلك - أو أنسى لن آمن على نفسي معها .. »

قالت ديليا في عطف « مساء الخير يا عزيزتي » وهناك
لحظات كادت فيها ان تكره شارلوت لانها ام تينا ولحظات
أخرى كهذه عندما كان قلبها يعتصره الالم للمظهر الفاجع لهذه
الصلة غير المعلنة بين الام وابنتها .

وبدا على شارلوت أنها أدركت ما يدور في خلدتها فغمغت تقول
وهي في طريقها الى الخارج : « ولكن لا تشفقى على ! انها ابنتى »



فى بعض الاوقات كانت ديليارولستون تشعر بان الحوادث الحقيقية فى حياتها لم تبدأ الا بعد ان أنشأ طفلها الاثنان - فى امان وطمأنينة - علاقاتهما الزوجية الناجحة فى نيويورك ، فتزوج الولد أولا من فتاة من عائلة ناندرجريف ودخل مع ابيها فى مصرفه فى « ألبانى » شريكا بنصيب صغير . أما ديليا الصغيرة (كما تنبأت لها امها) فقد اختارت جون جونيوس وهو أعقل شباب أسرة هالسى وأضمنهم مستقبلا وتبعته الى منزل والديه فى العام التالى لزواج أخيها .

وبعد ان تركت ديليا الصغيرة المنزل فى جرامرسى بارك لم تجر بينا مناصرا - ن تحتل الواجهة الوسطى من الطابق الصيفى ، وكانت قد بلغت سن الزواج يحيط بها الاعجاب من كل جانب ، ولكن اى أمل كان لهما فى أن تجد زوجا ؟ ولم تذكر المرأتان المترقيبتان هذا السؤال فى حديثهما صراحة ولكن ديليا رولستون وقد طوت نفسها عليه يوما بعد يوم وحملته معها كلما أوت الى مخدعها بالليل أدركت أن شارلوت لوفيل فى نفس اللحظة قد حملت نفس المشكلة معها الى الطابق العلوى .

وإثناء ثمانى السنوات التى أمضيتها من حياتهما سويا لم تختلف المرأتان فى شىء الا نادرا . حقا كان من الممكن أن يقال أن علاقتهما خلت من الصراحة وكانت ديليا تفضل أن تكون علاقتهما على غير ذلك بعد ان تعمقت كل منهما فى الاطلاع على سريرة لآخرى وصار من غير الطبيعى أن يسدل حجاب بينهما . ولكنها فهمت أن جهل « تينا » بمولدها يجب أن يظل كما هو مهما كانت الظروف ، بينما كانت « شارلوت لوفيل » متحفظة لاتفصح عما يجول فى نفسها والتمست النجاة بطريقة لاتعرف لها بديلا وهى ان تلوذ بأذيال الصمت الدائم .

وحتى هذه اللحظة كانت شارلوت قد فرضت على نفسها صمتا اختياريا ولذا فقد دهشت السيدة رولستون عندما طلبت منها فجأة عقب زواج ديليا الصغيرة السماح لها بالانتقال الى المخدع الصغير المجاور لمخدع تينا وكان قد ترك فارغا عقب رحيل العروس . فقالت لها ديليا :

« ولكنك لن تجدى الراحة الكاملة هنالك يا شاتى . هل

فكرت في ذلك ؟ أو أن السلم يتعبك ؟ »
فأجابت : « كلا ليس السلم هو السبب » . . وكيف يمكن لها
أن تستغل لمصلحتها ذلك الاسم الذي تطوعت ديليا بتقديمه إليها
بينما تعرف ديليا أنها ما زالت تقطع درجات السلم صعوداً ونزولاً
كما تفعل الفتاة الصغيرة ؟ » واستمرت شارلوت تقول في
صوت منخفض كان له صرير كوتر غير منغم : « وهذا لأنه ينبغي
لي أن أكون قريبة من تينا »

- « حسن جداً * كما تودين » ولم تدر السيدة رولستون
السبب في أنها شعرت بضيق مفاجئ لهذا الطلب إلا إذا كان
السبب هو أنها كانت تمنى النفس بتأثيث الغرفة الخالية وجعلها
غرفة جلوس لتينا . . وكان في عزمها أن تؤثثها باللونين الوردى
والأخضر الفاقع كزهرة متفتحة .

ولكن شارلوت قالت : « طبعاً لو كان هناك أى سبب »
وكانها كانت تقرأ ما يحول في عقلها من أفكار .

- ما من سبب هناك اللهم إلا أنني قصدت أن افاجئ تينا
بتأثيث الغرفة كي تكون ملحف أصفراً خاصاً بها تضع فيه كتبها
وحوائجها وتستقبل فيه صديقاتها . .

« ما أرق قلبك يا ديليا ؟ ولكن يجب ألا يكون لتينا ملاحق خاصة »
قالت الأنسة لوفيل ذلك في سخرية وقد بدت البقع الخضراء
في عينيها . فقالت ديليا :

« حسن جداً كما تودين » وكررت ديليا بنفس النغمة المحزنة :
« سأشرف على انزال حوائجك غدا »

ووقفت شارلوت عند الباب وقالت : « واثقة أنت بأنه مامن
سبب آخر هناك ؟ » فقالت ديليا :

« سبب آخر ؟ ولماذا » ونظرت المراتان أحدهما إلى
الأخرى نظرة هي إلى العداوة اقرب ، واستدارت شارلوت
خارجة .

وبمجرد أن انتهى الحديث شعرت ديليا بالضيق لأنها خضعت لرغبة
شارلوت . كأنه يجب أن تكون هي المنهزمة دائماً ، فأنها قبل
كل شيء سيدة المنزل ، ويمكن دائماً أن يقال إن كلا من شارلوت
وتينا مدينة لها بوجودها أو على الأقل بكل ما يجعل للحياة قيمة
ومع ذلك كلما نشأت مشكلة بشأن الفتاة كانت الغلبة دائماً
لوجهة نظر شارلوت بينما كان على ديليا أن تخضع !! وكأنما كانت

شارلوت بطريقتها الصامته العنيدة عازمة على أن تستفيد من علاقة التبعية الموجودة بينهما ، والتي جعلت من الصعب على امرأة لها طبيعة ديليا أن تقف منها موقف المعارضة .

وفي الحق كانت ديليا قد انسأقت وراء الحيال أكثر مما أدركت انها تفعل ، فهفت نفسها الى الجلسات الهادئة مع تينا تلك الجلسات التي لا بد أن بهيئها لهما الملحق الصغير الذي أرادت أن تنشئه . . وقبل أن تتزوج أبنيتها اعتادت السيدة رولستون أن تقضى ساعة من الزمان كل مساء في تلك الغرفة حيث تتجاذب أطراف الحديث مع الفتاتين وهما تخلعان ملابسهما وكانت تصغى الى تعليقاتها على حوادث اليوم . . . وكان في مقدورها دائما أن تعرف آراء أبنيتها قبل أن تتفوه به ، ولكن آراء تينا وفتات ذهنها طالما سببت لها صدمات لذيدة لا لغرابتها أو بعدها عن المألوف بل لانها كانت في بعض الاحايين تبدو كأنها صادرة مباشرة من أعماق ماضي ديليا الاخرس ، ولان تلك الآراء عبرت عن أحاسيس جالت في نفسها ولم تفصح عنها قط . . . آراء لم تسر بها حتى لنفسها . . وفي بعض الاحايين ، كان يصدر من تينا أشياء خيل لديليا رولستون أنها قالتها للكليمنت سبندر اثناء تلك المعاشرة النفسية البعيدة التي طواها الزمن . .

والآن لابد أن يوضع حد لهذه الاحاديث المسائية فشارلوت قد طلبت السكنى بجوار ابنتها ، أفزيدل ذلك على أنها أرادت لتلك الاحاديث أن تنتهي ؟ لم يخطر ببال ديليا قط أن تأثيرها في تينا يمكن ان يقابل بالغضب من أى انسان أما الآن فقد انبثق من هذه الحقيقة ضوء أضاء جنبات الهوة السحيقة التي طالما فرقت بين المرأتين ، ولكن بعد لحظة من الزمان لامت ديليا نفسها لانها عزت الى ابنة عمها شعورا بالحسد . . ألم يكن من الأجدر بها أن تمزق هذا الشعور لنفسها ؟ لقد كان لشارلوت بصفته أم تينا كل الحق في أن تطالب بأن تكون بقربها . بقربها بكل معنى الكلمة ، فأى حجة تعتمد عليها ديليا في معارضة هذا الحق الطبيعي ؟ . . وفي اليوم التالي أصدرت أوامرها بانزال متاع شارلوت الى الغرفة المجاورة لغرفة تينا .

وفي تلك الأمسية عندما حل وقت النوم سعدتا - شارلوت وتينا - الى الطابق العلوى سويا ولكن ديليا تلكأت في الصعود بحجة كتابة بعض الخطابات . . والحق انها خافت المرور أمام عتبة

الباب حيث اعتادت اذناها أن تسمع ضحكات الصبيتين بينما راحت شارلوت لوفيل فى نوم عميق . . وشعرت ديليا بألم يخترم جسدها لمجرد التفكير فى أنه من الآن فصاعدا سيحال بيننا وبين هذه الوسيلة التى تمكننا من الاحتفاظ بسلطانها على تينا.

وبعد ذلك بساعة عندما ارتقت السلم لى تذهب بدورها الى مخدعها شعرت بتأنيب الضمير، لأنها تحركت على بساط الممر بكل ما تستطيع من خفة، ولأنها توقفت أطول مما يجب كى تدير مفتاح الغاز عند رأس السلم، وفى أثناء تلكؤها أجهدت أذنيها كى تستمع الى الاصوات الصادرة من خلف الابواب القريبة حيث تنام شارلوت وتينا . وكانت تحس بألم داخلى لو أنها سمعت كلاما وضحاكا صادرين من داخل الغرفة، ولكنها لم تسمع شيئا من هذا، كما أنها لم تر نورا خارجا من تحت الابواب . اذ من المؤكد أن شارلوت بطريقها النظامية الصارمة قد أقرأت ابنتها السلام وتوجهت توا الى الفراش كمعادتها . ومن الجائز انها لم توافق قط على استيقاظ تينا فى أوقات النوم وعلى قضاء وقت طويل فى خلع ثيابها . واتخاذ هذا الوقت فرصة للدعابات وتبادل الأسرار . ومن الجائز أنها طلبت الغرفة المجاورة لمخدع ابنتها لمجرد أنها أرادت ألا تضيق على ابنتها فرصة ماسمته « نوم العافية » .

وكلما حاولت ديليا أن تستكشف السر فى تصرفات ابنة عمها آبت من مغامرتها ذليلة النفس خجلى بسبب الدوافع الحقة التى وجدت نفسها تعزوها الى شارلوت . . كيف يحدث أنها هى - ديليا رولستون - وسعادتها واضحة للعالم كله ومعترف بها من الجميع، ترى نفسها تنفس على شارلوت المسكينة هذا المقدار الضئيل من الامومة الذى تتمتع به بعيدا عن أعين الناس؟ لقد كرهت نفسها بسبب هذا الشعور بالحسد كلما اكتشفته فى دخليتها، وبذلت ما فى وسعها كى تكفر عنه بأسلوب رقيق دفعها الى مراعاة دقيقة لشعور شارلوت، بيد ان المحاولة لم تكن ناجحة دائما . وأحيانا كانت ديليا تسأل نفسها عما اذا كانت شارلوت لا تحنق على أى مظهر من مظاهر العطف خشية أن

ترى فيه ايماءة غير مباشرة لبسها . . ! ان أسوأ ما فى هذا الالم
الذى تكابده شارلوت انه يلتهب وتزيد أوجاعه لمجرد اللمس الخفيف
كانت ديليا وهى تخلع ثيابها فى بطة أمام المرأة المكسوة جواربها
بالحرير ، والتى عكست صورتها قديما وهى عروس ، تدير هذه
الافكار فى رأسها عندما سمعت دقا خفيفا . . ففتحت الباب
ورأت تينا فى ثوب النوم وخصلات شعرها الفاحم تنسدل على
كتفها .

ومدت ديليا ذراعيها اليها وقلبها ينبض بالفرح وهمست
الصبية : « كان يجب أن احبك تحية المساء يا ماما » فقالت
ديليا « طبعاً ايتها العزيزة » وطبعت قبلة طويلة على
جبهتها المرفوعة ثم قالت : « الى غرفتك حالا فقد توقطين
خالتك . . انت تعرفين أن نومها خفيف ولذا يجب ألا تحدثى أى
صوت الآن وقد أصبحت ترقد فى الغرفة المجاورة لغرفتك »
قالت تينا :

« أجل أعرف ذلك » ورضخت ورمقتها بنظرة متجهمة
يبدو فيها شعور الاشتراك فى اثم .
ثم لم تسأل أسئلة اخرى ولم تتلأأ ورفعت يد ديليا ووضعتها
لحظة على خدها ثم تسللت خارج الغرفة بنفس الهدوء الذى
جاءت به . . .



قالت شارلوت فى اصرار بعد أن أَلقت بجريدة « ايغنس بوست » جانباً « ولكنك بالتأكيد تلاحظين أن تينا قد تغيرت .. ألا ترين ذلك ؟ »

كانت المرأتان تجلسان وحدهما بجوار المدفأة فى غرفة الاستقبال « بجرامرسى بارك » وكانت تينا قد ذهبت لتعشى مع السيدة جون جونيوس هالسى ، قريبتها الشابة ، ومن ثمة تذهب الى مرقص فى منزل أسرة فاندريجريف ومن هناك وعد جون جونيوس وزوجته بأن يعودا بها الى المنزل ، وبعد أن انتهت السيدة رولستون وشارلوت من تناول عشاءهما المبكر أصبح المساء كله وقفا عليهما . وكانت عادتهما فى مثل هذه الظروف أن تقرأ شارلوت الاخبار لابنة عمها فى صوت عال ، بينما تنهمك الاخرى فى شغل الابرة ولكنهما فى هذه الليلة وفى اثناء انتقال شارلوت من نهر الى نهر فى الجريدة دون أن تغفل عن كلمة أو تسقط حرفاً ، أحست دليلاً بالسبب خاص بأنها تحرص على الاستفادة من فرصة غياب أبنيتها

ولكى تكتسب وقتاً قبل الاجابة انحنى السيدة رولستون فرفق شغلها الرقيق وعكفت على تطريزه بالغرز البيضاء .

ثم سألت : « وهل تغيرت تينا ؟ منذ متى ؟ »

وجا الجواب سريعاً : « منذ كان لانج هالسى يكثر من التردد على هذا المكان .. »

— « لانج ؟ كنت أعتقد أنه يأتى من أجل ديليا الصغيرة . وكانت تتحدث دون تفكير لكى تكسب وقتاً أطول ... »

فأردفت شارلوت : « من الطبيعى أن تظنى بأن الناس كلهم يأتون من أجل ديليا ابنتك ولكن لانج كان لا يترك فرصة واحدة دون أن يكون فيها مع تينا »

رفعت السيدة رولستون رأسها واسترقت نظرة سريعة الى ابنة عمها .. والواقع أنها لاحظت التغير الذى طرأ على تينا ، هذا التغير الذى يشبه تغير الزهرة فى تلك اللحظة الغامضة التى فيها يخرج ورق التتويج من جوفها قبل أن تتفتح اكمامه . ولقد تطورت الصبية وأصبحت أكثر اناقة وأكثر رقة وأكثر ميلاً

الى الصمت . وفي بعض الاحيان أكثر مرحا .. ولكن ديليا لم تربط بين هذه التغيرات في المراج وحضور « لاننج هالسى » وهو واحد من الشبان العديدين الذين كانوا يملأون الدار قبل رواج ديليا الصغيرة .. حدث حديثا في بعض الاوقات أن السيدة رولستون كانت ترمق لاننج البهى الطلعة بقلب واجف ، فمن بين جميع شبان اسرة هالسى الاقوياء الثابتى الجنان كان هو الوحيد الذى لا تستطيع اى اى ذكية الفؤاد أن تعهد اليه بابتها دون تردد . ومن الصعب معرفة السبب فى هذا اللهم الا أنه كان أبهى الجميع طلعة وأكثرهم بشاشة كما لم يكن ليحافظ على موعد . ولم تزعجه هذه الحقيقة أبدا .. لقد كان كليم سسندر عنى هذه الشاكلة وماذا يحدث لو أن ديليا الصغيرة ...

ولكن سرعان ما عادت الثقة الى نفس أم ديليا الصغيرة ، فالفتاة وهى نفسها لعوب ساحرة لم تهتم بهذه الصفات فى الآخرين الا اذا كانت مدعمة بصفات أكثر رصانة .. ولهذا كانت تتطلب الخصال المميزة لاسرة رولستون التى هى عضو أصيل فيها ، ومن ثم وقع اختيارها على فرد من اسرة هالسى يليق بعروس من اسرة رولستون ..

وشعرت السيدة رولستون بأن شارلوت فى انتظار جوابها فقالت فى لطف « من الصعب التعود على فكرة زواج تينا ولا أدري ماذا نصنع وحدنا ونحن امرأتان متقدمتان فى السن فى هذا البيت المقفر من الناس . اذ سيكون خاويا عندئذ ، ولكن أظن أنه يجدر بنا أن نواجه هذه الفكرة »

قالت شارلوت لوفيل فى اهتمام « اننى فعلا أواجهها »
- « وهل تكرهين لاننج ؟ اقصد كزوج لتينا .. ؟ »

وطوت الانسة لوفيل صحيفة المساء ومدت يدها النحيلة لتتناول شغلها ورمقت ابنة عمها الجالسة أمامها على المنضدة المصنوعة من خشب الليمون بنظرة سريعة وقالت : « يجب ألا تتشدد تينا أكثر مما يجب »

وقالت ديليا محتجة وقد أحمر وجهها « ولماذا »
واستمرت الاخرى تقول : « لنسم الاشياء بأسمائها ...
هذه طريقتى دائما عندما أتكلم ، بيد اننى كما تعلمين لا أتكلم كثيرا »

وأشارت الارملة بيدها علامة الموافقة واستمرت شارلوت تقول « هذا هو الصواب ولكننى كنت أعتقد دائما بأن اللحظة قادمة

عندما مضى الى الكلام فى هذه المسألة .. « فقلت ديليا :
« الكلام فى هذه المسألة ؟ أنت وأنا ؟ أى مسألة ؟ فاجابت شارلوت :
« مستقبل تينا »

وساد صمت تنفست فيه ديليا رولستون الصعداء فهى
دائما تستجيب الى كل نداء يطلب منها بذل المروءة والاخلاص .
وتهيات لها هذه الفرصة حين أخذ الثلج المتراكم فى صدر شارلوت
يتحطم ويذوب أخيرا .

وغمغمت ديليا : « يا عزيزتى أنت تدرين مقدار اهتمامى
بسعادة تينا فان كنت لا توافقين على لانج هالسى كى يكون زوجها
لتينا فهل تفكرين فى شخص آخر ترشحيه لها ؟ »

وابتسمت الأنسة لوفيل احدى ابنتاماتها الباهتة
المغتصبة وقالت « لست أعلم بوجود ضيف من المعجبين عند
الباب كما اننى لا أرفض « لانج هالسى كزوج فانا شخصا
أراه مناسباً جداً وأدرك تأثيره على تينا .. »

« وهل تينا تميل اليه ؟ »

— نعم

والقت السيدة رولستون بالشغل جانبا وأخذت تتأمل فى
تفكير عميق وجه ابنة عمها الدقيق التقاطيع ولم يسبق
لشارلوت لوفيل أن ظهرت بمظهر العانس المثالية أكثر مما هى
الآن ، وهى تجلس هنالك منتصبة الصدر على كرسيها ذى الظهر
المستقيم ومرفقاها متقاربان ، بينما تصطك ابر الشغل وهى
تناقش موضوع زواج ابنتها فى هدوء وروية .
واستأنفت ديليا تقول :

« مهما كانت عيوب لانج — ولا اعتقد انها عيوب خطيرة — فانى
أشاركك الميل اليه على أى حال » وتوقفت السيدة رولستون ثم
واصلت الحديث « أى شىء فيه يجعل الناس يأخذون حذرهم
منه ؟ أهم ما وصل الى سمعى عنه انه لا يستطيع أن يتخذ
قرارا فى اختياره لمهنته .. ارأى المدينة فيما يختص بذلك
يميل الى التشدد كما نعرف كلنا وقد تكون لدى الشبان ميول
أخرى .. فنية .. أدبية .. وقد يكون من الصعب عليهم أن
يقرروا شيئا .. »

وتلون وجها المرأتين قليلا وأدركت ديليا ان نفس الفكرة
التي عصفت بصدرها قد اضطربت كذلك داخل قوام شارلوت
المعتدل .

وتكلمت شارلوت « نعم أدرك ذلك ، ولكن التردد فى اختيار المهنة قد ينتج عنه التردد فى .. اتخاذ قرارات أخرى ... »
- ماذا تقصدين ؟

- لم يطلب لآنج من تينا أن تتزوجه ..

- وهل تظنين انه متردد فى ذلك ؟

وانقطعت شارلوت عن الحديث وتميز الصمت بصوت اصطكاك الابر كما تميز ذات مرة قبل سنين عدة بدقات الساعة الباريزية الموضوعة فوق المدفأة فى غرفة ديليا .. رينيماتعود ذاكرة ديليا الى الورا متأملة ذلك المنظر اذ بها تحس بأن الهواء بات يحمل اليها نفس التمرتر الغامض الذى شعرت به حينذاك وتكلمت شارلوت .. « لم يعد لآنج مترددا ، لقد قرع عزمه على الا يتزوج تينا ولكنه ايضا قد عقد النية على الا ينقطع عن مقابلتها .. »

وفى الحال احمر وجه ديليا فلقد اهاجتها وحيرتها كلمات شارلوت القاطعة الخارجة من بين شفيتين حريصتين مدققتين .
- « انت لاتقصدين الى القول بأنه تقدم ثم عدل عن هذا القرار ؟ ليس فى وسعى أن اصدف أن مثل هذه الاهانة يمكن أن تصدر منه فى حق تينا .. »

- « انه لم يهن تينا بل أخبرها بكل بساطة بأن حالته المالية لا تمكنه من الزواج ، فالى أن يقع اختياره على مهنة يمده والده بضع مئات من الدولارات فى كل عام ، وحتى هذا المبلغ من المحتمل أن يقطع عنه لو انه تزوج على غير رغبة والديه . »

وهنا جاء دور ديليا فى الصمت ، فقد اعادت شارلوت الحياة الى الماضى بكلماتها على صورة غامرة فتجسد كليمنت سندر امامها بتردده وفقره وجاذبيته .. آه ليتها فقط سمحت لنفسها بأن تخضع لسحر جاذبيته !

ثم قالت :

« يؤسفنى جدا أن يحدث هذا لتينا ، ولكن لما كان لآنج لم يخرج فى تصرفه عن جادة الشرف وعاد أدراجه دون أن يشير فى النفس آمالا كاذبة فيجب أن ننشد الامل ويجب أن نرجو .. »
وتوقفت ديليا عن الحديث فهى لا تدرى فى أى شىء يجب أن تأمل ..

وضعت شارلوت لوفيل الشغل الى جانبها وقامت : « تعرفين

يا ديليا ان كل شاب يقع في حب تينا لابد واجد اسبابا وجيهة لعدم الزواج منها .. » فقالت ديليا :

« وهل تظنين أن اعتذار لاننج مجرد تعللات ؟ »

- « بالطبع وهي اولى التعللات التي سيبيدها من يجيئون بعده ، وسيخلفه كثيرون ، فتينا ذات جاذبية .. »

وغمغت ديليا « نعم .. »

واخيرا أصبحنا وجهي بوجه مع المشكلة التي ظلت خلال جميع سنى الصمت والتهرب قريبة من السطح كجيفة دفنت على عجل ! وتنفست ديليا تنفسا عميقا آخر ، فلقد ادركت دائما صعوبة العثور على زوج لتينا وبالرغم من اهتمامها بسعادة تينا وسوس في نفسها وسراس داخل يمت للانانية بكبر صلة يقول ان ختام حياتها لابد أن يصبح أقل خضوعا لسلطان الوحدة وأقل خلوا لو قسدر للصبية ان تشاركها هذه الحياة ... ولكن كيف السبيل الى مضارحة ام تينا بهذا ؟

- « اني لأرجو أن تكون المبالغة طابع كلامك يا شارلوت فقد توجد بعض الشخصيات التي لا تهتم بالاوضاع السائدة ... ولكن على أي حال يجب ألا تحسن تينا بالتعاسة هنا ومعنا ، نحن الذين نكن لها الحب العميق .. »

- « وهل تصبح تينا عانسا؟ كلا مطلقا ! » واثتصبت شارلوت لرفيل واقفة وقد ضربت المائدة الصغيرة بجماع يدها وهي تقول : « يجب أن تعيش طفلي حياتها .. وتتمتع بالحياة .. مهما كلفني ذلك .. »

وفاض عطف ديليا وكان وشيك الظهور وهي تقول « أدرك شعورك .. هذه أيضا رغبتى وأن كان من الصعب فراقها .. ولكن لا داعي قط للعجلة - فما من سبب يدعونا الى التطلع الى المستقبل أكثر مما يجب . فالفئة لم تبلغ العشرين بعد .. انتظري .. »

ووقفت شارلوت أمامها لا تبدى حراكا منتصبية القامة وفي مثل هذه اللحظات تدعو هيأتها ديليا الى التفكير في الحمم التي تكافح للخروج من جوف الصخر الصوان ؛ بيد أنه ليس ثمة مخرج للنيران المتأججة في أعماقها .. ثم شرعت تتكلم :

« أنتظري ؟ ولكن اذا هي لم تنتظري ؟ »

- « ولكن ذاك قد تراجع - ماذا تقصدين بهذا ؟ »

— «لقد تخلى عن فكرة الزواج منها — ولكنه لم يتخل عن رؤيتها ...»

وقفزت ديليا هي الاخرى على قدميها وهي ترتعش وقد اندفع الدم الى وجهها .

— « شارلوت أتعرفين مدى تلميحك ؟ »

— « نعم أعرف »

— « ولكن هذا شيء مهين • لا يليق بفتاة شريفة »

وماتت الكلمات على شففتي ديليا ، وظلت شارلوت لوفيل نمد بصرها في اصرار وهي تقول « ليست الفتيات دائما كما نقولين شرفاء .. »

وعادت السيدة رولستون في بطن الى مقعدها وكان اطارها تغلها قد سقط على الارض فانحنت لتلتقطه وظل قوام شارلوت النحيل معلقا فوقه — باقسوة كأنه القدر .

— « لا أستطيع أن أتصور يا شارلوت الفائدة التي تعود من ذكر مثل هذه الاشياء — حتى مجرد الاشارة اليها • أنت قطعاً تنقين بابتك .. »

وانفجرت شارلوت ضاحكة وهي تقول « فقد وثقت أُمى بى »
— « كيف تجرؤين — كيف تجرؤين ؟ » ثم توقفت ديليا عن الكلام وأحست بفصّة في حلقها ...

— « اننى اجرؤ على اتيان أى شيء فى سبيل تينا كما انى أستطيع ان اراها على حقيقتها .. »

— « ترينها على حقيقتها؟ انها كاملة الصفات وليس فيها عيب ! »
— « لنقل اذن أن عليها أن تكفر عن ذنوبى وكل ما أرجوه ألا تدفع الثمن غاليا .. »

وجلست السيدة رولستون صامتة وقد خيل اليها أن شارلوت قد نظقت بلسان جميع المصائر المظلمة التي تضطرب تحت صفحة الحياة الهادئة ومامن رد على هذا الصوت غير الموافقة الصامتة المشوبة بالرهبة .

ثم قالت فى صوت منخفض « يا تينا المسكينة ! »

— « لا أقصد أن لامناص من أن تتعذب ! ليس لهذا انتظرت .. وانتظرت .. انى ارتكبت أخطاء أدرك كنهها الآن ولا بد

لى أن أعالجها .. لقد كنت معنأى غاية النبىل ولا بد لنا من
الرحىل ..

- «الرحىل ؟» لفظت دىلىا بهذه الكلمة وهى تلهث .

- «أجل ولا تظنى أننى ناكرة للجمىل لقد أنقذت ابنتى مرة -
وهل يخطر ببالك أننى أنسى ؟» ولكن جاء دورى - فأنا التى
يجب أن أنقذها - الآن ، ولن أنقذها الا بأخذها بعيدا عن
هذا المكان - بعيدا عن كل ما تعرفه هنا .

لقد عاشت أطول مما يجب وسط بحر من الاوهام
وانها لتشبهنى ولن تقنع بها ..

- «أوهام ؟» رددت دىلىا الكلمة دون وعى .

- «أوهام بالنسبة لها! أوهام الشبان الذين بغازلونها ولا
يستطيعون أن يتزوجوها . أوهام الاسر السعيدة التى
تستقبلها بالترحاب الى أن تتطرق الزينة الى نفوسهم فيظنوا أنها
تنصب شباكها حول أخ أو زوج - أو الى أن تتعرض لاهاناتهم ..
كيف يمتد بنا الخيال أنا وأنت فنتصور أن فى مقدور تلك
الطفلة أن تفر من الكارثة ؟ لم افكر فى غير سعادتها ، ولكن
هذا الذى وقع من الشاب هالسى قد فتح عىنى فلا بد لى من أن
أخذ تىنا وأرحل . يجب أن نذهب لنعيش بعيدا فى مكان
لا يعرفنا فيه أحد حيث نتخذ مقامنا وسط أناس بسطاء
يعيشون حياة بسيطة وحيث تستطيع العثور على زوج وتكوين
أسرة ..»

ثم توقفت شاراوت عن الحديث اذ وهن صوؤها واخذت تكرر
فى توجع : «لست ناكرة للجمىل ..»

- «دعينا من الحديث عن عرفان الجمىل ! ما مكانه بينى
وبينك ؟»

وكانت دىلىا قد وقفت فى مكانها ثم شرعت تتحرك فى
جوانب الغرفة فى قلق .. اشتاقت نفسها الى أن ترجو
شاراوت وأن تتوسل اليها الاتتعجل وان تصور لها القسوة
فى إبعاد تىنا عن كل ما اعتادته وارتبطت به ، والظلم البىن
فى أخذها - دون تفسير الى مكان بعيد لتحيا حياة بسيطة
وسط أناس بسطاء . أى أمل هناك فى أن مثل هذه المخلوقة
المتألقة يمكن أن تخضع بسهولة لمثل هذا المصير أو يمكن أن تجد
زوجا فى مثل هذه الظروف ؟ ان التغير قد ينجلي فقط عن مأساة

وان تجارب ديليا لتقصر عن تخيل صورة دقيقة لما يمكن أن يحدث
لفتاة كتينا تقطعت بها سبل الحياة الرضية فجأة ولكن صوراً
غامضة للتمرد والهروب والسقوط العميق الذى لا يمكن الخلاص منه
والذى يفوق سقوط شاروت قد انبرت لها فجأة وزحمت خيالها
المعذب ..

صرخت تقول لنفسها أكثر مما تقول لشارلوت « ان هذا
لشيء مفرط فى القسوة - مفرط فى القسوة »
الا أن شارلوت بدل أن تجيب نظرت فجأة الى الساعة وقالت :
« هل تعلمين كم تكون الساعة الآن ؟ انها بعد منتصف الليل
ولا يجب أن تظلى جالسة فى مكانك فى انتظار ابنتى
الطائشة .. »

وانقبض قلب ديليا ورأت أن شارلوت ترغب فى أن تضع
حدا لهذا الحديث وذلك بتذكيرها بأن أم تينا فقط هى
التي تملك الحق فى تقرير مصير تينا وفى تلك اللحظة وان كانت
ديليا قد أعلنت منذ هنيهة أن موضوع عرفان الجميل
ليس له وجود بينهما الا أن شارلوت لوفيل بدت فى عينيها
شيطانا يمثل نكران الجميل وكان على طرف لسانها أن تصرخ قائلة
« ألم تخولنى كل هذه السنين أى نصيب فى تينا ؟ » ولكنها
أسرعت بوضع نفسها فى مكان شاروت وأحست بالخاوف المربعة التى
تحسها الام نحو طفلتها فلقد كان أمرا طبيعيا من شارلوت أن تثور على
محاولة مهمما كانت بسيطة لحرمانها فى السر من سلطة
لا تستطيع أبدا أن تزاولها فى العلن وفى عطف مؤلم أدركت
أنها الشخص الوحيد فى العالم الذى تستطيع شارلوت أن تمثل
أمامه دور الام ..

ثم قالت تحدث نفسها يا للمخلوقة التعسة - آه لنتركها الآن !
ثم قالت لشارلوت :

« ولكن لماذا تظلين ساهرة فى انتظار تينا ؟ ان المفتاح معها
وديليا الصغيرة ستعود بها الى المنزل »

ولم تجب شارلوت لوفيل بسرعة ولكنها طوت شغلها ونظرت
فى صرامة الى أحد الشمعدانات الموضوعة على رف المدفأة وسارت
نحوه لتعدل وضعه ثم تناولت الحقيبة التى تضع فيها اشغال
الابرة * * وهى تقول :

« نعم ! كما تقولين - لماذا يسهر أى انسان من أجلها ؟ »
وتجولت فى الغرفة تطفىء المصابيح وتغطى النار وتتأكد
من أن النوافذ قد أغلقت بالمزلاج . . بينما كانت ديليا ترقبها فى
هدوء ، ثم أضاءت المرأتان شمعتين لمخدعيهما وصعدتا السلم فى
البيت الذى شمله الظلام وبداعلى شارلوت العزم على ألا تشير
الى موضوع حديثها مرة أخرى . . وعلى رأس السلم توقفت حتى
تحنى رأسها لديليا كى تقبلها قبله المساء . ثم قالت بطريقتها
التي تنم عن الكفاءة فى ادارة شئون المنزل :

« أرجو أن يكونوا قد واصلوا اشعال النار فى غرفتك كى تظل
دافئة » . . وبعد أن تبادلت المرأتان تحية المساء سارت شارلوت فى
الممر المؤدى الى غرفتها .



كانت النار في غرفة ديليا تشتعل في المدفأة وقميصها على مقعد أمامها كي يدفأ ولكنها لم تخلع ثيابها ولم تجلس فان حديثها مع شارلوت قد ملأ نفسها قلقا عميقا ..

وللحظات قليلة وقفت وسط الغرفة وهي تتلفت حولها في ببطء .. ما من شيء قد تغير في الغرفة التي فكرت في أن تغير تأثيثها على طريقة حديثة منذ كانت لاتزال عروسا .. كانت كل أحلامها في التجديد قد تلاشت منذ زمن طويل جدا فان شيئا من الاهتمام العميق وعدم المبالاة تأصل فيها وجعلها تحس بالتدريج كأنها شخص ثالث يعيش حياة امرأة أخرى لا تمت بأية صلة لديليا لوفيل تلك الفتاة النشطة الحية التي أقبلت على هذا المنزل وكلها مشروعات وأحلام .. عرفت أن الخطأ لم يكن خطأ زوجها فأنها بقليل من البراعة وقليل من الإغراء كان يمكن أن تحقق أية رغبة لها في يسر وسهولة كما حققت رغبتها في وضع الطفلة اللقطة تحت جناحها .. بيد أنها بعد هذا الانتصار لم تر هنالك شيئا آخر يستحق الكفاح ، فالنظرة الأولى الى تينا الصغيرة جعلتها لانهتم بأى شيء في الحياة الا بخدمته زوجها وأطفالها ، ولم تعد ترى أمامها سوى مستقبل مليء بالواجبات وقد تمتتها بكل أمانة واستبشار ، ولكن حياتها كانت قد أوفت على الغاية: فأحست بتحللها من كل قيد كراهبة تعيش فى دير .

كان التغير الذى طرأ عليها من العمق بحيث لم يكن من اليسير اخفاؤه ، ولقد كان أفراد أسرة رولستون يتباهون علنا بدقة ديليا المحبوبة ومراعاتها للأصول الثابتة الموروثة . وهكذا قويت تقاليد الأسرة ومعتقداتها بما تسوقه الظروف من براهين جديدة على قوة هذه التقاليد والمعتقدات وأحقيتها للحياة .. وفي هذه اللحظة عندما أدارت ديليا بصرها حولها ونظرت الى الصور البارزة من عمل « ليوبولد روبرت » والى الصور القديمة لأعضاء العائلة والى قطع الأثاث القديم من خشب الأورد وخشب الماهوجنى .. أحست بأنها تتطلع الى حوائط قبرها .

جاءها التغير فى نفس اليوم الذى أطلقت فيه شارلوت لوفيل اعترافها المخيف وهى قابعة فى ذلك المقعد ذاته .

وعند ذلك وللمرة الاولى سمعت ديليا فى دهشة مخيفة صوت اقوى العمياء للحياة تتلمس طريقها صاحبة تحت قدميها ، لكنها ادركت فى ذلك اليوم ايضا انها محرومة من هذه الحياة ، محتوم عليها أن تعيش بين الخيالات مع افراد أسرة رولستون .

لقد قطعت على نفسها بالزواج عهدا ظلت وفية له عشرين سنة ، وصارت بمقتضاه تتصرف كفرد من أسرة رولستون ، ولم تسترد شخصيتها طوال ذلك الزمن الا مرة واحدة رات فيها ان الموقف العنيف يوجب عليها أن تفعل . وها هى الآن تسمع النداء مرة ثانية يدعوها ، وتحس باليقظة فى اعماق نفسها تعاودها ، فلا مناص لها من ان تسترد شخصيتها فى الحياة لفترة اخرى .

انها لا تفعل ذلك من اجل كليمنت ، ولا من اجل شارلوت ، بل هى لا تفعله من اجل تينا العزيزة ، وانما تفعله من أجلها هى نفسها ، من اجل ديليا رولستون . فلتسرع الى هدم الحواجز التى اقامتها حولها تقاليد أسرة رولستون ، ولتخرج الى الحياة الواسعة الحرة .

وقطع حبل تأملاتها حركة خفيفة فى المنزل الصامت وشعرت بباب شارلوت لوفيل يفتح وسمعت صوت احتكاك ثيابها الثقيلة وهى تتجه الى السلم ، وظهر النور فجأة من تحت باب الغرفة ثم اختفى . . لقد مرت شارلوت بباب ديليا فى طريقها الى أسفل البيت .

واستمرت ديليا تصيخ السمع دون أن تتحرك . . ومن المحتمل ان دقة شارلوت قد دفعتها الى النزول لتتأكد من ان الباب الخارجى مغلق بالزلاج ، أو أنها حقا أطفأت النار فى المدفأة . فلو كان هذا غرضها فلا بد أن تعود، بيد انها لم تسمع صوت أقدامها تعود فأدركت أن شارلوت نزلت كى تنتظر ابنتها . . لماذا ؟

كان مخدع ديليا فى الناحية الامامية من البيت فتسللت على السجادة الثقيلة وأزاحت السجف جانبا وطوت مصراع النافذة الداخلى ، فرأت تحتها الميدان الحالى أبيض بتأثير ضوء القمر ورسمت ذرات الثلج الساقط حديثا هيئة جديدة لجذوع الاشجار القائمة فيه . اما المنارل المواجهة فقد نامت فى ظلام دامس . . فما من

خطوة واحدة ظهر أثرها على أديم الأرض ، وما من عربة شوه
مرورها جمال الشوارع المتألق . أما السماء فقد سبحت نجومها
فى ضوء القمر . .

من بين العائلات التى تعيش حول « جرامسى بارك » عرفت
ديليا ان عائلتين فقط توجهتا الى المرقص : عائلة فاندرجريف
وابناء عمومته من شبان عائلة بارملى رولستون فقد كانت
عائلة لوسسيوس لانج على وشك أن يتموا أعواما ثلاثة من الحداد
على والدته السيدة لوسسيوس ، وكان من الصعب على ابنتهم كيث - ولما
تبلغ الثامنة عشرة بعد - أن تذهب الى المرقص قبل الحادية
والعشرين وهى سن الخروج الى الحياة الاجتماعية ، كما كانت السيدة
مارسى منجوت الشابة تنتظر مولودها الثالث فاخفت عن الناس
زهاء عام . أما السكان الآخرون فى الميدان فقد كانوا من مجهولى
الهبة ولم يدعهم احد الى المرقص

ضغطت ديليا جبهتها على زجاج النافذة ، قبل مرور زمن طويل
فسترى مواكب العربات على قمة الطريق ، وسيمتلئ الميدان النائم
بأصوات حوافر الخيل ، وسترن الضحكات وتسمع كلمات الوداع
على السنة الشباب عند عتبات الابواب . ولكن لما دأبلت شارلوت
تنتظر ابنتها فى أسفل المنزل فى الظلام ؟

ودقت الساعة الباريسية الواحدة فعادت ديليا الى الغرفة
وحركت النار ثم تناولت شالها ولقت نفسها فيه ثم رجعت الى
مكانها بجوار النافذة . . آه كم من السنين طوت ! لا بد أنها
بلغت من العمر عتيا لتحس بأثر البرد فى مثل هذا الوقت . .
وأيقظها ما يخبئه لها المستقبل : التهاب الاعصاب والروماتيزم
وتصلب الشرايين وعلل أخرى مراكمة . . وما حدث لها قط أن
وقفت فى ضوء القمر وحولها ذراع حبيب يدفئها . . !

ظل الميدان على صمته ومع ذلك فلا بد ان يكون المرقص قد
أشرف على الانتهاء ، فأكثر المراقص مرحا وبهجة لاتستمر بعد الواحدة
صباحا بكثير كما ان المسافة من ميدان الجامعة الى « جرامسى
بارك » لم تكن طويلة . . واتكأت ديليا على الموقد وأصاحت
السمع . .

سمعت أصوات حوافر الخيل وهى تضرب فى الثلج فى

ميدان « ايرفنج » ووقفت عربية عائلية بطرس فاندرجريف أمام المنزل المقابل لمنزلها . . . وقفزت البنات وأخوهن خارج العربية وارتقين معه السلم، ثم وقفت عربية ثانية على بعد خطوات أخرى ، ونزل أفراد عائلة بارملي رولستون أمام باب منزلهم، وعلى ذلك يجب ان تكون العربية الثالثة التى ستظهر على رأس الطريق هى عربية عائلة جون جونيوس وبها تينا .

ودقت الساعة النصف بعد الواحدة ، وتعجبت ديليا فان ابنتها ديليا الصغيرة لا تبقى أبداً فى الحفلات الى ساعة متأخرة من الليل رعاية لساعات عمل زوجها « جون جونيوس » . . فلا شك ان تينا أخرتها . . وأحسست السيدة رولستون بشيء من القلق يشوبه الغضب لاستهتار تينا وتأخيرها لابنة خالتها . ولكن موجة من العطف على تينا سرعان ما عمرت قلبها وغمرت ذلك الشعور بالغضب .

ومالبثت ديليا ان تذكرت قول شارلوت « انها يجب ان ترحل الى أى مكان لتعيش، حياة بسيطة وسط أناس بسيطاء » . وكانت ديليا تدرك تماماً أن شارلوت ما كانت لتقول هذا القيل لـ لم تكن مصممة على تنفيذه . فمن الجائز أن تكون هذه السهرة الراقصة هى آخر سهرة لتينا .

ومر ربع ساعة أخرى وبدأ البرد يتسلل من خلال شالها فرأت شخصين يظهران فى الميدان الخالى قادمين من رحبة ايرفنج وكان أحدهما شاباً يلبس قبعة عالية ويرتدى معطفاً واسعاً وفى ذراعه تعلق انسان قد تدثر بأغطية ثقيلة فلم تدرك ديليا أنه تينا الا بعد أن سقط عليها ضوء المصباح المعلق على زاوية الشارع . . وبعد ذلك تعجبت لأنها لم تعرف فى الحال خطوات تينا الراقصة وطريقتها فى امالة رأسها كى تتطلع فى وجه الشخص الذى تتحدث اليه

تينا . . تينا ولا ننح هالسى يعودان الى البيت فى الساعات المتأخرة بعد منتصف الليل قادمين من حفلة عائلة فاندر جريف الراقصة! لقد فكرت ديليا أول ما فكرت فى وقوع حادث: قد تكون العربية انكسرت أو أن ابنتها أصابها مرض حال دون استمرارها فى الحفل فعادت الى المنزل . . ولكن لماذا لم تأت تينا فى العربية واذا كان ثمة حادث من أى نوع فلماذا لم يسرعوا الى السيدة رولستون

لبنبئوها بما جرى ! ولكن بدلا من ذلك أخذت تينا وصديقها يتسكعان في الليل المتألق البارد كعشيقين يتنزهان في منتصف الصيف وكان حذاء تينا الخفيف يطأ زهرات الاقحوان بدلا من حبات الثلج ..

وأخذت ديليا ترتعش كصبية، ففي لمح البرق عرفت الاجابة عن سؤال طالما كان موضوعا لتكهنتها الخفية .. كيف كان يدبر العشاق من أمثال شارلوت وكليمنت سبندر أمر تلاقيحهم ؟ أى وحدة رهبانية أخفت مباحثهم المسروقة ؟ فى مجتمعهم الصغير المكتظ بالناس الظاهر للعيان ، كيف يمكن عمليا لهذا التلاقى أن يتم ؟ ما كانت ديليا لتستطيع أن تسأل شارلوت هذا السؤال قط فقد مرت عليها لحظات كانت تفضل ألا تعرف جوابا عنه ، أو تخاطر بالحس والتخمين ، ولكنها الآن وبمنظرة واحدة أدركت كل شيء .. كم مرة عادت فيها شارلوت لوفيل اثناء بقائها وحيدة فى المدينة مع جدتها المشلولة من حفلات ليلية فى صحنبة كليمنت سبندر وكم مرة التقيا سويا داخل البيت المظلم فى شارع « مرسر » حيث لا يوجد من يطلع على حركتها سوى سيدة طاعنة فى السن صماء وخدمها العجائز والجميع يرقدون فى سلام فى الدور العلوى ! وعندهذه الفكرة رأت ديليا غرة الاستقبال المقبضة التى كانت لها بمثابة الغابة المضيئة بنور القمر .. غرفة الاستقبال التى لم تعد السيدة « لوفيل » العجوز تنزل اليها ذات الشمعدان الكالح ومقاعد الصلبة من طراز الامبراطورية والتماثيل الرخامية التى تحمل رف المدفأة .. لقد تخيلت اشعة القمر وهى تسقط على رسوم السجادة القديمة ، وفؤ الضوء الابيض الشفاف رأت شخصين صغيرى السن يتعانسان

أجل لابد أن تكون بعض الذكريات المشابهة هى التى أثرت شكوك شارلوت وأهاجت مخاوفها فجعلتها تنزل الى أسفل البيت كى تفاجئ المذنبين فى الظلام .. وسرت الرعدة فى جسم ديليا لما فى هذه المواجهة من سخرية .. آه لو علمت تينا ! ولكن شارلوت كانت فى عيني تينا لا تزال كما رغبت منذ وقت طويل ان تكون : صورة حبة للعانس المحتشمة ، واستطاعت ديليا أن تتخيل كيف سيمثل المنظر أسفل السلم فى هدوء وبراءة ، دون أن يصدر من شارلوت أى تعجب أو ألى تأنيب أو كلام خارج عن حدود اللياقة ، وكل ما يمكن ان يصدر منها هى

تجاهل تام لجميع المعاذير فى ابتسامة رقيقة • فتخيلت ديليا
أن شارلوت سوف تقول :

« ماذا تينا ؟ تعودين الى البيت فى صحبة لانج ؟ انت أيتها
الطفلة العابثة وفى هذا الثلج الرطب ! آه حقا : لقد
قلقت ديليا الصغيرة على طفلها فعاتت مبكرة ووعدت بأن ترسل
العربة - ولكن العربة لم تعد ؟ حسنا يا عزيزتى أهنتك على
قدرتك على جعل لانج يصحبك الى البيت نعم ! سهرت لآننى لم
استطيع أن أتذكر اذا ماكنت قد أخذت معك مفاتيح الباب الخارجى
فهل رأيت مثل هذه الحالة العجوز البلهاء ؟ ولكن لا تخبرى
أمك يا عزيزتى والا فانها ستؤنبى على نسيانى وعلى بقائى هنا فى
البرد •• هل أنت واثقة تماما بأن المفتاح معك ؟ آه انه مع
لانج انك فى غاية الرقة - مساء الخير - أو يجدر بى أن أقول صباح
الخير •• »

وعندما وصلت ديليا الى هذه النقطة من تمثيلها الصامت
للحديث بين شارلوت وثينا أغلق الباب الخارجى بقوة وابتعد
الشاب لانج هالسى فى بطن نحو الساحة وشاهدته ديليا وهو
يتوقف عن السير على الافريز المواجه للبيت وهو يتطلع الى
واجهة المنزل ثم يعود الى السير فى تراج • لقد استغرق انصرافه
الوقت الذى حسبته ديليا بالضبط ••

وبعد لحظة شاهدت نورا يمرتحت باب غرفتها وسمعت
خفيف ملابس شارلوت المنشاة وعرفت ان الام وابنتها قد عادتا
الى غرفتيهما •

وفى بطن وبحركات متصلبة بدأت تخلع ملابسها ثم اطفأت
الشموع وركعت بجوار سريرها دافئة وجهها فى الفراش ••



استلقت ديليا على سريرها حتى الصباح دون أن يغمض لها جفن وفى تلك الاثناء استعادت فى ذاكرتها كل تفصيلات اليوم الخطير عندما اخذت على عاتقها العناية بمصير طفلة شارلوت وكانت فى ذلك الوقت لا تبعد كثيرا عن دور الطفولة ولم يكن لديها احد تلجأ اليه أو يقوى ساعدها عندما تتخذ قرارات أو يسدى لها النصيحة فى تنفيذ هذه القرارات

ومنذ ذلك الوقت كان يجب أن تكون التجارب التى بجمعت لها فى مدى عشرين سنة قد عدتها لساعات الطوارئ وعلمتها كيف تسدى النصح للآخرين بدلا من أن تسعى وراءهم طالبة معونتهم . . بيد أن هذه السنين من الخبرة أخذت تضغط كاهلها كسلاسل ثقال وتقيدها بقوة الى الرقعة الصغيرة من الارض التى تعيش عليها ، فالتصرف المستقل أصبح بالنسبة لها عملا أكثر خطرا وأقل قابلية للتنفيذ . . كان عندما فكرت فيه أول مرة . . ويبدو الآن أنه لا بد لها من أن تراعى فى تصرفاتها عددا من الناس أكثر من ذى قبل . فهنا أولادها ثم أولادهم ، ثم أفراد الاسر التى اتصلوا بها عن طريق المصاهرة والنسب .

فماذا سيقوله أفراد اسرة هالى مثلا ، أو أفراد أسرة رولستون ، وهل أصبحت هى عضوا أصيلا فى أسرة رولستون؟؟

وبعد ساعات قليلة كانت جالسة فى غرفة المكتبة الخاصة بالدكتور لانسكل العجوز عيناة مثبتتان على سجاده الازميرية القديمة ، لقد انقطع الدكتور لانسكل الآن عن مزاوله الطب ، وبضى عليه على هذا الحال بضع سنين ، وأقصى ما يفعله هو أن يزور عددا قليلا من مرضاه القدماء فيبدي مشورته فى الحالات المستعصية ، ولكنه ظل قوة فى مملكته القديمة أشبه شئ برئيس شرف أوزعيم روحى لجماعة الاطباء واعتماد المرضى الذين ذوى أمراضهم الجسدية ان يستشيروه فى مشاكلهم النفسية . . ولقد اجتمع الناس على دقة حكم الدكتور لانسكل ، ولكن الشئ الخفى الذى جذبهم اليه هو ما عرف عنه من صدقه وصراحته ، وخاصة فى اشد الاوساط تعصبا للجنس . . والان وديليا جالسة ترقب جسمه الضخم ذا الرأس الفضى اللون وهو يتحرك حول الغرفة

في نقل بين صفوف من الكتب الطبية وعدد من تماثيل المصارعين
والملوك التي أهداها اليه مرضاء المعترفون بجميله ، أحست نحوه ،
بالاطمئنان والثقة وشرعت تقول

« عندما توليت امرتين لأول مرة يجوز اننى لم أفكر تفكيراً
كافياً » .

وقف الطبيب خلف مكتبه وضربه بجماع يده ضربة خفيفة
وقال : « لحسن الحظ انك لم تفعل ذلك .. ! يوجد في هذه
المدينة كثيرون غيرك يشغل هذا الموضوع بالهم يا ديليا لوفيل »
ورفعت وجهها اليه بسرعة وقالت : « لم تدعوني ديليا لوفيل ؟ »
اجابها في خبث : « لاننى البرم فقط اكاد اعتقد انك منهم »
فردت على ذلك بضحكة حائرة : « من الجائز لولم اكن منهم ..
اقصد لو كانت لى دائماً الفطنة والبصيرة اللتان تميز بهما
افراد اسرة رولستون لاصابتينا في النهاية خير عميم .. »
وغاص الدكتور لانسكل في المقعد الكبير ، وراء مكتبه ،
وصوب اليها نظرات نفاذة من وراء نظارته الساخرة وقال :
« اكره الخير الذى يأتى متأخرانه يشبه اللحم القديم .. »
وراحت تفكر وهى تقول : « أدرك اننى اذا تبينت تينا ... »
« ماذا .. ؟ »

« سيقول الناس .. » وهنا صعد الدم الى رقيبتها وغمر
خديها وجبهتها وانسكب كلهب تحت شعرها المفروق ..
وأوما لها براسه قائلاً : « نعم .. ! »
« أو انهم سيقولون » وهنا زاد الاحمرار قتامة : « انها
ابنة جيم » .

مرة اخرى هز الدكتور لانسكل راسه موافقاً وقال :
« الراجح جداً ان يظنوا ذلك ، واى ضرر في هذا .. ؟ اننى
اعرف جيم وهو لم يسألك أى سؤال عندما أخذت الطفلة ..
ولكنه عرف من هى .. »

ورفعت عينين ممتلئتين دهشة : « هل عرف .. ؟ »
« نعم .. ! لقد حضر الى .. ولقد أقشيت سرا من اسرار
المهنة وذلك لصالح الطفلة . وهكذا حصلت تينا على بيت
يؤويها .. انك لن تنكرى على هذا المسلك . اليس كذلك ؟ »
« كلا يادكتور لانسكل » . وملأت عينيها دموع الالم ،

وهى تقول : « وهل عرف جيم ؟ ومع ذلك لم يخبرنى . . ؟ »
— « لا فالناس فى تلك الايام لم يضمّنوا احاديثهم أشياء مهمة
كثيرة ، اليس كذلك . . ؟ ولكنه أعجب بك اعجابا لا مزيد عليه
لما فعلته ، ولو فرضت — كما اعتقد أنك فاعلة — انه الآن فى
عالم من الكمال النورانى فلماذا لاتسلمين بأن اعجابه بك سيزداد
لما تفعلين . . ؟ » وختم الطبيب حديثه فى سخرية مرة : « من
الجائز أن القوم فى السماء يعتقدون بأن القيام على الارض
بعمل يتصف بالشهامة فى سن الخامسة والاربعين هو اشق بكثير
من القيام به فى سن الخامسة والعشرين » .

— « هذا ما كنت أفكر فيه هذا الصباح »

— « حسنا ستبرهنين على عكس ذلك هذا المساء »

ونظر الى ساعته ثم وقف واضعا يده على كتفها فى عطف
أبوى وقال : « ليعتقد الناس ما يشتهون وابعثى لى بدليسا
الصغيرة لوسببت لك اية متاعب ، أما ولدك فلن يقيم فى رجهك أى
صعاب وكذلك لن يفعل جزون جونيوس . . »

واطلت برأسها خادم عجز فنهضت ديليا ولكنها توقفت عند
مدخل الغرفة .

— عندى فكرة . . قد تكون شارلوت هى التى يجب أن ارسلها
إليك » .

— « شارلوت . . ؟ »

— لن توافق على ما انا عازمة عليه »

ورفع الدكتور لانسكل حاجبيه الفضيين وقال : « نعم . . !
يا لشارلوت المسكينة . . ! اعتقد أنها غيرى . . ! لا بد
لشخص ما أن يدفع الثمن . . »

— « آه . . ليت تينا لاتدفع »

— « حسنا . . هذا هو بالضبط ما ستدركه شارلوت فى الوقت
المناسب وعلى ذلك فطريقك بين »

واصطحبها الى الخارج مارا بقاعة الطعام حيث اجلس بعض
الفقراء وواحدا أو اثنين من المرضى القدماء . احقا لقد كان طريق
ديليا يبدو واضحا حين دعت شارلوت الى مخدعها بمفردها فى
ذلك المساء ، وكانت تينا فى فراشها تشكو صداعا ، وفى تلك الايام
كان هذا هو السبيل المألوف لمن يعانى مشاكل عاطفية من الشابات

الصغيرات وبهذه الطريقة يسهل عليهن اكتساب عطف أهلهن .
لم يتبادل ديليا وشارلوت على الغداء سوى بعض الكلمات
التقليدية ولكن ديليا كانت لاتزال تحت تأثير احساسها بأن قرار
ابنة عمها كان قرارا أخيرا كما أن حوادث الليلة السابقة كانت
توحى بلاشك أنه قد حان وقت التنفيذ .

وبعد أن أغلقت الأنسة لوفيل باب المخدع بما هو معهود فيها
من تأن شديد سارت نحو المقعد الطويل بين النافذتين ، وقالت :
- « هل اردت محادثتي يا ديليا .. ؟ »

« نعم لا تجلسي بعيدا » .. قالت السيدة رولستون ذلك
دون أن تستطيع السيطرة لى انصباها ..
ونظرت شارلوت بعينين جامدتين : هل من الممكن أنها قد
نسيت تنهيدات التوجع والالم التى زفرتها ذات مرة فى نفس
تلك الوسائد .. ؟

فعدت ديليا تقول :
- « لا .. ! اقتربنى منى . فى بعض الاحايين يخيل الى اننى
ثقيلة السمع » وبعد ان قالت ذلك فى عصبية ظاهرة دفعت
مقعدا وقربته من كرسيها ..

وجلست شارلوت وهى تقول : « آه لم يسبق لى ان لاحظت
ذلك ولكن اذا كنت كما تقولين فقد يكون ذلك قد انقذك من
سماع تينا وهى عائدة من بيت أسرة فاندرك جريف فى ساعة
متأخرة من ليلة أمس .. رهى لن تصفح عن نفسها لاستهتارها
براحة الآخرين لو عرفت انها ايقظتك .. »

- « انها لم توقظنى » .. ولكنها فى أعماق نفسها !
كانت تقول : « لقد انتهت شارلوت الى قرار ، ولن اقوى على
تغييره .. »

واستمرت تقول : « أظن أن تينا قد سرت كثيرا بالمرقص ؟ »
- « نعم .. ! ولكنها تدفعنا ثمن بما تعانیه الآن من صداع .. »
مثل هذه الحفلات المثيرة لا تلائمها ، قلت لك .. »
فقاطعتها السيدة رولستون : « دعوتك لكى نتم حديث
ليلة أمس » .

فظهرت الدوائر الحمراء الثانية على خدي شارلوت النحيابين
وقالت : « وهل هناك ضرورة لذلك .. ؟ أظن أن من واجبي
أن أخبرك فى الحال بأننى انتهيت الى قرار وأعتقد أنك توافقين
على اننى ادرك صالح تينا »

— « نعم .. ! طبعاً ، ولكن الاتسمحين لى على الاقل بأن يكون لى نصيب فى القرار الذى تتخذينه .. ؟ »
— « نصيب .. ؟ »

ومالت ديليا الى الامام روضعت يدها الدافئة على اصابع ابنة عمها المتشابكة وقالت : « شارلوت . حدث فى هذه الغرفة ذات مرة منذ سنين ان طلبت منى ان اساعدك . وكنت حينئذ تعتقد ان فى مقدورى ان افعل .. . اليس فى الامكان ان تعتقدى هذا مرة اخرى .. ؟ »
تصلبت شففا شارلوت وقالت : « اظن ان الوقت قد حان كى اعتمد على نفسى »

— على حساب سعادة تينا ؟
— « لا ، بل لاقبها من شقاء اعظم .. »
— « ولكن يا شارلوت ان سعادة تينا هى ما ابغى .. »
— « اعرف ذلك .. لقد فعلت كل ما فى وسعك من اجل ابنتى .. »

— « لا .. ! ليس كل ما فى وسعى .. »
ونهضت ديليا ووقفت امام ابنة عمها فى نوع من الخشوع ، وقالت وكأنها تقسم على ما تقول
— « ولكنى الآن سأفعل كل شىء . »
وتطلعت اليها شارلوت لوفيل وفى عينيها المذعورتين لمحة واجفة :

— « اذا كنت تقصدين انك ستنجحين الى نفوذك فى اسرة هالى فانى مقدرة لجميلك وسأظل دائماً حافظة له .. ولكننى لا اريد لابنتى زواجا بالاكراه ! »

واحمر وجه ديليا لان الاخرى لم تدرك مرادها ، وكان يخيل اليها ان هدفها لذى ترمى اليه لا بد ان يكون واضحاً على صفحة وجهها ، وقالت : « سوف اتنى تينا .. سأعطيها اسماً .. »
فحملت فيها شارلوت بعينين متحجرتين وقالت :

— « تبنيها .. ؟ » فقالت ديليا :
« الا تدركين يا عزيزتى مقدار الفرق الذى سيترتب على ذلك .. ؟ لدى المال الذى ورثته عن امى .. مال اسرة لوفيل انه ليس بالشى الكثير ، ولكن كانت رغبة جيم دائماً ان يؤول هذا المال الى اسرة لوفيل ثم ان ابنتى واخاها فى بسطة من العيش .. مامن سبب يحول دون ذهاب مالى القليل الى تينا »

- ولماذا لا تعرف بتينا رولستون ؟ وتوقفت ديليا عن الكلام ثم قالت : « في اعتقادي لو كان حيم حيا لوافق على ذلك هو الآخر » - « يوافق .. ! ؟ »
- « نعم .. ! الأترين انه عندما اذن لي بأخذ الطفلة كان مقدرا كل ما قد ينتج عن ذلك في نهاية الامر .. ؟ »
- ووقفت شارلوت هي الاخرى وقالت : « أشكرك يا ديليا ، ولكن يجب ألا ينتج عن ذلك شيء آخر ما عدا رحيلنا عنك الآن . اننى واثقة بأن هذا هو ما كان يوافق عليه جيم » ..
- وتراجعت السيدة رولستون خطوة أو خطوتين .. لقد قضى اصرار شارلوت اصرارا قاطعا على شجاعته ولم تعثر على جواب سريع .. ثم قالت :
- « اذن من الايسر لك أن تضحي بسعادة تينا على أن تضحي بكبريائك ! ! »
- « كبريائي .. ليس لي الحق في أى نوع من الكبرياء ما عدا حقى في ابنتى وهذا لن أضحي به أبدا .. »
- « ما من احد يطلب منك ذلك .. انك لست على حق فيما تقولين .. أنت قاسية . كل ما اطلب هو أن يسمح لي بأن أسعد تينا وها أنت تتحدثين كما لو كنت أعارض في حقوقك .. »
- « حقوق .. ؟ » وأعادت شارلوت الكلمات وهى تضحك ضحكة موحشة :
- « ما هى هذه الحقوق . ؟ ليست لي حقوق لا امام القانون ولا في قلب ابنتى »
- « كيف تقولين مثل هذا الكلام ؟ أنت تعرفين كم تحبك تينا » نعم .. ! ان حبها لي هو من قبيل العطف على .. كما كنت احب عماتى وخالاتى العوانس .. كانت لي منهن اثنتان .. هل تذكرين ؟ كانتا كالطفلتين الداويتين .. ! ولطالما حذرنا من قول أى شيء يزعج الخالة جرزى أو الخالة كوني ، كما سمعتك تحذرين تينا في تلك الليلة »
- فغمغمت ديليا متألمة ..
- وظلت شارلوت لوفيل واقفة أمامها كالحة الوجه صارمة لا تنثنى : « كلا .. لقد مضى زمن طويل ولا بد أن أخبرها بكل شيء ثم نرحل من هنا »
- « هل ستخبرينها عن مئذنها .. ؟ »
- فأجابت شارلوت لاهثة : « لم أشعر بالعار من ذلك قط »

— « اذن انت تضحين بانتيك . تضحين بها على مذبح رغبتك في
النحكهم .. ! ؟ »

ونظرت المراتان كل منهما في وجه الاخرى فكلتاها شاهدة
سلاحها .. ومن خلال اخلاجات الغضب رأت ديليا غريمتها
تضعف في ببطء فتراجع خطوة الى الوراء ثم تنهار على المقعد
مرسلة همهمة كسيرة .. لقد اخفت شارلوت وجهها في الوسائد
وهي تقبض عليها بعنف .. ان عاطفة الامومة ذاتها التي
القت بها ذات مرة فوق هذه الوسائد هي التي اخذت تجرها الان
الى اسفل فتهاوت وقد انصهرت نفسها في غمرة من تسليم
اشد مرارة من كل ما سبق ان عانت وبدا على ديليا كأنها تسمع
نفس الصرخة القديمة : « ولكن كيف استطيع ان انزل عن
طفلتى .. ؟ » وهنا اختفى غيظها الوقتى وانحنى فسوق
كنفى الام التي ترزخ تحت اثقال الالم ، فقالت :

« شاتى .. لن يكون هناك نزول هذه المرة .. الا يمكن ان
نستمر في حبها سويا .. ؟ »

ولم تجب شارلوت وظلت صامتة وقتا طويلا ساكنة في مكانها
ووجهها في الوسائد ، تخشى ان تديره شطر الوجه الحائى عليها ،
وفي النهاية شعرت ديليا بتراجيديا في العضلات المشدودة ،
ورأت احدى ذراعى ابنة عمها تتحرك ببطء وتتحسس المكان ،
فمدت يدها الى الاصابع الباحثة . واحست بشارلوت تمسك هذه
اليدين وتطبع عليها قبلة ..



كانت تينا لوفيل ، التى تسمى بالآنسة كليمنتينا رولستون ستزوج فى يوليو من لاننج هالى ، وكانت الخطبة قد اعلنت فقط فى شهر ابريل السابق لهذا التاريخ وشرعت سيدات الاسرة المتقدمات فى السن يسلقون تلك الخطبة التى لم تستمر وقتا طويلا بالسنه حداد فقد كان من المتفق عليه فى نيويورك فى تلك الايام ان « من حق الشباب ان يمنح الفرصة لكى يتعرف بعضهم الى بعض » بالرغم من ان العدد الاكبر من الشابات اللاتى يؤلفن المجتمع النيويوركى قد اشتركن فى اللعب وهم اطفال ، كما انهم ولدوا من آباء وامهات عاشوا فترة طويلة متعارفين .. ومع ذلك فقد كان هناك تقليد متبع ، يقرر ان المخطوبين حديثا يجب ان ينسوا انهم كانوا قبل الخطبة متعارفين اما فى الولايات الجنوبية فقد كانت الامور تسير بصورة مختلفة ، فالخطوبات التى تتسم بالرعونه والزيجات التى تتم دون علم الاهل لم تكن بالشئ النادر الحدوث فى سجلات هذه الولايات .. بيد ان مثل هذا التهور لم يكن بهذا الذبوع فى نيويورك ، وذلك لركود دماء اهلها ، حيث الحياة ما فتئت تتسم بسمة التبصر والتساوى الماثورتين عن اهل هولندا .

وفى حالة غير عادية كحالة تينا رولستون ، لم يكن مما يشير العجب لدى اى انسان الا يؤخذ بالتقاليد المرعية ، ففي المقام الاول لم يغب عن الاذهان ان تينا ليست من آل رولستون الا اذا اقام الانسان رزنا لما يشاع عن ماضى جيم المسكين وعن شهامة ارملة ونبل طبيعتها .. ولكن اغلبية الناس كانوا لا يرون هذا الراى فهم على غير استعداد لان يلصقوا برجل ميت تهمة لا يستطيع لها دفعا ، واعلنت اسرة رولستون بالاجماع انهم وان كانوا يستهجنون تصرف السيدة جيمس رولستون استهجانا تاما ، الا انهم على اقتناع تام بانها ما كانت لتبني تينا لو كان هذا التصرف يلقي شبهة على حياة زوجها المترفى .

لا : قد تكون الفتاة فردا من اسرة لوفيل - وان لم تكن هذه الفكرة شائعة بين الجميع ، ولكن من المؤكد انها ليست من اسرة رولستون ، فعيناها العسليتان وحرركاتها الطائشة نات بها فى وضوح عن محيط الاسرة ، فليس هناك حاجة لان يصدر عليها حكم بالحرمان ، وقد اعتقد معظم الناس - كما كان الدكتور لانسكل يؤكد دائما - بأنه ليس من الميسور الكشف عن اصلها

وانها تمثل لغزا من الالغاز المستعصية على الحل ، وتغيب
المجتمعات التي تأخذ نفسها بنظم محكمة . . وان واقعة تبني
ديليا رولستون لها لا تعدو أن تكون برهانا آخر على تكتل أسرة
رولستون وتماسك أفرادها . .

فما تبنت السيدة رولستون الفتاة الا لان ابنة عمها كانت
شديدة التعلق بها ، ومن المألوف ان يقال بان ابن السيدة رولستون
وابنتها كانا راضيين عن فكرة التبني ، فانما امتنعنا عن التعليق
تهوينا من اثر النزوة التي صدرت عن أمهما ، فكان صمتهما مشرفا
ولقد كانت هذه هي الطريقة القديمة التي تتبعها عائلات نيويورك في
اخفاء ما يصدر عن أحد أفرادها من شذوذ وحيثما يوجد « مال
يكفى الجميع » كان من المستهجن أن يحتج الوارثون على النزول عن
جزء صغير من الميراث العام .

ومع ذلك فان ديليا رولستون منذ تبنيها للفتاة كانت مدركة
تمام الإدراك ان ثمة مسلكا مختلفا من جهة ولديها الاثنين . .
لقد عاملها بصبر ، بل بحكمة كذلك التي يظهرها الوالدان ازاء
صغيرهما الذي أتى ذنبا ففضا الطرف عنه ولكن ذلك لم يعفه
من رقابة أشد ، وكذلك المجتمع عاملها بنفس التسامح ولكن
بتحفظ . .

لقد كان لها - على حد تعبير سيلرتون جاكسون - طريقة
حاسمة حازمة في اخذ الامور ، وقد سبقتها السيدة مانسون
منجوت بتصرف خطير حين خالفت وصية زوجها ، وكانت جراتها
منقطعة النظر في ذلك الحين ، ولكن اسلوب السيدة رولستون
كان فريدا في لباقة ، فما أنجزته السيدة الاولى ببراعة أقوالها
المنمقة وهجماتاتها واصرارها وتحركاتها أنجزته الثانية دون ان
توقع صوتا او تحيد خطوة عن الطريق المستقيم . .

فمن قبل أغرت زوجها جيم رولستون على تولى امر الطفلة
وحصلت على موافقته بمهارة فائقة ، دون ان يعرف احد كيف
تمت تلك الموافقة ، ولم يرهه الناس في اليوم التالي الا فرحين
منرحين .

والآن ، ها هي تبني الفتاة بنفس الاسلوب الذي عزاه اليها
سيلرتون جاكسون ، فتصرفت كأنها لا تأتي عملا يحتاج الى
تفسير ، بل هي دهشت كيف يتعجب الناس من فعلها حتى
لترى أن عجبهم أمر سخيف لا يؤبه له ، وهكذا أرغمت الجميع
رويدا رويدا على ان يكفوا عن نقد تصرفها ، بل على ان يروا
امرا سائغا .

والحق أن وراء ثبات ديليا وثقتها بنفسها غمامة كثيفة من الشكوك والريب ، ولكنها تعلمت مرة أن في مقدور الإنسان أن يأتي أى عمل ، حتى القتل ، لو أنه حاول الا يقدم تفسيراً لما يصنع . ولم تنس هذا الدرس أبداً . . . ولم يسبق لها أن فترت أخذها الطفلة اللقيطة ، وما هي الآن بمستعدة لتفسير تبنيها أياها لقد كانت تقوم بما تقوم به كما لو لم يحدث شيء ذو بال وساعدها قسـط ضخم من التواضع على الاحتفاظ بشكوكها لنفسها .

وكانت هذه الشكوك في الواقع تدور حول افكار شارلوت لوفيل الخاصة أكثر مما تدور حول الراى العام فان شارلوت عقب اللحظة الاولى لمقاومتها الفاجعة ظهرت بمظهر المعترف بالجميل في صورة تثير الشفقة بل الالم في النفس . ولقد كشف مسلك تينا بوضوح أنها على حق فيما فعلت فان تينا في خلال الايام الاولى عقب عودتها من حفل اسمة فاندرجريف بدت بوجه منقضى متجهم ذكر ديليا في عنف ببشاعة الصورة المفاجئة التي ظهرت لشارلوت لوفيل قبل ذلك بسنين في مرآة مخدعها . . ان الفصل الاول من تاريخ الام قد نقش الآن في عيني الابنة وان دم سيندر الذى يجرى في عروق تينا قد يكتب ختام هذا التاريخ . وفي اثناء تلك الايام القليلة التى انقضت في ملاحظة صامته اكتشفت ديليا في خوف وأشفاق ما يرر مخاوف شارلوت فانهما قد فقدتا الفتاة تقريبا ومهما كان الثمن فمثل هذه المخاطرة يجب ألا تعود .

أما أسرة هالسى فعلى العموم تصرفت بشكل يدعو الى الإعجاب لقد أبدى لانج رغبته في أن يتزوج ريبية ديليا رولستون - وكان معروفا أنها بعد فترة قصيرة ستأخذ اسم الام التى تبنتها كما سترث ثروتها . . . وأى طموح يرنو اليه فرد من أسرة هالسى اكبر من أن يتزوج فتاة من أسرة رولستون ؟ ولقد حدث دائما تزواج بين العائلتين وكان آباء أسرة هالسى يمنحون بركاتهم في تسرع كشف عن انهم هم كذلك متلهفون على هذا الزواج ، وان راحة النفس التى تنتج عن رؤية لانج مستقرا في حياة زوجية سعيدة لا بد أن تكون تعويضا كافيا عن العيوب الظاهرة في مثل هذا الزواج . على انهم بمجرد أن يستقر رأيهم على الزواج لن يسمحوا حتى لانفسهم بالاعتراف بوجود مثل هذه النقائص . . ان الجيل القديم من أهل نيويورك نبذوا على الدوام كل ما من

شأنه المساس بالاحتشام الكامل الواجب مراعاته في تصرفاتهم ..
وطبعاً لاحظت شارلوت لونيل كل هذا وأدركت كنهه ... لقد
بليت الوضع في خلواتها مع ديليا ورات فيه رحمة منعت
لذنب لا يستحقها وأصبح كل همها في الحياة أن تظل ابنتها على
حبلها بحقيقة العلاقة بينهما .

هكذا كانت تينا كل شيء في حياة ديليا ، فقدرات فيها الارملة
رحيمة كل ما كانت تحلم به من أمنيات وخيالات امتلاً بها شبابها
الضائع ، حتى لتحسب وهي تراها بعينين ظامئتين أن دم
الصغيرة هو الذي يسرى في عروقها ..

ولم يكن من الميسور الكشف عما دار في خلد الفتاة خاصاً
ببنيتها .. ففي سن الرابعة عشرة اطلعت على التفسير الذائع
ليلاؤها وقبلته في اهمال كما يقبل طفل سعيد حقيقة لا تمت
له بصلة ولا يستطيع أن يدرك كنهها . كما قبلت اجراءات
بنيتها بنفس الروح . . . اذ عرفت ان اسم اسرة رولستون
عطى لها بقصد تسهيل زواجهما من لانج هالسي ووقعت ديليا
نحت فكرة ان جميع الشكوك الغامضة جرفها شعور عارم
بحرفان الجميل : « لقد اعتسيتك دائماً كأمي والآن أيتها العزيزة
أنت حقاً أمي » . فهذا همست تينا في أذن ديليا ، وخذها ملاءق
لخدها .. فأجابتها ديليا وهي تضحك : « أجل .. هذا لو
ستطاع المحامون أن يجعلوني كذلك .. ! »

اقتربت الموجة الذهبية من اليوم الموعود ، وأخذوا يستعدون
حفل الزواج .. واتفقوا على عقد الزواج في قصر لوفيل ، وهو
البيت القديم الذي يشرف على الخليج حيث عقد قران ديليا لوفيل
نفسها وحيث اعتادت أن تقضى أشهر الصيف منذ أن توفيت
والدتها .. وبالرغم من أن الحى كان مغطى بشبكة من الطرقات
المهملة فان المنزل العتيق بشرفته المحوطة بالاعمدة مازال يطل على
ساحة واسعة مغطاة بالحشيش وبها مجموعات من الاشجار
القصرية المورقة .

كان من المقرر أن يعقد قران تينا في البيت كما حدث للسيدة
رولستون ، لا في الكنيسة ، وان كانت الاوساط التي تتبع الكنيسة
الاسقفية قد بدأت تستهجن مثل هذه الطقوس التي يرونها شبيهة
بالاجراءات الاضطرابية التي يلجأ اليها أتباع يوحنا المعمدان
والشيعة النظامية والموحدون وغيرهم من الشيع التي لا مذهب

لها .. وقد رأت ديليا وشارلوت ان جو الاعتكاف والعزلة الذى يهيؤه زواج يعقد فى البيت ، لابد ان يعوض الطابع الدنيوى الذى ينفرده به الزواج الاسقفى . وتحملت أسرة هالسى لهذا القرار ، وتبعاً لذلك استقرت السيدات فى قصر لوفيل قبل نهاية شهر يونيو. وفى كل صباح شوهد القارب الصغير الخاص بلانتج هالسى الشبان يعبر الخليج ويطوى شراعه فى المرسى الواقع أسفل الساحة الخضراء ...

وفى الليلة السابقة للزواج جلست ديليا رولستون فى الشرفة ترقب بزوغ القمر من افق الخليج وكانت متعبة من جراء ما قامت به من مهام ، كما كانت متقدمة لقرب فراق تينا ، وفى المساء التالى لزوجها سيصبح المنزل خاوياً : والى ان يجيئها الموت ستجلس هى وشارلوت وحدهما سوياً بجانب المصباح فى الامسيات ولكن هذا التضجر والسأم كان شيئاً سخيلاً لا يليق بها بيد ان ذكريات لا حد لها تحركت واختلجت فى نفسها .. لقد كان قلبها مثقلاً .. وبينما هى تغلق الباب على الغرفة الصامتة - وكانت قد تحولت الى كنيسة صغيرة بمذبحها المغطى باردية مقصبة وبالقوارير الطويلة من الصخر الكلسى الشفاف فى انتظار ورودها البيضاء ورياحين شهريونيو وبقطعة السجاد الحمراء المستطيلة التى تفصل صفوف المقاعد عن مكان القس - شعرت انه قد يكون من الخطأ العودة الى قصر لوفيل لعقد الزواج .. ومرة ثانية رأت نفسها فى ثوبها الهندى الغضفاض ذى الوسط المرتفع المزين بزهور الاقحوان وفى حذاءها الخفيف المصنوع من الحرير رقيق حجابها الشفاف من بروكسل - ومرة اخرى رأت صورتها منعكسة فى المرآة الكبيرة المثبتة فى الحائط المصفرة اللون كما رأتها وهى تترك نفس هذه الغرفة منكئة على ذراع جيم رولستون وتذكرت النظرة الخاطفة الوحيدة الممتلئة رعباً التى ألقتها على صورتها قبل ان تأخذ مكانها تحت اريكة من الورود البيضاء فى القاعة الكبرى وهى تبسّم للمهنئين .. آه كم تختلف الصورة التى تعكسها المرآة الكبيرة غداً .

وسمعت فى الداخل صوت خطى شارلوت لوفيل السريعة جاءت وما لبثت ان انضمت الى السيدة رولستون .
- « ذهبت الى المطبخ لاخبر الطاهية بأن تجهز مائتى طبق من المثلجات »

— « مائتى طبق؟ اجل — اظن ذلك لان كل معارفنا من فيلادلفيا سيحضرون » وفكرت ديليا لحظة ثم قالت : « ماذا نم بخصوص المناشف الورقية التى توضع فى الاطباق ؟ »

— « بمعاونة خالتك سندبر كل شئ على وجه السرعة .. »
— « اجل — شكرا لك! شارلوت على تجشمك كل هذه المتاعب .. »

فتمتت شارلوت محتجة وعلى فمها ابتسامتها الزائفة :
ولاحظت ديليا السخربة التى ينطوى عليها شكر ام على اهتمامها بتفاصيل زواج انتها.

— « اجلسى هنا يا شاتى » قالت فى صوت منخفض وهى تحس الدم يصعد الى وجهها لزلتها ..

وجلست شارلوت على اقرب مقعد وهى تتأوه من التعب ..
— « سيكون يومنا غدا رائعا قالت ذلك وهى ترقب صفيحة السماء الهادئة فى تفكير عميق .

— « نعم ! اين تينا ؟ »

— « كانت متعبة للغاية فأرسلتها الى الطابق العلوى كى تستريح .. »

وكان الظرف مناسباً جداً فلم تحر ديليا جواباً سريعاً . وبعد لحظة قالت : « سنفتقدها بعد زواجها » ..
وكانت اجابة شارلوت غميمة غير مسموعة .

وظلت ابنتا العم صامتتين ، وجلست شارلوت كعادتها مرفوعة القامة ويدها النحيلتان متشبثتان بمسندى مقعدها المنخفض القديم ، بينما غاصت ديليا فى مقعد كبير مرتفع الظهر ..
لقد تبادلتا ملاحظتهما الأخيرة عن استعدادات اليوم التالى ولم بعد هناك شئ آخر يقال عن عدد الضيوف واعداد الشراب وترتيبات ملابس القسيس وعرض الهدايا فى احسن غرفة من غرف نوم الضيوف ..

موضوع واحد فقط لم يمس بعد ، وظلت ديليا ترقب وجه ابنة عمها متجهما فى ضوء الشفق الذائب وانظرت ان تتكلم ، ولكن شارلوت ظلت على صمتها

وأخيرا شرعت ديليا تقول وفي صوتها رعشة خفيفة « كنت أفكر أنه يجب على الآن - »
وخيل اليها أنها ترى بدى شارلوت وهما يشدان مقبض المقعد . .

- « ماذا يجب عليك الآن ؟ »

- « حسنا قبل ذهاب تينا للفراش قد يكون من الواجب على أن أصعد اليها لبضعة دقائق »
وظلت شارلوت لا تتكلم وظهر تصميمها على عدم بذل أى مجهود لمساعدتها .

واستمرت ديليا تقول « غدا سنكون فى زحمة الامور ابتداء من مطلع النهار ولا أدري كيف يمكننى فى شواغل اليوم المثيرة ان . . »
- « يمكنك ماذا ؟ » رددتها شارلوت فى صوت جاف !

وأحست ديليا بوجهها يزداد احمرارا فى ضوء الشفق وهى تقول متلعثمة : « حسنا أظن أنك توافقيننى على أنه لابد من كلمة نَقال للصبية عن الواجبات والمسئوليات الجديدة مما يقال فى هذه المناسبات . »

- « نعم ! لقد فكرت فى ذلك » ولم تزد شارلوت كلمة ، ولكن ديليا اكتشفت فى نبرة صوتها الميل لتلك المعارضة الغامضة التى أعلنت عن نفسها بشكل آلى فى اللحظات الحرجة فى حياة تينا . . ولم تستطع ادراك السبب الذى من أجله تكون شارلوت فى مثل هذه اللحظات مبهمة لا يمكن التفاهم معها . ولم تر الآن سببا فى أن يحول هذا التقلب فى حالتها دون قيامها بما تعتقد انه واجبها . . ان تينا تنتظر فى لهفة معاونتها على اجتياز حياتها الجديدة فتكون هذه المعاونة وداعا حقيقيا لها . . وبقلب يدق أسرع قليلا من المعتاد وقفت واجتازت النافذة الى غرفة الجلوس ، وكان القمر من خلال أعمدة الشرفة يرسل ستارا من البور على صفوف الكراسى ويضئ المذبح المزين بالحرير والقصب بما عليه من شمعدانات وقوارير فارغة ، ويرسم فى لون فضى صورة ديليا فى المرأة الكبيرة المثبتة على الحائط . . .

وعبرت الغرفة فى اتجاه الصالة .

ورن فى أثرها صوت شارلوت يناديها « ديليا . . ! »
ووقفت المرأتان تتفحص كل منهما الاخرى فى الضوء القوي

وكان وجه شارلوت يبدو كما بدا فى ذلك اليوم المخيف عندما
رأته ديليا فجأة فى المرأة فوقها .

وسألتها شارلوت : « هل كنت صاعدة الآن للكلام مع تينا ؟ »
- « أنا - نعم ! لقد أشرفت الساعة على التاسعة وظننت .. »
- « نعم أعرف ذلك » وقامت الآنسة لوفيل بجهود ظاهر
لكى تضبط نفسها ، وقالت : « أرجوك أن تفهمينى أنا أيضا
يا ديليا اذا طابت منك ألا تفعلى »

ونظرت ديليا الى ابنة عمها وقد تملكها خوف غامض . أى
لغز جديد يخفيه هذا الطلب الغريب ؟ ولكن لا - مثل هذا
الشك الذى اختلج فى عقلها لا يمكن قبوله . انها واثقة تماما
فى عزيزتها تينا .

- « أعترف بأننى لا أفهم مرادك يا شارلوت .. أنت دون شك
تحسين بحاجة الفتاة فى الليلة السابقة لزواجها الى نصيحة من
أمها .. »

- « نعم أحس بذلك . ولكن المشكلة هى : أين أمها ؟ »
وتراجعت ديليا على الرغم منها وقالت متلعثمة : « أين أمها ؟ »
- « نعم ! لا تظنى بأن هذه هى المرة الاولى التى أسأل فيها نفسي
هذا السؤال ! فى نيتى أن أكون هادئة كل الهدوء . اننى
لا أنوى العودة الى الماضى لقد قبلت - قبلت كل شىء شاكراً -
.. فقط الليلة - الليلة فقط .. »

وشعرت ديليا بغمرة العطف التى تسيطر دائما على أحاسيسها
كلما جلست الى شارلوت لوفيل تتبادلوا آياها والآراء وتناقشها
فى الحقائق ، وامتلات حنجرتها بالدموع وظلت ساكنة .

واختتمت شارلوت حديثها بهذه الجملة « الليلة فقط ! أنا
أمها .. » .. فقالت ديليا فى رحمة وأسف !

« شارلوت ! لن تخبريها بذلك - ليس الآن ؟ » وخرجت
من فمها هذه الجملة على غير ارادتها ..

وضحكت شارلوت ضحكة واهنة وقالت « واذا فعلت فهل
تكرهين ما أقول كل هذا الكره ؟ »

- « أكره ؟ يا لها من كلمة لا تليق بيننا ! »
- « ولكنها الكلمة التى ظلت بيننا منذ البداية .. منذ اليوم
الذى اكتشفت فيه ان كل منيت سبندر لم يحطم قلبه حين لم يكن

كفؤا لك .. منذ أن ثارت لنفسك بوضعي تحت رحمة ك
وبانتزاع طفله مني . . ! وهكذا خرجت كلمات شارلوت
نارية ملتهبة كأنها مقدوفة من أعماق الجحيم ، ثم همدت النار
فانحدر رأسها على صدرها . . . ووقفت وقد انعقد لسانها أمام ديليا
فلم تملك ديليا نفسها الا أن تعود بذكرياتها الى الوراء في حلق ،
فبينما كانت نفسها تجيش بالرق والشفقة وبالرغبة في المساعدة
والشعور بروح الصداقة كانت هذه السحب القاتمة تتجمع في
صدر الشخص الآخر كأنها دخان سام قد هب على منظر رائق في
يوم صيف .

وفي العادة كان يعقب مثل هذه الاحساسات شعور سريع
بالعطف ، ولكنها الآن لم تشعر بشيء من هذا ، لقد تملكها اعياء
شامل .

ثم قالت في بطة : « أجل في بعض الاحايين أعتقد أنك كرهتني
من البداية ، كرهتني لكل شيء حاولت أن أقوم به من أجلك »
ورفعت شارلوت رأسها في حدة وقالت : « تقومين به من
أجلي ؟ ولكن كل شيء فعلته ! كان من أجل كليمنت سبندر ! »
فحملت فيها ديليا بنوع من الرعب قائلة : « أنت مخيفة
يا شارلوت . أقسم ما فكرت في كليمنت سبندر منذ سنوات »
فقالت شارلوت : « آه ولكنك فكرت .. فكرت ! لقد فكرت فيه
دائما وذلك بتفكيرك في تينا .. لقد فكرت فيه ، وليس
في أي انسان آخر .. ان المرأة لاتنقطع عن التفكير في
الرجل الذي تحبه .. انها تفكر فيه لعدة سنوات لاحقة بكل
الاساليب اللاشعورية .. وذلك بالتفكير في أمور مختلفة متباينة
- في الكتب والصور وغروب الشمس ، وبالتفكير في زهرة أو
شريط - أو في ساعة على رف المدفأة .. » ثم أضافت وهي
تضحك في خبث : « هذا ما قامرت عليه . هذا هو السبب في
مجيئي اليك في ذلك اليوم .. كنت أعرف أنني بذلك أهب تينا
أما أخرى .. »

مرة أخرى أخذ الدخان السام يحوط ديليا .. انهما امرأتان
مستتان ذاويتان تقفان أمام المذبح فى يوم زفاف تينا وتحدثان عن
الكره ! لقد بدا هذا عملا كريها شائنا فلم يسع ديليا الا ان
تصرخ قائلة : « انت امرأة شيرة - انت شيرة »

ثم انجلت السحابة القاتمة ورأت الوجه الكسير المبتس للام
التي لم تكن أما والتي هى فى مقابل كل خير أصابها أحست بأن
حقا من حقوقها قد اغتصب منها ... فاقتربت من شارلوت
ووضعت يدها على ذراعها . وقالت :

- « ليس المجال لهذا الكلام . لا يليق أن نتكلم فى هذا
المكان . »

فجفلت الاخرى وقالت : « فى أى مكان تشائين فلا يهمنى
المكان ! »

- « ولكن ليلتنا هذه يا شارلوت هى الليلة التى تسبق زواج
تينا ؟ أليس كل جزء من هذا البيت ممتلئا بها ؟

وصمتت شارلوت ، واستمرت ديليا تتكلم بصوت أكثر ثباتا :
« ما من شيء تقولينه يمكن أن يؤذيني لفترة طويلة ، كما اننى
لا أريد أن ألحق بك أذى ، وما فعلت ذلك قط . »

- « تقولين ذلك وأنت التى ما تركت وسيلة الا توصلت بها
لإبعادى عن ابنتى ! هل تظنين انه كان من السهل على أن أسمعها
وهى تدعوك « يا أمى » ؟ اننا اتفقنا على ألا نجعلها تظن الظنون
.. ولكن لو لم تقف على الدوام بيننا ما كانت تجد أحدا سواى
وكان لا بد لها أن تحس نحوى بنفس الشعور الذى يحسه كل
طفل نحو أمه ، كان لا بد لها أن تحببني أكثر من أى انسان آخر .
فعلى الرغم من كل كرمك وسخائك قد انتهيت بسرقة طفلى ، ولقد
تحملت ذلك من أجلها فقط - لانه كان أمرا لا بد منه ، ولكنها
فى هذه الليلة تخصنى وحدى فلا أتحمل أن تدعوك يا أمى .. »
ولم تحر ديليا رولستون جوابا سريعا .. خيل اليها أنها قد
مست لأول مرة أعماق أعماق عاطفة الأمومة فى نفس شارلوت ،

فوقفت مشدوهة لما يصدر عنهما من أصداء داوية ...

غمغمت تقول : « لابد أن حبك الشديد لها هو الذى حملك على أن تقولى هذه الكلمات » ثم استمرت بأذلة مجهودا أخيرا :
- « نعم ! أنت على حق ولن أصعد اليها فأنت التى يجب أن تصعد »

واتجهت شارلوت اليها بحركة تلقائية ، ولكن ديليا خرجت الى الشرفة رافعه يدها كما لو كانت تدافع عن نفسها ، وبينما هى تغوص فى كرسيها سمعت باب غرفة الجلوس يفتح ثم يغلق وصوت قدمى شارلوت على السلم .

جلست ديليا وحيدة فى ظلام الليل ، ولقد ضاعت آخر قطرة من شهامتها ، وحاولت أن تثنى عقلها المذعور عن التفكير فى شارلوت .
ماذا يحدث فى هذه اللحظة فى الطابق العلوى ؟ وأى أسرار مزعجة ستزيل كل أثر لأحلام تينا فى ليلة عرسها ؟ والآن ليس هذا بالأمر الذى يخضع للحديث والتخمين ، فهى ديليا رولستون قد قامت بواجبها وبذلت كل ما فى وسعها ولم يتبق شئ الآن سوى أن ترفع روحها المعنوية فوق شعورها الممض بالفشل .

كان هنالك عنصر غريب من الصدق فى بعض ما قالته شارلوت ، فما أغرب ما زودتها به عاطفة الأمومة من نظر ثاقب وقدرة على اكتناه الأمور ... لقد أمدتها الغيرة بملايين الاعضاء الحساسة ... نعم كان حقا أن الليلة السابقة لعرس تينا قد امتلأت نلى رقتها وهذوئها برؤى ماضى ديليا ، تلك الرؤى التى لم تتحقق ...
وفى هدوء ودون أن تدري ، مالت بها هذه الأحلام نحو ذكرى ما فاتها ، فطوال هذه الايام الاخيرة كانت تحيا ، فى حياة الفتاة ، فكانت هى تينا وكانت تينا رمزا لشبابها وعلمها على ديليا لوفيل التى عاشت فيما ذهب من الايام ... والآن وللمرة الأولى تستطيع ديليا أن تستسلم لرؤيا هذا الحب المحرم الذى طالما جفل منه خيالها دون خجل أو شعور بالذنب ودون عذاب أو شكوك .. لقد اختارت فى شبابها تقرير مصيرها وفى سنوات النضج قبلت هذا المصير والآن تجد فى فرحة هذا الزوج ، التى تحس أنها فرحتها هى ، تعويضا لها عن كل ما فاتها .

أدركت ديليا فى هذه اللحظة أن شارلوت قد عرفت كل هذا ، فامتلات حنقا شديدا ... قالت شارلوت منذ وقت طويل أن

كليمنت سبندر لم يكن على وجه التحقيق لها قط ، والآن لاحظت
نفس الشيء فيما يختص بطفلة كليمنت سبندر ٠٠٠ وبينما
الحقيقة تشرق على ديليا في هدوء ذاب قلبها بتأثير عطفها القديم على
شارلوت ، ورأت أن التدخل في أقدار شخص آخر أو المساس
بحقه في الحب أو في العذاب على طريقته في سبيل الحب ، انما هو
جرم فظيع وانتهاك لحرمة مقدسة ٠٠٠ ولقد تدخلت
ديليا مرتين في حياة شارلوت لوفيل فكان من الطبيعي أن تراها
شارلوت تدعوها للدود ، ليتها لا تتأثر لنفسها عن طريق ايداء تينا .
وارتدت أفكار الأُم المتبينة في ألم الى الغرفة البيضاء الصغيرة
في أعلى المنزل ٠٠٠ كان في نيته أن يكون الوقت القصير
الذي تقضيه مع تينا باعثا لها على أفكار زكية الرائحة لها عطر
الورود التي ستقع عليها عيناتينا عند استيقاظها من النوم ،
أما الآن . . وهبت ديليا من أفكارها على وقع أقدام على السلم ، وكانت
شارلوت تهبط سلم البيت الصامت ، ووقفت ديليا وبها رغبة غامضة
في الهرب ٠٠ لقد أحست بعجزها عن النظر في عيني ابنة عمها ،
فدلفت الى ركن من الشرفة وهي تأمل في أن تجد عوارض باب
غرفة الطعام مفتوحة فتتسلل منها الى غرفتها دون أن يراها أحد ،
ولكنها في لحظة أصبحت أمام شارلوت

— « ديليا ! »

— « آه هذا أنت ؟ كنت على وشك الصعود للنوم »

— « نعم ! ان الوقت متأخر الآن . لابد أن تكوني في غاية التعب »
وتوقفت شارلوت عن الكلام وكان صوتها متوترا ومملوءا ألما ٠٠

قالت ديليا مؤمنة على كلامها « اني منهكة »

وفي سكون الليل الذي أضاءته أشعة القصر أقبلت نحوها
شارلوت ووضعت يدا مرتعشة على ذراعها وقالت : « لن تذهبي
قبل أن ترى تينا »

وأجابت ديليا بحدة : « تينا ؟ ولكن الوقت متأخر الآن ! أليست
نائمة ؟ ظننت أنك ستبقيين معي حتى ٠٠ »

- « لا أدري إذا كانت نائمة أولا » وتوقفت شارلوت عن الكلام ثم
قالت : اننى لم ادخل - ولكن رأيت ضوءا تحت بابها »
- « لم تدخلى ؟ »

- « لا وقفت فقط فى الممر وحاولت »
- « حاولت ؟ »

- « حاولت أن أفكر فى شىء... شىء أقوله لها دون أن ..
تحزر .. » ومنعتها من الكلام شهقة ، ولكنها تحاملت على نفسها
وبذلت مجهودا أخيرا ...

- « لا فائدة ... لقد كنت على صواب : ليس عندى ما أستطيع
قوله . أنت أمها الحقيقية . اذهبي اليها ... ليست الخطيئة منى ولا
منك .. »

فبكت ديليا وتشبثت شارلوت بها فى ذلة غير واضحة وقالت :
« قلت اننى شريرة - أنا لست شريرة على كل حال ... كانت
ملكى عندما كانت صغيرة ! »

ووضعت ديليا ذراعها حول كتفها وقالت : « أسكتى يا عزيزتى !
سوف نذهب اليها سويا ... »

وخضعت الأخرى دون تفكير فارقت المرأة السلم جنباً الى
جنب ، وأخذت شارلوت توفق بين خطواتها السريعة وحركات ديليا
الثقيلة ، وسارا فى الممر حتى باب تينا ، فلما وصلا اليه توقفت
شارلوت لوفيل وهزت رأسها ... وهمست :

- « لا - أنت » وقفلت راجعة ...

رقدت تينا فى فراشها وقد طوت ذراعيها تحت رأسها ،
وانعكس على عينيها ضوء السماء الفضى الذى امتلأت به النافذة
وابتسمت لديليا خلال حلمها ..

- « كنت أعرف أنك ستجيئين ... »

وجلست ديليا بجوارها وأستقرت يدهما المتشابكتان على

الغطاء، ولم يتكلم كثيرا فليس اندماجهما في حاجة الى الالفاظ ...
وما عرفت ديليا قطكم من الزمن أمضته بجوار انصبية فلقد
استسلمت لسحر القمر .

ولكنها فجأة تذكرت أن شارلوت وحيدة خلف باب غرفتها
المغلق ترقب وتقاوم وتصغى، ولا بد لديليا حرصا على راحتها أن
تضع حدا لهذه اليقظة الفاجعة، فانحنت لتقبل تينا قبله الوداع ،
ثم توقفت عند مدخل الغرفة ونظرت خلفها وقالت: « يا عزيزتى!
شئ واحد أخير »

فغمغمت وهى شبه حاملة : « نعم ؟ »

– « أريد منك أن تعدينى »

– « أى شئ .. ! أى شئ ، يا أمى الحبيبة .. ! »

– « حسنا .. اذن عدينى بأنك عندما ترحلين غدا – فى آخر
لحظة ، هل تفهميننى ؟ »

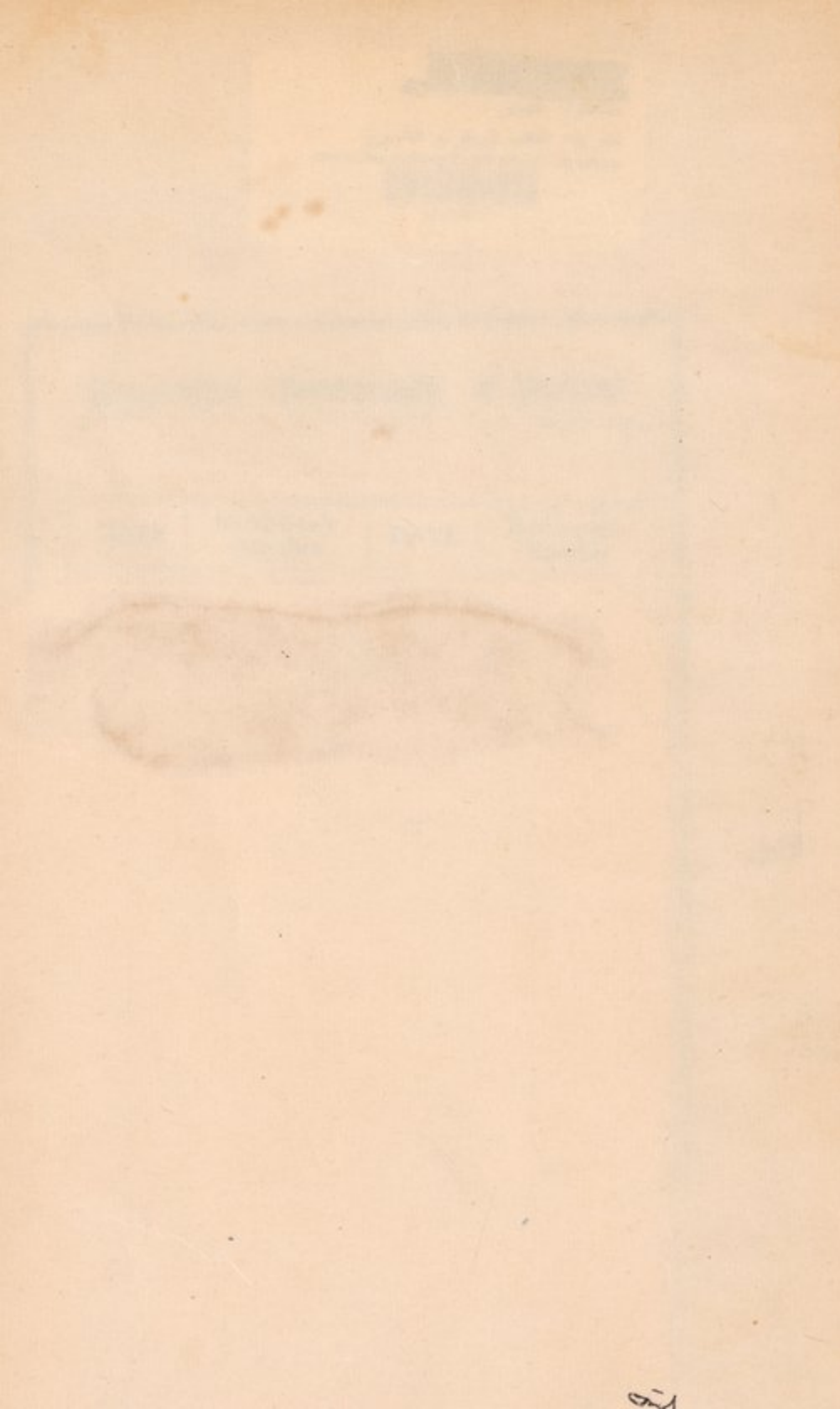
– « نعم ثم ماذا ؟ »

– « بعد أن تودعينى وتودعى كل فرد آخر – فى اللحظة التى
يعاونك فيها « لاننج » على ركوب العربة »

– « ثم ماذا ؟ »

– « عدينى بأن تعطى قبلتك الأخيرة لخالتك شارلوت ... اياك
أن تنسى آخر قبلة ... »

(انتهت)



وارتون

ضريبة الحب

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
------	----------------------	------	----------------------

محمود، حسن

ضريبة الحب (وغرام عانس)

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030277

American University of Beirut



General Library

